جائزة نوبل للآداب ١٩٣٤

رواية

لويجي بيراندِلُّلو

واحدٌ، ولا أحد ومِائة ألف

ترجمها عن الإيطالية: أمارجي

المتوسط

جائزة نوبل للآداب ١٩٣٤

لويجي بيراندِلُّلو

واحدٌ، ولا أحد ومِائة ألف

ترجمها عن الإيطالية: أمارجي

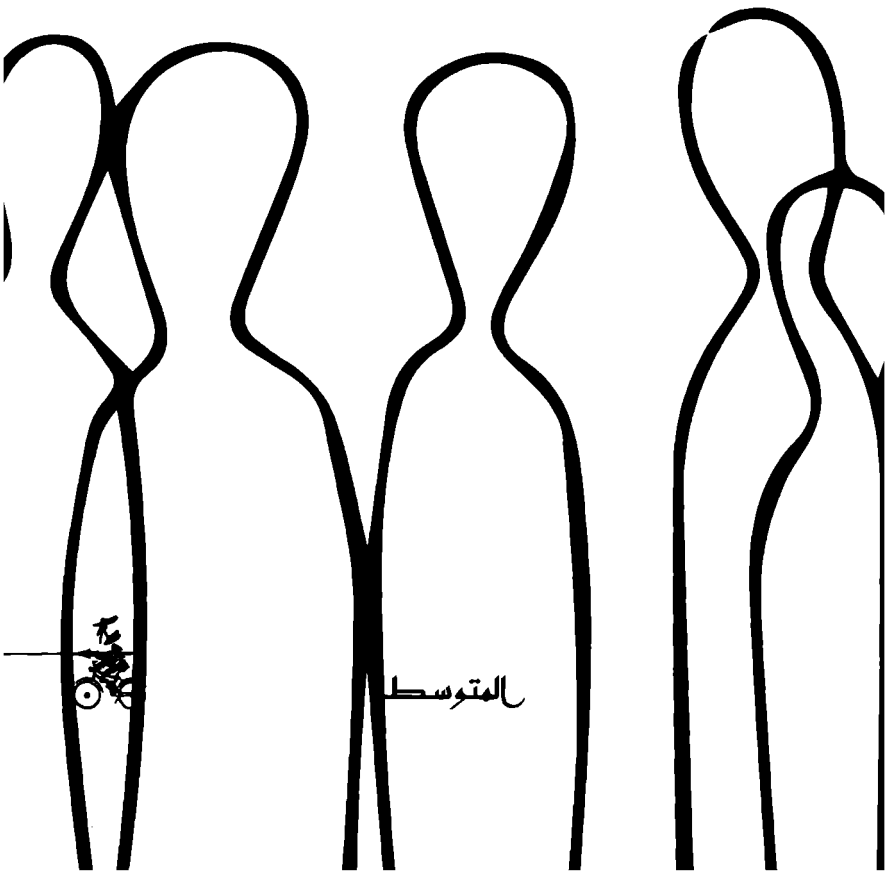

حقوق هذه الترجمة ونشرها © ٢٠١٧ **منشورات المتوسط** - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Uno Nessuno e Centomila *by* "Luigi Pirandello"
Arabic translation copyright © 2017 by **Almutawassit Books.**

المؤلف: لويجي بيراندِلُّلو / المترجم: أمارجي
عنوان الكتاب: واحدٌ، ولا أحد، ومِائة ألف.
الطبعة الأولى: ٢٠١٧.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-05-5

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

الكتاب الأوَّل

-I-

زوجتي وأنفي

- ماذا تفعل؟- سألتْني زوجتي، إذْ رأتْني أتوانى على غير المُعتادِ أمامَ المرآة.

- لا شيء،- أجبتُها،- إنَّني أنظرُ هنا، داخلَ أنفي، في هذا المِنخَر. مُؤكِّداً ومُعلِناً بشيءٍ من الألم.

تبسَّمت زوجتي، وقالت:

- ظننتُكَ تنظرُ إلى أيِّ جهةٍ من وجهكَ يميل.

التفتُّ مثلَ كلبٍ داسَ أحدُهم على ذيلِه:

- يميل؟ في وجهي أنا؟ أنفي؟

وبوداعةٍ، قالت زوجتي:

- بلى، يا عزيزي. انظرْ إليه جيِّداً: إنَّه يميلُ نحو اليمين.

كنتُ في الثَّامنة والعشرين من عمري ودائماً اعتقدتُ، حتَّى تلك اللحظة، أنَّ أنفي كان لائقاً جدَّاً، مثلما هو شأن بقيَّة أجزاء جسمي، حتَّى وإن لم يبدُ جميلاً حقَّاً. لأجل ذلك كان من السَّهلِ من وجهة نظري أن أقبلَ وأتحمَّلَ ما يَقبَلُه ويتحمَّلُه عادةً كلُّ أولئك الذين لم تُلِمَّ بهم مُلِمَّةُ الحِظوةِ بجسدٍ شائه: فذلك من شؤون الحمقى تَبَجُّحُ المرءِ بجمالِ قسماته. ولهذا فإنَّ ذلك الاكتشافَ المباغِتَ وغير المتوقَّع لذلك الخلل أسخطَني كما لو أنَّني نلتُ عقوبةً غير مُستحَقَّة.

ربَّما رأتْ زوجتي جُلَّ ما كان يدورُ في دخيلةِ نفسي في سُخْطيَ ذاك، فأضافتْ مِن فورِها أنَّني، إذا ما خلدتُ إلى اليقينِ بأنِّي كاملٌ بلا عيوب، فإنَّني لا ريبَ سأصحو من ذلك، لأنَّه، مثلما أنَّ أنفي يميلُ نحوَ اليمين، كذلك ...

- وماذا أيضاً؟

إيهِ، أيضاً! أيضاً! الحاجبان فوق عينيَّ يبدوان كعلامتَيْن من علاماتِ مَدِّ النَّبر، وأذنايَ عُلِّقَتَا بصورةٍ سيِّئة، فإحداهما بارزةٌ أكثر من الأخرى؛ وغير ذلك من العيوب ...

- أثمَّة المزيد؟

إيه بلى، ثمَّة المزيد: في اليدَيْن، في خنصرَيْهما؛ وفي السَّاقَيْن (لا، ليسَ كُساحاً!)، تلك اليُمنى، أكثر تقوُّساً بقليلٍ من الأخرى: نحوَ الرُّكبةِ، قليلاً.

بعدَ تفحُّصٍ مُتأنٍّ اضطُررتُ إلى الإقرار بحقيقةِ هذه العيوب كلِّها. وحينذاك فحسب، وقد تحوَّلَ بطبيعةِ الحالِ إلى شعورٍ بالألمِ والمهانةِ الذُّهولُ الذي أصابني فوراً بعدَ السُّخط، حضَّتني زوجتي على ألَّا أغتمَّ كثيراً لذلك، لأنَّني حتَّى مع تلك العيوب، وبعد كلِّ شيءٍ، أبقى رجلاً وسيماً.

أتحدَّاكم ألَّا تغضبوا، حين تتلقَّون كهبةٍ سخيَّةٍ ما كان قد أُنكِرَ عليكم مِن قبلُ كحقٍّ من حقوقكم. نفثتُ "شُكراً" مُشَبَّعةً بالسُّموم، وواثقاً مِن أنَّه ما مِن سببٍ لكي أشعرَ بالألمِ أو المهانة، فإنَّني لم أعطِ أيَّ أهمِّيَّةٍ لتلك العيوب الصَّغيرة، ولكنَّ أهمِّيَّةً كبيرةً وخارجةً عن الحدِّ أعطيتُها لحقيقةِ أنَّ سنيناً عديدةً كنتُ قد عشتُها من دون أن أغيِّرَ شيئاً في أنفي، فأنا لم أعش يوماً منفصلاً عن ذلك الأنف، عن ذَينِكَ الحاجبَيْن وتَينِكَ الأذنَيْن، وعن تَينِكَ اليدَيْن وتَينِكَ السَّاقَيْن؛ وكان عليَّ أن أنتظرَ حتَّى أتَّخذَ زوجةً لكي أفطنَ إلى أنَّ بها عيوباً.

- أوه، واعجبي! وما أدراكم ما هُنَّ، الزَّوجات؟ إنَّما خُلِقْنَ بقصدِ رفعِ الحجابِ عن عيوب الزَّوج.

هوَ ذا، بالفعلِ ما هُنَّ عليهِ - الزَّوجات، ولا أنكرُ ذلك. ولكنْ، أنا الآخر، إذا جازَ التَّعبير، كنتُ في ذلك الوقت مُعَدَّاً للسُّقوط، عندَ كلِّ كلمةٍ تُقالُ لي، أو ذبابةٍ أراها تطير، في هاويةِ التَّفكير والتَّفكُّرِ اللذَيْن كانا ينبشان في داخلي ويحفرانِ روحي التفافاً نحو الأسفل وانحرافاً نحو الأعلى، كجُحْرِ الخُلد؛ دون أن يظهرَ مِن ذلك شيءٌ مِنَ الخارج.

- من الواضح،- ستقولون لي،- أنَّ لديكَ الكثير من الوقت لتُضيِّعَه.

لا، ليس هذا بالضَّبط، كنتُ لأجيبكم. أقصدُ بالنَّظرِ إلى الحالة الذِّهنيَّة التي كنتُ فيها. ولكنَّني من جهةٍ أخرى، حتَّى فيما يتعلَّق بالخمول، لستُ في واردِ أنْ أنكرَ شيئاً. ثريَّاً كنتُ، لديَّ صديقان مُخلِصان، سِباسْتيانو كوانتورتْسو وإسْتِفانو فِيربو، كانا يُديران أعمالي بعد موتِ والدي؛ ذلك الذي، وبالرَّغم من جميع محاولاتِه المبذولةِ بكلِّ الطُّرُق والوسائل التي يمكن تخيُّلُها، لم ينجح في جعلي أنجزُ شيئاً؛ خلا أن أتَّخذ زوجةً، وأنا في رَيْعانِ شبابي، هذا بلى؛ ربمَّا على أملِ أن أُرزَقَ باكراً بابنٍ لا يشبهُني في شيء؛ ويا لِلمسكين، حتَّى هذا لم يستطع أن يحصلَ عليه منِّي.

وليس الأمرُ، فلننتبه، أنَّني أعارضُ مشيئةَ اتِّخاذ الطَّريق التي كان يقودني إليها والدي. فكلُّ تلك الطُّرق اتَّخذتُها. أمَّا السَّيرُ عليها، فهذا هو ما لم أكن أفعله. كنتُ أتوقَّفُ عندَ كلِّ خطوة؛ أنتبذُ في البدءِ مكاناً قصيَّاً، ثمَّ كلَّما دنوتُ شيئاً وجدتُني أدورُ حولَ كلِّ حصاةٍ أصادفُها، ولَشَدَّ ما كان يُدهِشُني أنَّ الآخرين كان في مُكْنَتِهم المرورُ من أمامي دون أن يُلقوا بالاً إلى تلك الحصاة التي كانت

في تلك الأثناء تضاهي في نظري حجمَ جبلٍ لا يمكن تخطِّيه، بل حجمَ عالَمٍ استطعتُ بلا ريبٍ أن أقيم لنفسي منزلاً فيه.

كنتُ أمكث على تلك الحال، متحجِّراً عند الخطواتِ الأولى من طُرُقٍ كثيرةٍ اتَّخذتُها، بروحٍ مُكتظَّةٍ بالعوالِم، أو بالحُصِيِّ، لا فرقَ. ولكن لم أكن لأخالَ على الإطلاق أنَّ أولئك الذين كانوا يمرُّون من أمامي وقد قطعوا كلَّ الطَّريق، كانوا يعلمون في المحصِّلةِ أكثر ممَّا أعلم. لقد مرُّوا من أمامي، لا شكَّ في ذلك، وكلُّهم مزهوُّون كجيادٍ فتيَّةٍ لا حصرَ لها؛ ولكنَّهم بعد ذلك، في نهاية الطَّريق، عثروا على عربة: عربتِهم؛ تلك التي رُبِطوا إليها بصبرٍ كبيرٍ، وها هم الآن يجرُّونها من ورائهم. أمَّا أنا، فلم أكن أجرُّ أيَّ عربة؛ ولم يكن لي لأجل ذلك رسنٌ ولا غِماء؛ كنتُ أرى بالتَّأكيد أكثر منهم؛ أمَّا المُضِيُّ، فلم أكن أعرف إلى أين أمضي.

الآن، بالعودةِ إلى مسألةِ اكتشاف تلك العيوب الصَّغيرة، فإنَّني قد سقطتُ كُلِّيَّاً، وفي الحال، في هاوية التَّفكير بأنَّني إذاً - أيمكن ذلك؟- لم أكن أعرف جيِّداً ولا حتَّى جسدي نفسه، ولا حتَّى الأشياء الأكثر التصاقاً بي: الأنف، الأذنَيْن، اليَدَيْن، السَّاقَيْن. فنكصتُ على عقبيَّ أنظرُ إليها بعين المتفحِّص.

من هنا بدأتْ آلامي. تلك الآلام التي صيَّرتْني باختصارٍ في حالةٍ ذهنيَّةٍ وجسديَّةٍ جدُّ بائسةٍ ويائسة حدَّ أنَّها كانت ستدفعني يقيناً إمَّا إلى الموت، وإمَّا إلى الجنون، إذا أنا لم أعثر في ذلك الدَّاء نفسِه (يمكنُ القولُ) على الدَّواء الذي ينبغي أن يشفيني.

-II-
ماذا عن أنوفكم أنتم؟

في الحال بدأ يُخَيَّلُ إليَّ أنَّ الجميع، بعد أن رفعتْ زوجتي ذلك الحجابَ، سيُلاحظون لا محالةَ عيوبي الجسديَّة تلك، بل ولن يُلاحظوا فيَّ سواها.

- أتنظرُ إلى أنفي؟- سألتُ على حين غرَّةٍ في ذلك اليومِ نفسِه صديقاً لي كان قد اقترب منِّي ليحدِّثني لا أذكرُ عن أيِّ صفقةٍ ربَّما كانت تعني له الكثير.

- لا، لماذا؟- قال لي هوَ.

ومبتسماً أجبتُه أنا بعصبيَّةٍ:

- إنَّه يميل نحو اليمين، ألا ترى؟

وهكذا فرضتُ عليه القيام بمراقبةٍ ثابتةٍ ومتأنِّية، ليرى كيف أنَّ ذلك العيبَ في أنفي كان عَطَبَاً لا يمكن إصلاحُه أصابَ تجانُسَ الكون.

نظرَ إليَّ الصَّديق في أوَّلِ الأمر مشوَّشاً قليلاً. ثمَّ، وقد ارتابَ بطبيعةِ الحال بأنَّني إنَّما أطلقتُ فجأةً وخارجَ سياقِ الموضوعِ الحديثَ عن أنفي، لأنِّي وجدتُ الصَّفقة التي كان يحدِّثني عنها غير جديرةٍ بالاهتمام ولا بالإجابة، قلبَ لي ظهرَ المِجَنِّ وقامَ ليغادرني فجأةً.

أمسكتُ بهِ من ذراعِه، ومن ثَمَّ:

- لا، كما تعلم - قلتُ له،- أنا مستعدٌّ لأناقش هذه الصَّفقة معكَ. ولكنْ، في هذه اللحظة عليكَ أن تعذرَني.

- أتفكِّرُ في أنفِكَ؟

- لم أنتبه قبلَ اليوم أبداً إلى أنَّه يميل نحو اليمين. لقد نبَّهتني إلى ذلك، صبيحةَ اليوم، زوجتي.

- آه، حقَّاً؟- سألني إذَّاكَ صديقي؛ وعيناه تضحكان بارتيابٍ لا يخلو كذلك من سُخرية.

وقفتُ أنظر إليه كما سبق وفعلتُ مع زوجتي في الصَّباح، أي بمزيجٍ من المهانةِ والسُّخطِ والذُّهول. أكان إذاً منتبهاً هوَ الآخرُ إلى ذلك منذ أمدٍ طويل؟ ومَنْ يعلم كَم شخصاً آخرَ معه! فيما كنتُ أنا غافلاً طوالَ الوقتِ عن ذلك، ولَمَّا كنتُ غافلاً عن ذلك، كنتُ أحسبُ أنَّني في نظرِ الجميع ذلك الموسكاردا(*) المستقيم الأنف، بينما لم أكن في المقابل في نظرِهم إلَّا ذلك الموسكاردا المعْوَجَّ الأنف؛ ومَنْ يعلم كم مرَّةً خطر ببالي أن أتكلَّمَ، دون أيِّ ارتيابٍ، على الأنفِ العَطِبِ لتِيتْسيو أو لِكايو، وكم مرَّةً تلافيتُ مِن ثَمَّ دَفْعَ الآخرين إلى الضَّحك عليَّ والتَّفكيرِ:

- لكنْ، انظرْ قليلاً إلى هذا البائس الذي يتكلَّمُ على عيوب أنوفِ الآخرين!

لَكُنتُ استطعتُ، وهذا صحيحٌ، أن أعزِّيَ نفسي بالتَّفكير في أنَّ

*) ڤيتانجِلو موسكاردا: اسم الشَّخصيَّة نفسِها؛ (المترجم).

حالتي، في النِّهاية، كانت بيِّنةً وشائعة، الأمر الذي كان يُثبتُ مرَّةً أخرى حقيقةً جدُّ معروفةً للجميع، هي أنَّنا نلاحظ بسهولةٍ عيوبَ الآخرين ولا نفطن إلى عيوبنا. غير أنَّ بذرةَ الألمِ الأولى كانت قد بدأتْ تُطلق جذورَها في نفسي ولم أكن قادراً على تعزية نفسي بهذه الفكرة.

بدلاً من ذلك تجذَّرتْ فيَّ فكرةُ أنَّني لم أكن في نظر الآخرين ذلك الذي حتَّى تلك اللحظة كنتُ أتخيَّل، في دخيلةِ نفسي، أنَّني هو.

كنتُ في تلك اللحظة أفكِّرُ في الجسد فحسب، وبما أنَّ ذلك الصَّديق واصلَ التَّحديق فيَّ بهيئةِ المرتابِ الهازئ، فإنَّني لكي أنتقمَ سألتُهُ إذا كان، من جانبه، يعلم أنَّه يمتلك في ذقنِه غمَّازةً تقسمُ ذلك الذَّقن إلى جزأيْن غير متناظرَين تماماً: جزءٍ أكثر بروزاً هنا، وآخر أكثر انبساطاً هناك.

- أنا؟ ولكنْ، ماذا تقول؟!- هتفَ الصَّديق - لديَّ غمَّازةٌ، أعلمُ، ولكنْ، ليس كما تصفُ أنتَ.

- فلندخلْ إلى حانوتِ الحلاقةِ ذاك، وسترى،- اقترحتُ على الفور.

عندما فطنَ صديقي، بعد أن دخلَ حانوتَ الحلاقة، بذهولٍ إلى ذلك العيب، وأقرَّ بحقيقة الأمر، لم يُرِدْ إظهارَ سخطِهِ؛ قال إنَّه، في نهاية المطاف، شيءٌ لا يستحقُّ الذِّكْر.

أوه، نعم، بلا أدنى شكٍّ، شيءٌ لا يستحقُّ الذِّكْر؛ ولكنَّني رأيتُه، إذْ كنتُ أراقبه مِن بعيد، يقف أوَّل مرَّةٍ عندَ واجهةِ متجرٍ، ثمَّ مرَّةً ثانيةً، وقد صارَ أبعد، أمامَ واجهةٍ أخرى؛ ثمَّ أكثر بُعداً بَعْدُ، ولفترةٍ أطول، للمرَّةِ الثَّالثة، أمامَ مرآةِ طلعةٍ معماريَّةٍ ليتأمَّلَ ذقنَه؛ وإنِّي لواثِقٌ من أنَّه، ما إن وصلَ إلى

منزِله، حتَّى هرعَ إلى الخزانةِ ليتعرَّف من جديدٍ وبأريحيَّةٍ أكبر أمامَ تلك المرآة الأخرى على نفسِهِ مع ذلك العيب. وليس عندي أدنى شكٍّ في أنَّه، لكي ينتقمَ بدورِهِ، أو لكي يواصلَ دُعابةً، بدا له أنَّها تستحقُّ ذُيوعاً واسعاً على طولِ البلادِ وعرضها، وبعد أن يسألَ صديقاً له (مثلما فعلتُ أنا معه) إذا كان قد انتبهَ مِن قبلُ إلى ذلك العيب في ذقنِه، سيكتشف هو الآخرُ عيباً ما آخرَ، إمَّا في جبين، وإمَّا في فم هذا الصَّديق الذي بدورِهِ ... - بلى! بلى!- أكادُ أقسِمُ أنَّني لعدَّةِ أيَّامٍ متتاليةٍ رأيتُ في مدينةِ ريكييري النَّبيلة (إذا لم يكن ذلك من صنيعِ خيالي) عدداً كبيراً جدَّاً مِن مواطنيَّ يتنقَّلون من واجهةِ متجرٍ إلى أخرى ويتوقَّفون أمامَ كلِّ واحدةٍ ليُعاينوا هذا عظمَ وجنتِه وذاك ذيلَ عينِه وآخرُ شحمةَ أذنِه وغيرُهُ أرنبةَ أنفِه. وحتَّى بعد أسبوعٍ من ذلك، اقتربَ منِّي أحدُهم في هيئةِ الحائر ليسألني إذا كان صحيحاً أنَّه كلَّما بدأ في الكلام تغضَّنَ بصورةٍ لاإراديَّةٍ جفنُه الأيسر.

- بلى، يا عزيزي،- قلتُ لهُ بتهوُّرٍ.- وأنا الآخر، أترى؟ أنفي يميلُ إلى اليمين؛ ولكنَّني أعرف ذلك من تلقاء نفسي؛ لا حاجةَ لي بأن تخبرني بذلك أنتَ؛ والحاجبان؟ علامتان من علاماتِ مَدِّ النَّبر! الأذنان، انظرْ هنا، إحداهما أكثر بروزاً من الأخرى؛ وهنا، اليدان: مسطَّحتان، أليس كذلك؟ وذلك الالتزاقُ الشَّائهُ عندَ هذا الخنصر؛ والسَّاقان؟ هذه، هذه هنا، أتبدو لكَ كهذه الأخرى؟ لا، أليس كذلك؟ ولكنَّني أعرف ذلك من تلقاء نفسي، ولا حاجةَ لي بأن تُخبرني بذلك أنتَ. دمتَ بخير.

تركتُه، ومضيتُ. بعدَ خطواتٍ قليلةٍ، سمعتُه يُناديني.

- بِسْ بِسْ!

وادِعاً وادِعاً، بإصبعٍ واحدةٍ، جذبني إليهِ ليسألني:

- عذراً، من فضلكَ، هل أنجبتْ أمُّكَ أبناءً آخرين؟

- لا، لا قبلي ولا بعدي،- أجبتُه.- أنا الابن الوحيد. لماذا؟

- لأنَّه،- قال،- لو أنَّ أمَّك أنجبتْ مرَّةً أخرى، لكان المولودُ بالتَّأكيد ذَكَراً آخر.

- آه، حقَّاً؟ كيف تعرف ذلك؟

- هاكَ: تقولُ نساءُ هذه المعمورة إنَّ شَعرَ المولودِ إذا ما انتهى عندَ القذالِ بشكلِ ذيلِ الحصان كهذا الذي لديكَ هنا، كان المولودُ التَّالي ذَكَراً.

رفعتُ يداً نحو القذالِ، وبقهقهةِ استهزاءٍ باردة سألتُه:

- آه، لديَّ إذاً ... ماذا أسميتَه؟

قال:

- ذيل الحصان، يا عزيزي، هكذا يسمُّونه في ريكييري.

- أوه، ولكنَّه لا يُعَدُّ شيئاً!- هتفتُ.- أستطيعُ قصَّه.

استنكرَ ذلك، بإصبعهِ أوَّلَ الأمرِ، ثمَّ قال:

- ستبقى العلامةُ دائماً هناك، يا عزيزي، حتَّى وإن حلقتَه.

وهذه المرَّة كان هو مَنْ تركني.

-III-
طريقةٌ لطيفةٌ للبقاء وحيداً

ومنذ ذلك اليوم، توقَّدتْ رغبتي في البقاء وحيداً، أقلُّهُ لساعةٍ واحدة. ولكنَّها في الحقيقة كانتْ حاجةً أكثر من كونها رغبةً: حاجةً شرِسةً ومُلِحَّةً ومتحرِّقة، حدَّ أنَّ حضورَ أو دنوَّ زوجتي كانا يُضرمان فيَّ غضباً، يبلغ بي مبلغَ الخروجِ عن طوري.

- أسمعتَ، يا جينجيه[*]، ما قالتْه ميكِلينا بالأمس؟ لدى كوانتورتْسو ما يودُّ أن يحدِّثكَ بخصوصهِ على وجه السُّرعة.

- انظرْ، يا جينجيه، إذا ما جعلتُ ثوبي على هذا النَّحو، أتظهرُ ساقاي؟

- لقد تعطَّلتْ ساعةُ البندول الكبيرة، يا جينجيه.

- ها جينجيه، وماذا عن الكلبة، ألن تأخذها بعد اليومِ إلى الخارج؟ إنَّها ستلوِّث السَّجَّادَ إذاً، وستوبِّخها أنتَ على ذلك. ولكنَّها مُجبَرَةٌ على ذلك، البهيمةُ المسكينة ... أقول ... لن تدَّعي أنَّكَ ... إنَّها لم تخرج منذ مساء البارحة.

- ألا تخشى، يا جينجيه، أنَّ آنَّا روزا يمكن أن تكون مريضةً؟ لم نرها منذ ثلاثة أيَّام، وآخر مرَّةٍ رأيناها كانت تشعر بألمٍ في حلقِها.

---

*) اشتقَّت زوجتي مِن «فيتانْجِلو»، الذي هو اسمي للأسف، هذا اللقبَ، وكانت تناديني هكذا: وليس من دون سببٍ، كما سوف ترون.

- لقد جاء السَّيِّد فيربو، يا جينجيه. قال إنَّه سيعودُ في وقتٍ لاحقٍ. ألا تستطيع أن تلتقيه في الخارج؟ ربَّاه، كم هذا باعثٌ على السَّأم!

أو كنتُ أسمعُها تغنِّي:

فإذا قلتَ لا،
يا حبيبي ونعيمي، غداً لن آتي؛
لن آتي غداً...
لن آتي غداً....

ولكنْ، لماذا لم تحبسْ نفسَكَ في غرفةٍ، ربَّما مع سدَّادَتَيْن في أذنَيْكَ؟

أيُّها السَّادة، هذا يعني أنَّكم لا تفهمون الكيفيَّة التي أريدُ بها أن أكون وحيداً.

لم أكن قادراً على حَبْس نفسي إلَّا في مكتبي، ولكنْ، حتَّى هناك لم أكن قادراً على وضعِ الحدود، خيفةَ أنْ أبعثَ شكوكاً دنيئةً في نفس زوجتي التي كانت، لا أقول دنيئةً، وإنَّما كثيرة الظُّنون. ثمَّ ماذا إذا ما فتحَتِ البابَ فجأةً، ووجدَتني؟

لا. فذلك ما كان لِيَكونَ مُجدياً. في مكتبي لم يكن ثمَّة مرايا. كنتُ مُحتاجاً إلى مرآة. من ناحيةٍ أخرى، مجرَّدُ التَّفكير في أنَّ زوجتي كانت في المنزل كان كافياً لجعلي حاضراً أمامَ نفسي، وهذا بالتَّحديد ما لم أكن أريدُه.

في رأيكم، أن تكونوا وحيدين، ماذا يعني؟

يعني أن تبقوا في صحبةِ أنفسِكم، دون أيِّ غريبٍ من حولكم.

آه بلى، أؤكِّدُ لكم أنَّ هذه إنَّما هي طريقةٌ جميلةٌ لبقاء المرءِ وحيداً. هنا تنفتحُ في الذَّاكرة نافذةٌ صغيرةٌ أثيرة، منها يطلُّ باسماً، بين أصيصِ قرنفلٍ وأصيصِ ياسمين، وجهُ تيتِّي وهي تصنع بإبرةِ التَّطريز وشاحاً صوفيَّاً أحمر، أوه، يا إلهي، كذلك الذي يضعه على رقبته ذلك العجوز جاكومينو الذي لا يُطاق، والذي لم تُقدِّموا له بعد رسالة توصيةٍ إلى رئيسِ مَجْمَعِ الإحسان، صديقِكم اللطيف، ولكنْ، الممِلِّ هو الآخر، من النَّوع الذي إذا ما بدأ بالحديث عن زلَّاتِ سكرتيرِه الخاصِّ، الذي بالأمس... لا، ليس بالأمس، متى كان ذلك؟ أوَّلَ أمس حين كانت تُمطرُ وبدتْ مثلَ بحيرةِ السَّاحةُ مع كلِّ تلك القطرات البرَّاقة من إيماضاتِ شمسٍ خاطفة، وبَينا تنطلقون حثيثي الخُطى، ربَّاه أيَّ مزيجٍ ترون، الفِسقيَّة، كُشك بيعِ الصُّحف، التِّرام الذي يلجُ محطَّة تبديل الخطوط الحديديَّة ويصرُّ صريراً جارحاً بلا رحمةٍ عندَ الالتفاف، ذلك الكلب الذي يُوليِّ هارباً: يكفي هذا، تدخلون صالةَ بليارد، حيث كان موجوداً هو، سكرتيرُ رئيسِ مَجْمَعِ الإحسان؛ وأيَّ ضحكاتٍ يطلقها إذَّاك من تحتِ شواربه الكثيفة لحظِّكم العاثر ما إن تبدؤوا اللعب مع الصَّديق كارلينو الملقَّب بكوينتادِتْشيما(*). ثمَّ ماذا؟ ماذا بعد الخروج من صالة البليارد؟ تحت مصباحٍ خافتٍ، في الشَّارع البليلِ المهجور، فقيرٌ سكرانٌ وكئيبٌ يحاولُ التَّرنُّمَ بأغنيةٍ قديمةٍ من نابُّولي، وهو الذي، قبل سنواتٍ عديدة، وفي كلِّ الأمسيَّاتِ تقريباً، كنتُم تسمعونه يغنِّي في تلك البلدة الجبليَّة بين أشجار الكستناء، حيث ذهبتم تصطافون، لتكونوا قريبين من حبيبةِ القلبِ ميمي، التي تزوَّجتْ لاحقاً من حاكم بلدةِ قُنِرا العجوز، وماتت بعدَ سنةٍ من ذلك. أوه ميمي، ميمي المعشوقة الأثيرة! هي ذي، هي ذي تطلُّ من نافذةٍ أخرى تنفتحُ في ذاكرتكم...

---

*) أي الخامس عشر.

أجل، أجل، يا أعزَّائي، أؤكِّدُ لكم أنَّها طريقةٌ جميلةٌ للبقاء وحيدين، هذه الطَّريقة!

-IV-
الطَّريقة التي أردتُ بها البقاء وحيداً

كنتُ أريدُ البقاء وحيداً بطريقةٍ خارجةٍ عن المعتادِ كُلِّيَّاً، ومستطرَفة. على النَّقيض تماماً ممَّا تفكِّرون فيه أنتم: أي، بلا نفسي، وبَلَى: مع غريبٍ مِن حولي.

أيبدو لكم حقَّاً أنَّ هذه هي أولى علاماتِ الجنون؟

ربمَّا لأنَّكم لا تتدبَّرون الفكرةَ كما ينبغي.

قد يكون بي شيءٌ من الجنون بالفعل، لا أنكر ذلك، ولكنْ، أرجوكم أن تعتقدوا أنَّ الطَّريقة الوحيدة لبقاء المرء وحيداً بحقٍّ إنَّما هي هذه التي أقولها لكم.

العزلةُ لا تكون أبداً وأنتم مع أنفسكم؛ بل تكون دائماً وأنتم بلا أنفسِكم، إنَّها ممكنةٌ بوجودِ غريبٍ من حولكم فحسب: مكانٍ أو شخصٍ أيَّاً يكُن، يجهلكم كُلِّيَّاً، وتجهلونه كُلِّيَّاً، هكذا على نحوٍ تبقى معه إرادتكم ومشاعركم معلَّقةً وتائهةً في حالةٍ مُكربةٍ من عدم اليقين، وإذ تزولُ كلُّ يقينيَّةٍ عندكم، يزولُ كذلك الوعيُ الباطنيُّ نفسه. العزلةُ الحقيقيَّةُ إنَّما تكون في مكانٍ يحيا في نفسِهِ ولِنفسِه، ولا يملكُ لأجلكم أثراً ولا صوتاً، وحيث الغريبُ هو أنتم.

هكذا أردتُ أن أكون وحيداً. بلا نفسي. أقصدُ من دون ذلك الأنا الذي كنتُ أعرفهُ مُسبَّقاً، أو الذي كنتُ أعتقدُ أنَّني أعرفه. وحيداً مع

غريبٍ بعينِه، غريبٍ كان يعتريني بالفعل شعورٌ غامضٌ بأنَّني غير قادرٍ على الابتعادِ عنه وبأنَّني كنتُ هو: ذلك الغريب المتعذَّر فصلُهُ عنِّي.

كان ثمَّة، إذاً، واحدٌ فقط يعنيني! وكان هذا الواحدُ، أو الحاجةُ التي كنتُ أحسُّها إلى البقاء وحيداً مع هذا الواحدِ، إلى وضعهِ أمامي لكي أتعرَّفَ إليه جيِّداً وأتحدَّثَ قليلاً معه،- أقولُ إنَّ هذا الواحدَ كان يُشوِّشني كثيراً، مع إحساسٍ يتأرجح بين النُّفورِ والهلع.

إذا في نظر الآخرين لم أكن ذلك الذي كنتُ أعتقدُ آنذاك أنَّه أنا في نظري، فمَنْ كنتُ إذاً؟

طوالَ حياتي، لم يسبق لي أن فكَّرتُ قطُّ في شكل أنفي؛ ولا في حجمه، أكبيراً كان أم صغيراً، ولا فكَّرتُ في لون عينَيَّ؛ أو في ضيقِ أو اتِّساع جبهتي، وهلمَّ جرَّاً. ذلك كان أنفي، تانكَ كانتا عينيَّ، تلك كانت جبهتي: أشياءٌ يتعذَّرُ فصلُها عنِّي، لم أكن، وأنا منكبٌّ على أعمالي، ومأخوذٌ بأفكاري، ومتروكٌ لمشاعري، قادراً على التَّفكير فيها.

ولكنَّني الآن أفكِّر:

"ماذا عن الآخرين؟ ليس الآخرون على الإطلاق داخلَ نفسي. في نظر الآخرين الذين ينظرون إليَّ مِن خارج، فإنَّ أفكاري، ومشاعري تمتلك أنفاً. أنفي أنا. وتمتلك زوجاً من العيون، عينيَّ أنا، وذلك ما لا أراه أنا ويرونه هم. أيُّ علاقةٍ ثمَّة بين أفكاري وأنفي؟ في نظري، ليس ثمَّة أدنى علاقة. فأنا لا أفكِّرُ بواسطةِ عقلي، ولا أهتمُّ بأنفي إذْ أفكِّر. ولكنْ، ماذا عن الآخرين؟ الآخرين الذين لا يستطيعون رؤية أفكاري التي في داخلي ولا يرون من الخارج سوى أنفي؟ في نظر الآخرين، بين أفكاري وأنفي ثمَّة علاقةٌ وطيدة، وطيدةٌ

حدَّ أنَّه، أزعمُ، لو جاءتْ تلك الأفكار رصينةً للغاية إزاءَ أنفٍ هو من حيث الشَّكلِ سخيفٌ للغاية، لاستغرقَ أولئك في الضَّحك".

هكذا، بالتَّتابعِ، وجدتُني أسقط في كربٍ آخرَ، هو هذا: أنَّني لم أكن قادراً، فيما أحيا، على أن أمثِّلَ لِنفسي حقيقةَ نفسي عِبرَ فصولِ حياتي؛ على أن أراني كما كان الآخرون يرونني؛ أو على أن أضعَ جسدي أمامَ عينيَّ، وأراه في مشهدٍ حيٍّ كما لو كان جسدَ شخصٍ آخر. عندما كنتُ أقف أمام المرآة، كانت حالةٌ كمثلِ حالةِ انحباسٍ تصيبُني؛ فكلُّ عفويَّةٍ كانت تتلاشى، وكلُّ حركةٍ من حركاتي كانت تبدو لي أنا نفسي متكلِّفةً أو مقلِّدة.

كنتُ عاجزاً عن رؤيةِ نفسي في مشهدٍ حيٍّ.

يمكنني إثباتُ ذلك من الانطباعِ الذي كنتُ قد هوجمتُ، إذا صحَّ التَّعبيرُ، بهِ عندما حدثَ، بعد بضعةِ أيَّامٍ، فيما كنتُ أمشي وأتحدَّث مع صديقي إسْتِفانو فيربو، أن بوغِتُّ فجأةً بمرآةٍ في الشَّارع لم أكن قد فطنتُ لوجودها من قبل. لا يمكن لذلك الانطباع أن يكون قد استمرَّ أكثر من هُنيهةٍ خاطفة، لأنَّه في الحالِ تَبِعَهُ ذلك الانحباسُ، وتلاشت عفويَّتي، وبدأ إعمالُ النَّظر. في البدء لم أعرف نفسي. كان الانطباع الذي تولَّدَ عندي يتمثَّلُ في أنَّ شخصاً غريباً مرَّ من هناك وهو يتحدَّث. توقَّفتُ. لا ريب أنَّني كنتُ شاحباً للغاية. سألني فيربو:

- ما الخطبُ؟

- لا شيء،- قلتُ. وفي دخيلةِ نفسي، نفسي المجتاحَةِ بذلك الهلعِ الغريب الذي كان في الوقتِ نفسِهِ نُفوراً، كنتُ أفكِّر:

"أكانت صورتي هي حقَّاً تلك الصُّورة التي لمحتُها خطفاً؟ أأبدو حقَّاً

هكذا، مِن خارجٍ، حين - وأنا حيٌّ - لا أفكِّر في نفسي؟ أنا إذاً في نظر الآخرين ذلك الغريبُ المباغَتُ في المرآة: أنا هو، ولستُ الأنا التي أعرفها: أنا ذلك الواحد الذي أنا نفسي في البداية، إذْ لمحتُهُ، لم أعرفْهُ. أنا ذلك الغريبُ الذي لا أستطيعُ أن أراه حيَّاً سوى هكذا، في لحظةٍ غير متوقَّعة. غريبٌ يستطيعُ أن يراه ويعرفه الآخرون فحسب، وليس أنا".

ورحتُ منذ ذلك الحين أُحدِّق في هذا الهدف اليائس: أن أمضي مُطارِداً ذلك الغريب الذي كان في داخلي، وكان لا يني يهربُ منِّي؛ الذي لم أكن قادراً على الوقوف أمام مرآة، لأنَّه سرعان ما كان يصبحُ أنا، ويحلُّ محلَّ تلك الأنا التي كنتُ أعرفها؛ ذلك الواحدُ الذي كان يحيا عِبْرَ الآخرين، والذي كنتُ عاجزاً عن معرفتِه؛ الذي كان يراه الآخرون حيَّاً وأنا لا. كنتُ أريدُ أن أراه وأعرفه أنا أيضاً مثلما كان الآخرون يرونه ويعرفونه.

أكرِّرُ، كنتُ آنذاك ما أزالُ أحسبُ أنَّه واحدٌ فحسب هذا الغريب: واحدٌ فحسب في نظر الآخرين، مثلما كنتُ أحسبُني واحداً فحسب في نظر نفسي. ولكنْ، سرعانَ ما تعقَّدتْ تلك المأساة الشَّرِسة، مأساتي: مع اكتشافِ المِائةِ ألفِ موسكاردا الذين كنتُهم لا في نظر الآخرين فحسب، بل في نظري أيضاً، وكلُّهم مع اسمٍ واحدٍ فحسب، موسكاردا، بشِعٍ حدَّ الوحشيَّة، وكلُّهم داخلَ جسدي البائس الذي كان واحداً هو الآخر، واحداً ولا أحدَ واحسرتاه، إذا ما وضعتُهُ أمامَ المرآة وحملقتُ بتركيزٍ وثباتٍ إلى عينيه، مُلغِياً فيهِ كلَّ شعورٍ وكلَّ رغبة.

عندما تعقَّدتْ مأساتي هكذا، بدأتْ اختبالاتي التي لا تُصَدَّق.

-V-
مُطاردةُ الغريب

سأتكلَّمُ الآنَ عن تلك الاختبالات الصَّغيرة التي بدأتُ أقومُ بها بصورةِ إيماءاتٍ، في مرحلةِ طفولةِ جنوني الفيَّاضةِ بالحيويَّةِ، أمامَ مرايا البيتِ كلِّها، ناظراً من أمامي ومن خلفي، لئلَّا تلمحني زوجتي، وأنا أنتظر بتحرُّقٍ أن تخرجَ لزيارةٍ أو لتبضُّعٍ، وتتركني في النِّهاية وحيداً لبعضِ الوقت.

لم أكن أريدُ مثلَ ممثِّلٍ هَزْليٍّ تأمُّلَ حركاتي، وتشكيلَ تعابيرِ وجهي وفقاً للمشاعر المتعدِّدة ولتقلُّبات النَّفْس، بل على العكس: أردتُ مُباغتةَ نفسي في عفويَّةِ أفعالي، في التَّحوُّلاتِ الفوريَّةِ لوجهي مع كلِّ تقلُّبٍ من تقلُّباتِ النَّفْس؛ مع كلِّ دهشةٍ مباغِتةٍ على سبيل المثال (فكنتُ لأصغرِ الصَّغائر أنقِّزُ حاجبيَّ صُعُداً حتَّى منبتِ الشَّعرِ وأفتحُ عينيَّ وفمي، ممدِّداً وجهي كما لو أنَّ سلكاً داخليّاً كان يسحبُه منِّي)؛ ومع كلِّ حزنٍ عميقٍ (كنتُ أقطِّبُ جبيني، متخيِّلاً موتَ زوجتي، وأكاد أقفِلُ باغتمامٍ جفنيَّ، كما لو أنَّني أحضنُ حزني)؛ ومع كلِّ غضبةٍ شرسةٍ (كنتُ أكشِّرُ عن أسناني، ظانّاً أنَّ أحدهم صفعَني، وأغضِّنُ أنفي، ماطّاً شدقي ومُرسِلاً الصَّواعقَ بنظرتي).

ولكنْ، أوَّلاً وقبل كلِّ شيءٍ، تلك الدَّهشة، وذلك الحزن، وتلك الغضبة، كانت كلُّها زائفة، ولا يمكنُ أن تكون صادقة؛ لأنَّها، لو كانت صادقةً، لَمَا كنتُ قادراً على رؤيتِها، ولَكانت تلاشتْ على الفورِ بمجرَّدِ رؤيتي لها. ثانياً، إنَّ الدَّهشات التي كان من الممكن أن تستحوذَ عليَّ كانت جدُّ كثيرةً ومتنوِّعة، والتَّعابيرُ اللامتوقَّعة كانت متنوِّعةً إلى ما لا نهايةٍ هي الأخرى وفقاً

لفصولِ وأحوالِ نفْسي؛ وكذلك الأمرُ بالنِّسبة إلى جميع الأحزان، وكذلك هو بالنِّسبة إلى جميع الغضبات. وأخيراً، حتَّى إذا سلَّمنا بأنَّني، حيالَ دهشةٍ واحدةٍ محدَّدة، وحيالَ حزنٍ واحدٍ محدَّد، وحيالَ غضبةٍ واحدةٍ محدَّدة، صنعتُ بصدقٍ تلك التَّعابير، فإنَّها كانت ستكون كما كنتُ أراها أنا، لا كما كان لِيراها الآخرون. التَّعبيرُ عن غضبتي تلك، على سبيل المثال، ما كان لِيكون نفسَه لأحدٍ يخشى تلك الغضبة، وآخرَ مستعدٍّ ليعذرَها، وثالثٍ ميَّالٍ إلى الاستهزاء بها، وهكذا دواليك.

آه! قدْراً كبيراً من مَلَكاتي العقليَّةِ كنتُ ما أزالُ أملك لكي أعي كلَّ هذا، ولم يكن ذلك القدْرُ لينفعني في أن أستخلصَ من تلك الاستحالةِ البيِّنةِ لغايتي المجنونةِ النَّتيجةَ الطَّبيعيَّةَ المتمثِّلةَ في عدولي عن تلك المجازفةِ اليائسة، وأن أكون سعيداً في أن أحيا لِنفسي، دون أن أرى نفسي وأفكِّرَ فيها من خلال الآخرين.

فكرةُ أنَّ الآخرين كانوا يرون فيَّ واحداً لم يكن هو ذلك الذي كنتُ أعرفُه؛ واحداً كان يستطيعُ الآخرون فحسب أن يعرفوه حين ينظرون إليَّ مِن خارجٍ بعيونٍ لم تكن عيوني، عيونٍ كانت تمنحني سيماءَ رجلٍ مصيرهُ البقاءُ على الدَّوام غريباً في عينيَّ، حتَّى وإن كان ذلك الواحدُ مكنوناً فيَّ، وحتَّى وإن كان في نظرهم مُلكاً لي أنا ("مُلكاً" لم أكن أحسبهُ بطبيعةِ الحالِ لي!)؛- فكرةُ أنَّهم كانوا يرون فيَّ حياةً لم أكن، بالرَّغم من أنَّها كانت في نظرهم حياتي، قادراً على سبرِ أغوارِها؛ تلك الفكرةُ لم تمنحني مُذَّاكَ أيَّ راحة.

كيف لي أن أحتملَهُ في داخلي هذا الغريبَ؟ هذا الغريبَ الذي كنتُهُ أنا نفسي في نظري؟ كيف لي ألَّا أراه؟ كيف لي ألَّا أعرفه؟ كيف لي أن أبقى إلى الأبد محكوماً بحملِهِ معي، في داخلي، على مرأىً من الآخرين فيما هو في الوقتِ نفسِهِ خارجَ مرآي؟

-VI-
وأخيراً!

- أتعرف ماذا، يا جينجيه؟ لقد انقضتْ أربعةُ أيَّامٍ أُخَر. لم يعد ثمَّة شكٌّ: لا بدَّ وأنَّ آنَّا روزا طريحةُ الفراش. سأذهبُ لأراها.

- حبيبتي ديدا، ماذا تفعلين؟ مستحيلٌ أن تفعلي ذلك! في هذا الطَّقس السَّيِّئ؟ أرسلي دييغو؛ أرسلي نِينا لاستقصاء الأخبار. أتريدين أن تخاطري بصحَّتِك وتمرضي؟ أنا لا أريدُ ذلك، قطعاً لا أريدُ ذلك.

عندما لا تريدون على الإطلاق أمراً، ماذا تفعلُ زوجاتُكم؟

ديدا، زوجتي، غرسَت القبَّعةَ في رأسِها. ثمَّ ناولتْني معطفَ الفراء لأمسِكَهُ لها.

ابتهجْتُ. غيرَ أنَّ ديدا لَمَحَتْ في المرآةِ ابتسامتي.

- آه، أتضحك؟

- عزيزتي، إنَّني أنظرُ كَمْ أنا مُطاعٌ هنا...

ثمَّ رجوتُها، على الأقلِّ، ألَّا تتأخَّر كثيراً عندَ صديقتها، إذا كانت حقَّاً مريضةَ الحلق:

- ربع ساعةٍ، لا أكثر. أتوسَّلُ إليكِ.

ضمِنْتُ لنفسي هكذا أنَّها لن تعودَ إلى المنزل حتَّى حلولِ المساء.

ما إن خرجَتْ حتَّى استدرتُ من الغبطةِ على كعبٍ واحدٍ، فارِكاً يداً بالأخرى.

"وأخيراً!"

-VII-
نفحةُ هواء

أوَّلاً أردتُ أن أتمالكَ نفسي، أن أنتظرَ حتَّى يزولَ عن وجهي كلُّ أثرِ بَلْبَلَةٍ وانشراحٍ، وأنْ يتوقَّفَ، مِن ثَمَّ، في داخلي، كلُّ تقلُّبٍ من تقلُّباتِ الفِكْرِ والشُّعور، على نحوٍ أكون معه قادراً على اقتيادِ جسدي إلى المرآة كأيِّ جسدٍ غريبٍ عنِّي ووضعِهِ، كأيِّ جسدٍ غريبٍ كذلك، أمامَ عينيَّ.

- هيَّا،- قلتُ،- فلننطلقْ.

انطلقتُ، بعينَيْنْ مُغمَضَتَيْنْ، ويدَيْن ممدودَتَيْنْ، متلمِّساً طريقي. حين لامستُ صفيحةَ الصُّوان، بقيتُ أنتظرُ، وأنا ما أزال مغمضَ العينَيْنْ، حلولَ الهدوءِ الدَّاخليِّ المطلَق، واللامُبالاةِ المطلَقة.

غير أنَّ صوتاً لعيناً في داخلي كان يقولُ لي إنَّه كان هناك هو الآخرُ، الغريبُ، كان هناك أمامي، في المرآة. مُنتظِراً مثلي، بعينَيْنْ مُغمَضَتَيْنْ.

كان هناك، ولم أكن أراه.

هو أيضاً لم يكن يراني، لأنَّه مثلي كانَ، مُغمَضَ العينَيْنْ. لكنْ، ما الذي كان ينتظرُهُ هوَ؟ أن يراني؟ لا. هو يُمكِن أن يُرَى، لا أن يَرَى. كان في نظري ذلك الذي في نظر الآخرين كنتُهُ أنا، أنا الذي كان من الممكن أن يراني الآخرون، لا أن أرى نفسي. فاتحاً عينيَّ، مِن ثَمَّ، أكنتُ سأراه إذاً كآخَر؟

هنا كانت النُّقطة.

حدث لي مرَّاتٍ عديدةً أن تقابلتْ عيناياَ صُدفةً في المرآة مع عينَي شخصٍ كان ينظرُ إليَّ في نفسِ المرآة. أنا لم أكن أرى نفسي في المرآة فيما كنتُ مرئيًّاً له؛ وكذلك الآخر، لم يكن يرى نفسَه، ولكنَّه كان يرى وجهي، ويرى أنَّني كنتُ أنظر إليه. لو أنَّني تقدَّمتُ لأرى نفسي أنا أيضاً في المرآة، لَبَقيَ الآخرُ قادراً على رؤيتي ربمَّا، أمَّا أنا، فلا، ما كنتُ لأبقى قادراً على رؤيتِه. لا يمكن في آنٍ واحدٍ أن نرى أنفسَنا، ونرى أنَّ الآخرَ ينظرُ إلينا في نفسِ المرآة.

لابثاً أفكِّر على هذا النَّحوِ، بعينَيْن كانتا ما تزالان مُغمَضَتَيْن، تساءلتُ بيني وبين نفسي:

"أتختلفُ حالتي الآنَ عن تلك الحالة، أم أنَّها نفسُها؟ ما دُمتُ مُغمِضاً عَينَيَّ، فنحنُ اثنان: أنا هنا وهو في المرآة. ينبغي أن أحُوْلَ، حين أفتحُ عينيَّ، دون أن يصبحَ هوَ أنا وأنا هوَ. ينبغي أن أراه ولا يراني. هل ذلك ممكنٌ؟ عمَّا قليلٍ مثلما سأراهُ أنا، سيراني هو، وسيتبيَّنُ أحدُنا الآخرَ. ولكنْ، شكراً جزيلاً! لا أريدُ أن أتبيَّنَ نفسي؛ أريدُ أن أتبيَّنَهُ هوَ الواقفَ خارجَ نفسي. هل ذلك ممكنٌ؟ إنَّ جهديَ الأسمى ينبغي أن يتمثَّلَ في هذا: في ألَّا أراني في نفسي، بل أن أراني مِن نفسي، بعينَيَّ أنا نفسي، ولكنْ، كما لو أنَّني شخصٌ آخر: ذلك الآخرُ الذي يراه الجميعُ، ولا أراهُ أنا. هيَّا، إذاً، فليكنْ صمتٌ، كبحٌ لكلِّ علاماتِ الحياة وتنبُّهٌ!"

فتحتُ عينَيَّ. ماذا رأيتُ؟

لا شيء. رأيتُ نفسي. كنتُ هناك، متجهِّماً، مُثقَلاً بهواجسي نفسِها، مع وجهٍ جدٌّ مُنقبِض.

سُخطٌ فائقُ العُتُوِّ دَهَمَني وانبجسَت بخاطري رغبةٌ في أن أبصقَ في وجهي. أحجمتُ عن ذلك. سوَّيتُ الغُضُون؛ حاولتُ أن ألطِّفَ مِن حدَّةِ النَّظرة؛ وهاكَ، شيئاً فشيئاً، كلَّما كانت تزدادُ لُطفاً، كانت صورتي تزداد شحوباً، وتكادُ تنحسرُ عنِّي؛ ولكنْ، أنا الآخرُ كنتُ أزدادُ مِن هُنا شحوباً، وأوشكُ أن أتهاوى؛ وشعرتُ أنَّني، إذا ما واصلتُ ذلك، لا بدَّ سأغرقُ في النَّوم. قبضتُ على عينَيَّ. حاولتُ أن أحُوْلَ دون الشُّعور بأنَّني أنا نفسي مقبوضٌ عليَّ بتينكَ العَينَيْن الماثلَتَيْن أمامي؛ أعني أن أحُوْلَ دون نفاذِ تينكَ العَينَيْن في عينَيَّ. لم أستطعْ. كنتُ أحسُّهُما تينكَ العَينَيْن. كنتُ أراهما أمامي، ولكنْ، كنتُ أحسُّهُما مِن هنا أيضاً، مِن داخلي؛ كنتُ أحسُّهُما لي؛ لا بما هما مُثبَّتتان عليَّ فحسب، بل في حدِّ ذاتِهما. فحين كنتُ أتمكَّنُ لِهُنيهةٍ مِن إبطالِ إحساسي بهما، كنتُ أبطُلُ قادراً على رؤيتهما.

وا حسرتاه، كان الأمرُ هكذا: كنتُ قادراً على رؤيتهما فيَّ، لا على رؤيتهما في حدِّ ذاتِهما.

وهوَ ذا: مُجتاحاً بهذه الحقيقة التي اختزلتْ إلى مجرَّدِ لعبةٍ تجربتي تلك، حاولَ وجهي فجأةً أن يصنعَ في المرآة ابتسامةً كئيبة.

- ابقَ جَاداً، أيُّها الأبله!- صرختُ فيه عندئذٍ.- ليس ثمَّةَ ما يُضحِك!

على هذا النَّحوِ، كان لحظيّاً، في عفويَّةِ تلك الغضبةِ، تَغيُّرُ التَّعبيرِ في صورتي، وهكذا على الفورِ تَبِعَ هذا التَّحوُّلَ لامُبالاةٌ مشدوهةٌ في الصُّورةِ إيَّاها، حيث استطعتُ أن أرى جسدي، هناك، نصبَ عينَيَّ، في المرآة، منفصلاً عن روحيَ المتسلِّطة.

آه، وأخيراً! هوَ ذا هناك!

مَنْ كان؟

لا شيءَ كان. لا أحد. جسدٌ بائسٌ مقهورٌ، في انتظارِ أن يتلقَّاهُ أحد.

- موسكاردا...- همهمْتُ بعد صمتٍ طويل.

لم يتحرَّك؛ لبث ينظر إليَّ مشدوهاً.

كان من الممكن أيضاً أن نُطلق عليهِ اسماً آخرَ.

كان ماثلاً هناك، كمثلِ كلبٍ ضالٍّ، بلا سيِّدٍ وبلا اسمٍ، فكان من الممكن أن يُسمِّيهِ أحدُهم فليك، وأن يُسمِّيه آخرُ فلُوك، حسبَ الرَّغبة. لم يكن يَعرف شيئاً، ولم يكن يُعرَف؛ كان حيّاً لأجل أن يحيا، ولم يكن يدرِك أنَّه يحيا؛ كان قلبه يخفق، ولم يكن يُدرك ذلك؛ كان يتنفَّس، ولم يكن يُدرك ذلك؛ كان يحرِّك جفنَيْه، ولم يكن يفطن إلى ذلك.

نظرتُ إلى شَعرِهِ المحمرِّ؛ إلى جبينِهِ الثَّابتِ، المتحجِّرِ، الشَّاحب؛ إلى ذينك الحاجبَيْنِ الشَّبيهَيْنِ بعلامَتَيْنِ من علاماتِ مَدِّ النَّبر؛ إلى العينَيْنِ المخضرَّتَيْنِ، المخرومَتَيْنِ تقريباً هنا وهناك ببقعٍ بلونٍ أصفرَ فاقعٍ على القرنيَّة، المشدوهَتَيْنِ، والفارغَتَيْنِ من كلِّ نظرة؛ إلى ذلك الأنف المائل نحو اليمين، ولكنْ، ذو المظهر المعقوف؛ إلى الشَّواربِ المحمرَّةِ التي كانت تُخبِّئُ الفم؛ إلى الذَّقن المتصلِّب، البارز قليلاً:

هوَ ذا، كانَ هكذا: لقد صنعوه هكذا، مِن ذلك الجِلْد؛ أنْ يكونَ خِلافَ ذلك، أو أنْ يمتلك قواماً آخرَ، لم يكن متوقِّفاً عليهِ، ولكنْ، كان في مقدورِهِ، بلى، أن يُغيِّرَ جزئيّاً مِن مظهرِه: حَلْقُ تلك الشَّوارب، على سبيل المثال؛ ولكنَّه الآنَ كان هكذا؛ مع مرور الوقتِ قد يُصبحُ أصلعَ أو أشيَب، متغضِّناً

ومترهِّلاً، أدْرَدَ؛ مُلِمَّةٌ من الملمَّاتِ يمكن كذلك أن تُشوِّهَه، أن تُورِثَهُ عيناً زجاجيَّةً أو ساقاً خشبيَّة؛ ولكنَّه الآنَ كان هكذا.

مَنْ كان؟ أكانَ أنا؟ ولكن كان ممكناً أيضاً أن يكون أحداً آخرَ! كان من الممكن أن يكون أيَّ شخصٍ، ذلك الذي هناك. كان من الممكن أن يمتلك ذلك الشَّعرَ المحمرَّ، ذينك الحاجبَيْن الشَّبيهَيْن بعلامَتَيْن من علاماتِ مَدِّ النَّبر، وذلك الأنف المائل إلى اليمين، ليس مِن خِلالي فحسب، ولكنْ، أيضاً مِن خلالِ أحدٍ آخرَ، لم أكُنْهُ أنا. لماذا كان ينبغي أن أكون أنا، هذا، هكذا؟

فيما أحيا، لم أكن أمثِّلُ لنفسي أيَّ صورةٍ عن نفسي. فلماذا كان ينبغي والحالُ هذه أن أرى نفسي في ذلك الجسد هناك كما لو في صورةٍ لي لا محيصَ عنها؟

كانت ماثلةً هناك أمامي، منعدمةَ الوجودِ تقريباً، كمثلِ ظهورِ رؤيا، تلك الصُّورةُ. وكان من الممكن ألَّا أتبيَّنَ نفسي جيِّداً فيها. ماذا لو أنَّني لم أرَ نفسي مِن قبلُ في مرآةٍ قَطُّ، على سبيل المثال؟ أمَا كانت ربمَّا بسبب ذلك بقيتْ قابعةً هناكَ داخلَ رأسيَ المجهولةِ أفكاري نفسُها؟ بلى، وغيرها الكثير. ماذا لدى أفكاري لِيُرَى أمامَ ذلك الشَّعرِ، المطبوعِ بذلك اللون، شَعري الذي كان من الممكن ألَّا يكون موجوداً أو أن يكون أبيضَ أو أسودَ أو أشقر؛ وأمامَ تينك العَينَيْن المخضرَّتَيْن، واللتَيْن كان من الممكن أيضاً أن تكونا سوداوَيْن أو زرقاوَيْن؛ وأمامَ ذلك الأنف الذي كان من الممكن أن يكون مستقيماً أو أفطسَ؟ كان من الممكن جدَّاً أن أشعرَ أيضاً بكراهيةٍ عميقةٍ تجاه ذلك الجسد الماثل هناك؛ وكنتُ أشعرُ بها.

ومع ذلك، فلقد كنتُ في نظر الجميع، باختصارٍ، ذلك الشَّعرَ المحمرَّ، وتينك العَينَيْن المخضرَّتَيْن، وذلك الأنف؛ كلَّ ذلك الجسد الماثل هناك والذي كان في نظري لا شيء؛ هوَ ذا: لا شيء! كلُّ واحدٍ كان في إمكانِه أن يحصلَ عليه، ذلك الجسدِ الماثلِ هناك، ليجعلَ منه ذلك الموسكاردا الذي يتخيَّلُهُ ويروقُ له، اليومَ في شكلٍ وغداً في شكلٍ آخرَ، وفقاً للظُّروف وللنَّزوات. وأنا أيضاً... بلى! هل عرفتُهُ، يا تُرَى؟ ما الذي استطعتُ أن أعرفهُ عنه؟ ربمَّا حصل ذلك لحظةَ حدَّقتُ فيه، ليس إلَّا. إذا لم أكن أريدُ نفسي وأشعر بنفسي هكذا مثلما كنتُ أراها، فإنَّ ذلك الذي هناك هو في نظري أنا أيضاً غريبٌ، غريبٌ امتلكَ تلك السِّمات، ولكنْ، كان من الممكن أيضاً أن يمتلك سماتٍ أخرى غيرَها. ما إن انصرمت اللحظة التي كنتُ فيها أحدِّق فيه، حتَّى انقلبَ بالفعلِ أحداً آخرَ؛ حدَّ أنَّه لم يعد ذلكِ الذي كانَهُ شابَّاً، ولا تحوَّلَ كذلك إلى ما كانَ من الممكن أن يكونَه شيخاً؛ وكنتُ اليومَ أحاولُ إدراكَهُ في ذلك الذي هو ابنُ الأمس، وهكذا دواليك. في تلك الرَّأس الماثلة هناك، الثَّابتة والمتحجِّرة، كان في وسعي أن أضعَ كلَّ الأفكار التي أريد، وأن أشعِلَ أكثر الرُّؤى تنوُّعاً: هاكَ: مِن غابةٍ تحلولكُ هادئةً وغامضةً تحتَ النُّجوم؛ إلى مرسىً منعزلٍ، أسْقَمَهُ الضَّبابُ، تقلعُ منه مثلَ طيفٍ بطيءٍ سفينةٌ آناءَ الفجر؛ إلى شارعٍ حضريٍّ، يعجُّ بالحياة تحت سحابةٍ برَّاقةٍ لشمسٍ، تضيءُ بانعكاساتٍ أرجوانيَّةِ الوجوهَ، وتجعل زجاجَ النَّوافذ، والمرايا، وبلَّوريَّات متاجر الكريستال تتموَّجُ بإيماضاتِ ضوءٍ متعدِّدة الألوان. أخمدتُ على حين غرَّةٍ الرُّؤيا، وتلك الرَّأسُ مكثتْ مِن جديدٍ هناك، ثابتةً ومتحجِّرةً في انشِداهِها البليد.

مَنْ كان ذاك؟ لا أحد. جسدٌ بائسٌ، بلا اسمٍ، في انتظارِ أن يتلقَّاهُ أحد.

ولكنْ، فجأةً، فيما كنتُ أفكِّرُ على ذلك النَّحو، وقعَ ذلك الشَّيءُ الذي ملأني رعباً أكثر ممَّا ملأني حيرة.

رأيتُ أمامي، لا بإرادتي، الوجهَ البليدَ المشدوهَ لذلك الجسدِ البائسِ المقهورِ وهو يتشوَّشُ بصورةٍ تدعو إلى الرِّثاء، يجعِّدُ الأنفَ، ويقلبُ العَينَيْن إلى الوراء، ويُقبِّضُ الشَّفَتَيْن نحو الأعلى، ويحاولُ أن يزويَ الحاجبَيْن، كما لو لِيبكي؛ ثمَّ يبقى معلَّقاً على تلك الحال لحظةً قبل أن ينهارَ بصورةٍ مفاجئةٍ مرَّتين إثرَ انفلاتِ زوجٍ من العطسات.

لقد تحرَّكَ بنفسِه، مِن تلقاءِ نفسِه، لِنفحةِ هواءٍ دخلتْ لا أحدَ يدري من أين، ذلك الجسدُ البائسُ المقهور، دون أن يخطرني بشيءٍ عن نيَّتِه تلك وخارجَ إرادتي.

- يرحمكم الله!- قلتُ له.

ورأيتُ في المرآة ضحكةَ المجنونِ الأولى، ضحكتي.

-VIII-
فإذاً؟

فإذاً، لا شيء: هذا فحسب. يبدو لكم أنَّه شيءٌ لا يستحقُّ الذِّكْر! هي ذي لائحةٌ أولى بالأفكار الفتَّاكة، وبالاستنتاجاتِ الوبيلةِ النَّاجمة عن المتعةِ اللحظيَّةِ البريئةِ التي رغبتْ زوجتي ديدا في الحصول عليها. أقصدُ، مُتعتَها في جعلي ألاحظ أنَّ أنفي كان يميلُ نحوَ اليمين.

أفكار:

١. أنَّني لم أكن في نظر الآخرين ذلك الذي حتَّى تلك اللحظة كنتُ أتخيَّلُ أنَّني هو؛

٢. أنَّني لم أكن قادراً على رؤيةِ نفسي في مشهدٍ حيٍّ؛

٣. أنَّني، إذ لم أكن قادراً على رؤيةِ نفسي في مشهدٍ حيٍّ، بقيتُ غريباً عن نفسي، أيْ شخصاً كان في وسعِ الآخرين رؤيته ومعرفته؛ كلٌّ على هواه؛ أمَّا أنا فلا؛

٤. أنَّه كان من المستحيل وضعُ ذلك الغريب أمامي لكي أراه وأعرفه؛ فأنا كنتُ قادراً على رؤيتي، لا على رؤيتِه؛

٥. أنَّ جسدي، إذا ما نظرتُ إليه مِن خارج، كان بالنِّسبة إليَّ أشبهَ ما يكون بظهورِ رؤيا؛ كان شيئاً لا يعرف كيف يحيا ويبقى لابثاً في مكانه، في انتظار أن يتلقَّاهُ أحد؛

٦. أنَّه، مثلما كنتُ أتلقَّاهُ أنا، جسدي هذا، لأجعلَ منه مِن وقتٍ إلى آخرَ ما كنتُ أريدُه وأحسُّه، كذلك كان في مُكْنةِ أيِّ أحدٍ آخرَ أن يتلقَّاه ليضفي عليهِ واقعاً ما على طريقته؛

٧. أنَّ ذلك الجسدَ في نهاية المطاف كان في حدِّ ذاتِه جدُّ لا شيء وجدُّ لا أحد، حدَّ أنَّ نفحةَ هواءٍ كانت قادرةً على جعله يعطسُ، اليومَ، وعلى حملهِ بعيداً غداً.

استنتاجات:

ثمَّة هذان حتَّى اللحظة:

١. أنَّني بدأت أفهم أخيراً لماذا كانت زوجتي ديدا تناديني بِجينجيه؛

٢. أنَّني عقدتُ العزمَ على اكتشاف مَنْ كنتُ أنا، على الأقلِّ في نظر أولئك الأقرب إليَّ، مَنْ يُسَمُّون أنفسَهم معارِفاً، وأن أروِّحَ عن نفسي بأن أشوِّشَ نِكايةً تلك الأنا التي كنتُها في نظرِهم.

الكتاب الثَّاني

-I-
ثمَّة أنا، وثمَّة أنتم

قد يُعارضُني أحدُكم:

"ولكنْ، كيف لم يَدُرْ في خَلَدِكَ، أيُّها المسكين موسكاردا، أنَّه يحدُث لجميع الآخرين مثلما يحدُث لكَ، ألَّا يروا أنفسَهُم في مشهدٍ حيٍّ؛ وأنَّه إذا لم تكن أنتَ في نظر الآخرين ذلك الذي حتَّى تلك اللحظة اعتقدتَ أنَّك هو، فبالطَّريقةِ نفسِها يمكن للآخرين ألَّا يكونوا كما كنتَ تراهم أنتَ، وما إلى ذلك، ما إلى ذلك؟"

أُجيب:

لقد دارَ ذلك في خَلَدي. ولكنْ، عُذراً، أصحيحٌ حقَّاً أنَّه دارَ في خَلَدكم أنتم أيضاً؟

وَدِدْتُ أن أفترضَ ذلك، ولكنَّني لا أعتقد. بل إنَّني بدلاً من ذلك أعتقدُ أنَّه لو كانت مثلُ تلك الفكرة قد خطرت في الواقعِ ببالِكم، وتجذَّرتْ فيكم مثلما تجذَّرتْ فيَّ، لاقترفتُم نفسَ الحماقاتِ التي اقترفتُها أنا.

كونوا صادقين: إنَّ الرَّغبة في رؤية أنفسكم في مشهدٍ حيٍّ، لم تخطر لكم ببالٍ قطُّ. إنَّكم منكبُّون على أن تحيوا لأنفسكم، وخيراً تفعلون، دون التَّفكير في ما يمكن أن تَكُونُوه في الوقتِ نفسِهِ بالنِّسبةِ إلى الآخرين؛ لا لأنَّ حُكْمَ الآخرين لا يعني لكم شيئاً، بل إنَّه على العكس يعني لكم الكثير؛ ولكنْ،

لأنَّكم تَحيَون في الوهمِ البهيجِ أنَّ الآخرين، مِن خارجٍ، يجب أن يُمثِّلوا لكم في أنفسِهم حقيقةَ أنفسِهم مثلما تُمثِّلون أنتم لأنفسكم حقيقةَ أنفسكم.

ثمَّ ماذا إذا ما جعلكم أحدُهم تلاحظون أنَّ أنفكم يميلُ قليلاً نحوَ اليمين... لم يحدُث؟ أتفوَّهْتُم بالأمسِ بكذبةٍ... ولا حتَّى هذه؟ كذبةٍ صغيرةٍ صغيرة، هكذا، من غيرِ عواقب... خلاصةُ القول، إذا ما حدث وانتبهتُم ذات مرَّةٍ إلى أنَّكم لستُم في نظر الآخرين الشَّيءَ نفسَه الذي أنتم عليهِ في نظر أنفسكم؛ ماذا أنتم فاعلون؟ (كونوا صادقين). لن تفعلوا شيئاً، أو ستفعلون الشَّيءَ القليل. تحسَبُون على أكثرِ أكثرِ تقديرٍ، مع ثقةٍ باهرةٍ وكاملةٍ بالنَّفس، أنَّ الآخرين أساؤوا فهمَكم، وأخطؤوا في الحكم عليكم؛ وكفى. إذا ما أثقلَ عليكم الأمرُ، فإنَّكم ستحاولون ربَّما تصويبَ ذلك الحُكم، مقدِّمين إيضاحاتٍ، وتفسيرات؛ وإذا هو لم يُثقِلْ عليكم، فإنَّكم ستتركونه يذهب أدراجَ الرِّياح؛ سيهزُّ واحدُكم كتفيه مُزَمجراً: "أوه، في النِّهاية، عندي من اليقين ما عندي، وهذا يكفيني".

أليس الأمرُ كذلك؟

أيُّها السَّادة، عُذراً. بما أنَّه خرجتْ من أفواهكم كلمةٌ كبيرةٌ كهذه، اسمحوا لي أن أُدْخِلَ في أذهانكم فكرةَ جدٍّ صغيرة. هي هذه: أنَّ يقينكم، في هذا الموضعِ، لا يقدِّمُ شيئاً، ولا يؤخِّر. لن أقولَ لكم إنَّه لا يساوي شيئاً، بَيْنا هو في نظركم كلُّ شيء؛ سأقول، بغيةَ إرضائكم، إنَّني أنا الآخرُ عندي من اليقين ما عندي، وأعلمُ أنَّه لا يساوي شيئاً. أتعلمون لماذا؟ لإنَّني أعلم أنَّ ثمَّة أيضاً يقينَكم، يقين كلِّ واحدٍ منكم. ولكنْ، بلى. يقينُكم جدٌّ مختلفٌ عن يقيني.

اعذروني إن أنا تحدَّثتُ للحظةٍ على طريقةِ الفلاسفة. ولكنْ، هل اليقين شيءٌ مُطلَقٌ يَقدِرُ أن يكون مكتفياً بذاته؟ لو كنَّا وحيدين، ربمَّا كان الجوابُ نعم. أمَّا والحالُ هذه، يا رفاق، فليس ثمَّة يقين. للأسف، ثمَّة أنا، وثمَّة أنتم. للأسف.

ثمَّ ماذا يعني قولُ واحدِكم إنَّ عندَه من اليقين ما عندَه وإنَّ هذا يكفيه؟ أنَّ في مقدور الآخرين أن يظنُّوا به ويحكموا عليه كما يحلو لهم، أيْ زوراً وبُهتاناً، طالما أنَّه واثقٌ ومطمئنٌّ من أنَّه لم يقترف خطأً؟

أوه، مِن فضلكم، إذا لم يكن الآخرون موجودين، مَنْ الذي سيمنحُكم تلك الثِّقة؟ ذلك الاطمئنان مَنْ سيمنحُكم إيَّاه؟

أنتم أنفسكم؟ ولكنْ، كيف؟

آه، أنا أعلم كيف: بالتَّصلُّب في اعتقادِكم بأنَّه لو كان الآخرون في مكانكم وحدث لهم الشَّيءُ نفسُهُ الذي حدث لكم، لتصرَّفوا جميعاً مثلما تصرَّفتم أنتم، لا أكثر ولا أقلّ.

مَرحى! ولكنْ، على أيِّ أساسٍ تؤكِّدون ذلك؟

إيه، إنَّني أعلمُ هذا أيضاً: على أساسِ بعضِ المبادئ المجرَّدةِ والعامَّة، والتي فيها، على نحوٍ متجرِّدٍ وعموميٍّ، أيْ خارجَ وقائع الحياةِ المحسوسةِ والشَّخصيَّة، يمكننا أن نكون جميعُنا متَّفقين (ذلك قليلُ الكُلفة).

ولكنْ، كيف تسيرُ الأمورُ إذا ما أدانكم الجميعُ في وقتٍ واحدٍ أو لم يتَّفقوا معكم أو حتَّى سخروا منكم؟ من الواضح أنَّهم لا يُجيدون، مثلكم، الإحاطةَ بتلك المبادئ العامَّة في الواقعةِ الشَّخصيَّةِ التي وقعتْ لكم، ولا بتلك المبادئ نفسِها في الفِعْلِ الذي اقترفتموه.

ففيمَ يكفيكم إذاً ذلك اليقين؟ في الشُّعورِ بأنَّكم وحيدون؟ لا، بحقِّ الله. إنَّ الوحدةَ تُرعِبُكم. ماذا أنتم فاعلون حينها؟ ستتخيَّلون رؤوساً لا تُحصَى. كلُّها كمثلِ رؤوسكم. رؤوساً لا تُحصَى أمامَ رؤوسكم نفسِها. والتي عندَ إشارةٍ معيَّنةٍ، كما لو كنتم تشدُّونها بخيطٍ لامرئيٍّ، ستقول لكم نعم ولا، ولا ونعم؛ كما تريدون أنتم. وهذا يُطمئنكم، ويجعلكم واثقين.

إلى هناك تمضون في تلك اللعبة الرَّائعة، لعبةِ اليقين الذي تحسبونه يكفيكم.

-II-
والآن؟

أتعلمون خِلافاً لذلك على ماذا يعتمدُ كلُّ شيء؟ أنا سأقول لكم. على افتراضٍ مفادُهُ أنَّ الله يحفظكم دائماً. على افتراضكم أنَّ الحقيقة، كما هي في نظركم، لا بدَّ أن تكون هي نفسَها، بل وإنَّها هي نفسُها، في نظرِ الآخرين طُرّاً.

تعيشون داخلَ أنفسِكُم؛ تمشون خارجَ أنفسِكُم، واثقين. ترونَها، تلمسونها؛ وفي الدَّاخل أيضاً، إذا ما طابَ لكم، تدخِّنون سيجاراً (غليوناً؟ غليوناً)، وتمكثون بحبورٍ تتأمَّلون لفَّاتِ الدُّخانِ اللولبيَّةَ وهي تتلاشى شيئاً فشيئاً في الهواء. دون أدنى ارتيابٍ في أنَّ الحقيقةَ بأسْرِها التي تحيطُ بكم ليست أكثر متانةً في نظر الآخرين من ذلك الدُّخان.

تقولون لا؟ انظروا. كنتُ أسكن مع زوجتي المنزلَ الذي بناه والدي بعد الوفاةِ المبكرةِ لوالدتي، كيما يبتعدَ عن ذلك الذي عاش فيهِ معها، المترَعِ بذكرياتٍ مُحرقة. كنتُ آنذك يافعاً، ولم أدرك حتَّى وقتٍ متأخِّرٍ وربَّما حتَّى اللحظة الأخيرة أنَّ ذلك المنزلَ كان قد تُرِكَ من قِبَلِ والدي غيرَ مُكتملٍ ومفتوحاً تقريباً لأيِّ شخصٍ يريدُ أن يدخل.

قوسُ الباب تلكَ التي بلا بابٍ، والتي تفوق في عُلْوِها كلَّ الدِّعامَةِ من جهةٍ ومن الجهة الأخرى جدرانَ السُّورِ اللامكتملِ المحيطِ بالفِناء الفسيحِ الذي أمامَها؛ مع العتبةِ المهدَّمةِ من تحتِها والرَّكائزِ المقشَّرةِ على الجوانب؛

تجعلني الآنَ أفكِّرُ أنَّ والدي تركها هكذا شِبهَ معلَّقةٍ وخاويةً، لأنَّه افترضَ أنَّ المنزلَ، بعدَ موتِهِ، ينبغي أن يبقى لي، أيْ للجميعِ ولِلا أحد؛ وأنَّه سيكون عديمَ الفائدةِ مِن ثَمَّ ذلك الوِقاءُ المسمَّى باباً.

طوالَ المدَّةِ التي بقي فيها والدي حيَّاً، لم يجرؤ أحدٌ على دخولِ ذلك الفِناء. كان قد بقيَ على الأرض العديدُ من الحجارةِ المنحوتة؛ والمارُّ من هناك كان من الممكن أن يتصوَّرَ للوهلةِ الأولى، عندَ رؤيتها، أنَّ البناءَ قد توقَّف قليلاً، وسوف يُستأنَفُ عمَّا قريب. لكنْ، ما إن بدأ العشبُ ينمو بين الحصى وعلى امتداد الجدران، حتَّى بدت تلك الحجارة العديمة الجدوى وكأنَّها محطَّمَةٌ وقديمة. مع الوقتِ، وقد ماتَ والدي، تحوَّلَتْ إلى مقاعدَ لنساءِ الحيِّ اللاتي، بعدَما كُنَّ متردِّداتٍ في البداية، رُحْنَ يغامرن، واحدةً تلو الأخرى، في عبور العتبة، كما لو بحثاً عن بقعةٍ مُستترةٍ، يمكن للمرء فيها أن يجلسَ في كُنَّةِ الظِّلِّ والصَّمت؛ وبعد ذلك، لأنَّ أحداً لم يقلْ شيئاً، تخلَّينَ لدجاجاتهنَّ عن ذلك التَّردُّدِ الذي لم يدُمْ كذلك طويلاً، وبدأنَ ينظرنَ إلى ذلك الفناء على أنَّه مُلْكٌ لهنَّ، مثلما هي مُلْكٌ لهنَّ مياهُ الحوضِ الذي في وسطِه؛ فكنَّ يغسلنَ الملابسَ هناك، وينشرْنَها لتجفَّ؛ وفي النِّهاية، تحت الشَّمس التي كانت تشعُّ مُبهرةً جَذلَى من خلالِ كلِّ ذلك البياضِ بَياضِ أغطيةِ الأسِرَّةِ والقمصانِ المرفرفةِ على الحبالِ الممدودةِ، كنَّ يَحْلُلْنَ على أكتافهنَّ شُعورَهُنَّ الملمَّعَةَ بالزَّيت كيما "يُفلِّينَ" رؤوسَهنَّ، مثلما تفعلُ القِرَدةُ مع بعضها البعض.

لم أُظهِرْ لهنَّ لا انزعاجاً ولا حُبوراً بغزواتهنَّ تلك، مع أنَّه كان يُحنِقني على وجهِ الخصوصِ مرأى سيِّدةٍ عجوزٍ دائمةِ السَّقسَقة، جافَّةِ العَينَيْن مع حدبةٍ في الخلف ملحوظةٍ جيِّداً، بفضلِ جُبَّةٍ خضراءَ كالحةِ اللون، وكانت

تصيبني بالغثيان امرأةٌ سمينةٌ رثَّةُ الهيئةِ وممزَّقةُ الثِّياب، مع ثديٍ رهيبٍ متروكٍ على الدَّوام طليقاً خارجَ مِشَدِّ الصَّدر، وفي حضنها طفلٌ قذِرٌ ذو رأسٍ كبيرةٍ ملأى على نحوٍ مُقرِفٍ بالقشور اللَّبَنيَّةِ وسطَ الزَّغب الأحمر. ربمَّا كانت لزوجتي مصلحةٌ في تركهنَّ هناك، إذ كنَّ يقضينَ لها بعض الحاجات، لتمنحهنَّ بالمقابل إمَّا بقايا طعامٍ وإمَّا شيئاً مِن سَقْطِ الثِّياب.

مفروشاً بالحصباء كالطَّريق، كان هذا الفِناءُ متحدِّراً بالكامل. أرى ذلك الفتى الذي كنتُه، خارجاً من الكُلِّيَّةِ لقضاء العطلة، مُطِلاًّ في آخرِ المساءِ من إحدى شرفاتِ المنزلِ الجديدِ آنذاك. أيُّ ألمٍ لامُتناهٍ كان يُورِثُني إيَّاه البياضُ الأغبرُ لكلِّ تلك الحُصيِّ المتحدِّرة مع ذلك الحوض الكبير، بإرناناتِه الغامضةِ، في الوسط! كان الصَّدأ قد التهمَ حتَّى ذلك الحين الطِّلاءَ الكامدَ الحُمْرَةِ لقصبةِ الحديد التي تحمل في نهايتها البكرة حيث يلتفُّ حبلُ الدَّلو؛ وكم كان يبدو لي مُكئباً ذلك اللونُ الكالحُ للطِّلاء على قصبةِ الحديدِ تلك التي بدتْ مريضةً بدورِها من ذلك الصَّدأ! مريضةً كذلك ربمَّا من الحزن المنبعثِ من صرير البكرة عندما كانت الرِّيحُ، آناءَ الليلِ، تهزهزُ الحبلَ؛ وفوق الفِناء المهجورِ كان صفاءُ السَّماءِ المرصَّعةِ بالنُّجوم، ولكنِ المحجَّبةِ بالغبار، ينبسطُ، كما لو كانت، في ذلك الصَّفاء المتبطِّلِ، مثبَّتةً هناك في الأعلى، إلى الأبد.

بعد وفاة والدي، فكَّرَ كوانتورتْسو، وقد فُوِّضَتْ إليه مسألةُ إدارةِ أعمالي، في أن يغلقَ بفاصلٍ حائطيٍّ الغرفَ التي كان والدي قد استبقاها مقرّاً لهُ، وأن يجعلَ منها شقَّةً صغيرةً للإيجار. لم تعارض زوجتي الفكرة. فوفدَ علينا، بعدَ فترةٍ وجيزةٍ، ليحلَّ في تلك الشُّقَّة رجلٌ عجوزٌ متقاعدٌ كثيرُ الصَّمت، يرتدي على الدَّوام ملابسَ أنيقةً، وبصورةٍ مؤنِقةٍ في بساطتها،

ضئيلُ الجسمِ، ولكنْ، ذو إطلالةٍ عسكريَّةٍ في شخصِهِ الهزيلِ البارزِ الصَّدر، وكذلك في وجهه الصَّغيرِ المفعَم بالطَّاقة والحيويَّة، وإنْ بدا منهوكاً قليلاً، كوجهِ عقيدٍ متقاعد. أنَّ تلفَّتَ، كانت له عينا سمكةٍ نموذجيَّتان وحياديَّتان ومفتوحتان على مجالِ رؤيةٍ واسعٍ، كأنَّهما منقوشتان بفنِّ الخطِّ، وكانت وجنتاه موسومَتَيْن كُلِّيّاً بشبكةٍ كثيفةٍ من الأوردةِ البنفسجيَّةِ الرَّقيقة.

لم أكترثْ أبداً لأمرِه، ولم أكن مهتمّاً في معرفةِ مَنْ يكون، أو كيف يعيش. مرَّاتٍ عديدةً التقيتُهُ على الدَّرج، وإذْ كنتُ في كلِّ مرَّةٍ أسمعه يقول لي بأدبٍ شديدٍ: "عِمْ صباحاً" أو "عِمْ مساءً"، فقد تكوَّنتْ لديَّ فكرةٌ في أنَّ جاري ذاك كان بكلِّ تأكيدٍ لطيفاً جدّاً.

لم يُوقِظ فيَّ أيَّ شكٍّ تَشَكِّيهِ ذاتَ مرَّةٍ من البعوض الذي كان يقضُّ مضجعَهُ في الليل والذي، حسبَ اعتقادِهِ، كان يأتي من المخازن الضَّخمة على يمين المنزل، والتي حوَّلَها كوانتورتْسو، دائماً بعد وفاةِ والدي، إلى محاطٍّ رِحالِ قذرةٍ للإيجار.

- آه، هكذا إذاً!- هتفتُ، ساعتئذٍ، جواباً على شكواه.

ولكنَّني أتذكَّرُ بوضوحٍ كاملٍ أنَّه في هتافي ذاك كان ثمَّة حزنٌ، لا من البعوض الذي كان يقضُّ مضجعَ مستأجري، ولكنْ، على تلك المخازن النَّظيفة المهوَّاة التي رأيتُهم يبنونها حين كنتُ فتىً صغيراً، وكنتُ أركضُ في أنحائها، مُثاراً بصورةٍ غريبةٍ من بياضِ الملاطِ الجصِّيِّ المبهرِ وشبهَ ثملٍ من رطوبةِ المصنعِ الجديد، على الطُّوب المرصوفِ المدوِّي، وكان ما يزال مرشوشاً بالكاملِ بالجير. أمامَ الشَّمس التي كانت تدخلُ من النَّوافذ الكبيرةِ ذات القضبان الحديديَّة، كان لا بدَّ للمرء أن يُغمض عينَيْه مثلما كان عليه أن يفعل أمامَ تلك الجدران المُعَمِّية .

مع ذلك، فإنَّ مَحاطَّ الرِّحالِ تلك ومعها تلك العرباتُ القديمةُ المعدَّةُ للإيجار، عرباتٌ ثلاثيَّةُ الأحصنة، بالرَّغم من تشرُّبها لكلِّ عفونةِ مراقدِ الدَّوابِّ المنتنة ولمياه الشَّطفِ السَّوداء التي كانت تأسُنُ هناك أمامَها، كانت تُذكِّرني أيضاً بتلك النَّشوة التي كانت تعتريني في حداثة سنِّي من ركوبِ الحنطورِ، حين كنَّا نمضي للاصطياف، والحنطورُ يطيرُ بنا على الطَّريق الرَّحيبةِ، وسطَ الحقولِ المترامية الأطراف التي كان يبدو لي أنَّها خُلِقَتْ لغايةٍ وحيدةٍ هي احتضانُ وإفشاءُ مهرجانٍ من الجلاجل. وبفضلِ تلك الذِّكرى بدا لي أنَّني قادرٌ على احتمالِ العيش قربَ محاطِّ الرِّحال تلك؛ لا سيَّما وأنَّه، بغضِّ النَّظر عن هذا القرب، كان معلوماً للجميعِ أنَّنا في ريكْييري كنَّا نُعاني من إزعاج البعوض الذي كان من الشَّائع في كلِّ منزلٍ الاحتماءُ منه باستخدامِ النَّاموسيَّات.

مَنْ يدري أيَّ انطباعٍ كان لا بدَّ أن تتركه لدى جاري رؤيةُ ابتسامةٍ على شفتيَّ، عندما بوجهه الصَّغير المتغطرس صاحَ فيَّ قائلاً إنَّه لم يستطع يوماً قَطُّ أن يحتملَ النَّاموسيَّات، لأنَّه كان يشعر بالاختناق منها؟ لقد أفصحتْ ابتسامتي تلك بالتَّأكيد عن الدَّهشةِ والإشفاق. ألَّا يكون قادراً على احتمال النَّاموسيَّة، تلك التي لم أنقطع يوماً عن استخدامها حتَّى وإن قُيِّضَ لجميع البعوض أن يتلاشى من ريكْييري، لِلحبور الذي كانت تمنحني إيَّاه، وهي مُعلَّقَةٌ عالياً في السَّماء مثلما علَّقتُها أنا ومنصوبةٌ حولَ كاملِ مُحيطِ السَّرير دون ثنيَّةٍ واحدة. الغرفةُ التي كانت تُرَى ولا تُرَى من خلالِ تلك الألوف المؤلَّفة من خُرومِ النَّسيج الحريريِّ الرَّقيق؛ الشُّعورُ بأنَّك مُزمَّلٌ كما لو بسحابةٍ بيضاء.

لم أعبأ بما كان من الممكن أن يظنَّه بي بعدَ ذلك اللِّقاء. تواصلتْ

رؤيتي له على الدَّرَج، وإذْ عُدْتُ أسمعُه يقول لي كما مِن قبل "عِمْ صباحاً" أو "عِمْ مساءً"، فقد بقيتُ محتفظاً بفكرةِ أنَّه كان لطيفاً جدَّاً.

أؤكِّدُ لكم في المقابل أنَّه في الوقتِ نفسِه الذي كان يقولُ لي فيه على الدَّرَجِ - عِمْ صباحاً - أو - عِمْ مساءً -، كان في دخيلةِ نفسِهِ يجعلني أعيش كمثلِ أبلهٍ نموذجيٍّ، لأنَّني هناك في الفِناء كنتُ أتسامحُ مع غزوِ الجاراتِ ذاك ومع تلك العفونة الملتهبةِ لبقعةِ الغسيل ومع البعوض.

واضحٌ أنَّني ما كنتُ لِأفكِّرَ بعد ذلك: "أوه، يا إلهي كم هو لطيفٌ جاري هذا!"، لو أنَّني استطعتُ أن أرى نفسي من خلاله هو الذي، خِلافاً لي، كان يراني كما لم أستطعْ أن أرى نفسي يوماً، أقصد من الخارج، من منظوري أنا، ولكنْ، مِن داخل الرُّؤية التي كان يمتلكها هو من ناحيته عن النَّاسِ والأشياء، والتي داخلَها كان يجعلني أحيا على هواه: كأبلهٍ نموذجيٍّ. لم أكن مدرِكاً لذلك، وواصلتُ التَّفكيرَ: "أوه، يا إلهي، كم هو لطيفٌ جاري هذا!".

-III-
بإذنِكَ

طَرْقٌ على باب غرفتِكَ.

إنَّكَ، إنَّكَ مُستلقٍ باسترخاءٍ تامٍّ على أريكتكَ الطَّويلة. أنا جالسٌ هنا. ألن تأذن للطَّارق؟

- لماذا؟

آه، إنَّها الأريكة التي عليها، وقد انصرمتْ سنونٌ عديدةٌ الآن، فاضتْ روحُ أمِّك المسكينة. اعذرني، ما كنتُ لأدفعَ فلساً واحداً لأجل الحصول عليها، فيما أنتَ تأبى بيعَها لِقاءَ كلِّ ذهبِ العالَم، لديَّ اعتقادٌ راسخٌ بذلك. مَنْ يرَها، بطبيعةِ الحالِ، في غرفتِكَ المؤثَّثةِ بهذا الذَّوق الرَّفيع، فإنَّه حتماً، ولِعدمِ معرفتِه بالسَّبب، سيتساءل باستغرابٍ كيف أمكنكَ الإبقاءُ، هنا، على أريكةٍ قديمةٍ كالحةِ اللونِ ومهترئةٍ كمثلِ هذه.

هي ذي كراسيكَ. وهي ذي منضدةُ الكتابة الصَّغيرةُ خاصَّتُكَ، والتي لا يمكن لمنضدةِ كتابةٍ أن تكون أفضلَ منها. تلك نافذةٌ تطلُّ على الحديقة. وهناك في الخارج، تلك الصَّنوبرات، وهاتيك السَّروات.

أعلمُ. ساعاتِ عِذابٍ تقضيها في هذه الغرفة التي تبدو لكَ آسِرةً، مع أشجار السَّرو تلك التي تَلُوحُ هناك. ولكنْ، في الغرفةِ إيَّاها أفسدتَ في الوقتِ نفسِهِ علاقتكَ مع الصَّديق الذي كان مِن قبلُ يأتي لزيارتكَ

في كلِّ يومٍ تقريباً، أمَّا الآن، فإنَّه ليس والحالُ هذه لم يعدْ يأتي وحسب، بل راحَ يقول للجميع إنَّكَ مجنونٌ، مجنونٌ تماماً لأنَّكَ تقطن منزلاً كهذا.

- مع كلِّ ذلك السَّرو المنتصب صفَّاً واحداً هناك أمامَ نافذتِه،- راح يقول.- أكثر من عشرين سَرْوةٍ، أيُّها السَّادة، حتَّى ليبدو أنَّها مقبرة.

لم يكن ليُهادِنَ في ذلك.

ها أنتَ تغمض عينَيْكَ؛ تهزُّ كتفَيْكَ؛ تتنهَّد:

- أذواق!

ذلك أنَّه يبدو لكَ بحقٍّ أنَّها مسألةُ أذواقٍ، أو آراءٍ، أو عادةٍ؛ ولستَ تشكُّ أدنى شكٍّ في حقيقةِ الأشياء الأثيرة، تلك التي بامتنانٍ تراها الآنَ، وتلمسُها.

ارحلْ بعيداً عن هذا المنزل؛ مُرَّ به من جديدٍ في غضون ثلاث أو أربع سنواتٍ لتراه بروحٍ أخرى غير هذه التي تملكُها اليومَ؛ سترى أنَّه سيكون هناك أكثر من هذه الحقيقةِ الأثيرة.

- أوه، انظرْ، هذه هي الغرفة؟ هذه هي الحديقة؟

ولنأملْ حبَّاً بالله، ألَّا يتوفَّى لك قريبٌ آخرُ من أهلكَ الأقربين، لأنَّك أنتَ أيضاً ستراها أشبهَ بمقبرةٍ كلَّ هاتيك السَّروات الأثيرة التي هناك.

الآنَ تقولُ إنَّكَ تعرف ذلك، وإنَّ الرُّوحَ تتبدَّلُ، ويمكن لأيِّ شخصٍ أن يُخطئ.

إنَّها فعلاً قصَّةٌ قديمةٌ، في الواقع.

ولكنَّني لا أزعمُ أنَّني أقول لكَ شيئاً جديداً. أنا أسألُكَ فحسب:

- لماذا، إذاً، بحقِّ الله، تتصرَّف وكأنَّكَ لا تعلم؟ لماذا تستمرُّ في الاعتقاد بأنَّ الحقيقةَ الوحيدةَ هي التي تراها أنتَ، التي تراها اليومَ، وتستغربُ، وتحنقُ، وتصرخُ بأنَّ المخطئَ صديقُك، هذا الذي، مهما يفعل، فما هو بقادرٍ أبداً أنْ يمتلكَ في ذاتِهِ، المسكين، نفسَ الرُّوحِ التي تملك؟-

-IV-
عُذراً مرَّةً أخرى

دعْني أقول شيئاً آخرَ بَعْدُ، ثمَّ أكتفي.

إنَّه يقينكَ، تقول. لا تريد له أن يوضَعَ موضعَ شكٍّ. لقد سهوتُ عن ذلك، معذرةً. ولكنَّني أقرُّ، أقرُّ بأنَّكَ في نظرِ نفسِكَ، في داخلِ نفسِكَ، لستَ تلك الأنا التي، مِن خارجٍ، أراكَ عليها. لا عن سوءِ نيَّةٍ. أودُّ منكَ أن تكون على الأقلِّ متيقِّناً بذلك. إنَّكَ تعرفُ نفسَكَ، تشعرُ بنفسِكَ، تريدُ لِنفسِكَ أن تكونَ على طريقةٍ ليست طريقتي، بل طريقتكَ؛ ومرَّةً أخرى أيضاً ستعتقدُ أنَّ طريقتكَ صحيحةٌ، وطريقتي خاطئة. سيكون ذلك، لا أنكِر. ولكنْ، أيمكن لطريقتكَ أن تكون طريقتي والعكسُ بالعكس؟

ها نحن نعودُ مرَّةً أخرى إلى نقطةِ البدء!

أستطيعُ أن أصدِّقَ كلَّ ما تقولُه لي. أصدِّقُ ذلك. أقدِّمُ لك كرسيّاً: اجلسْ، ودَعْنا نتوصَّل إلى اتِّفاق.

بعد قُرابةِ ساعةٍ من الحديث، فهمَ أحدُنا الآخرَ تمامَ الفَهمْ.

غداً ستُقبلُ عليَّ ويداكَ على وجهكَ، صارخاً:

- ولكنْ، كيف؟ ما الذي فهمتَهُ؟ ألم تقلْ لي كذا وكذا؟

كذا وكذا، تماماً. ولكنَّ البليَّةَ تكمنُ في أنَّكَ، يا عزيزي، لا تعلمُ أبداً،

ولا أنا قادرٌ أن أفصِحَ لكَ أبداً كيف يُتَرجَمُ في داخلي ذلك الذي تقوله لي. لم تتحدَّث بالتُّركيَّة، لا. لقد استخدمنا، أنا وأنتَ، نفسَ اللغةِ، نفسَ الكلمات. لكنْ، ما ذنبُنا، أنا وأنتَ، إذا كانت الكلماتُ، في حدِّ ذاتها، خاوية؟ خاوية، يا عزيزي. وأنتَ تملؤها بالمعنى الذي تراه، إذْ تلفظُها لي؛ وأنا إذْ أتلقَّاها، فإنَّني، حُكماً، أملؤها بالمعنى الذي أراه. حسبَ أحدُنا أنَّه فهمَ الآخرَ، ولكنَّه لم يفهمه على الإطلاق.

إيه، إنَّها قصَّةٌ قديمةٌ هذه أيضاً، هذا شيءٌ معلومٌ. ولا أزعمُ أنَّني أقول شيئاً جديداً. كلُّ ما هنالك أنَّني أعودُ لأسألكَ:

- لماذا، إذاً، بحقِّ الله، تستمرُّ في التَّصرُّف وكأنَّكَ لا تعلم؟ لماذا تستمرُّ في الحديث عن نفسِكَ، إنْ كنتَ تعلم أنَّه لكي تكون في نظري ذلك الذي هو أنتَ في نظر نفسِكَ، ولكي أكون في نظركَ ذلك الذي هو أنا في نظر نفسي، فإنَّه ينبغي أن أسبغَ عليكَ، في دخيلةِ نفسي، نفسَ الحقيقةِ التي تسبغها على نفسِكَ، والعكس بالعكس؛ ثمَّ هل هذا ممكنٌ؟

واحسرتاه، يا عزيزي، أيّاً يكن ما تفعله، فإنَّكَ دائماً ستمنحني حقيقةً وفقاً لرؤيتكَ أنتَ، حتَّى وإن اعتقدتَ بطيبِ خاطرٍ أنَّها موافقةٌ لرؤيتي أنا؛ وسيكون ذلك، لا أقولُ إنَّه سيكون حتماً؛ أقولُ ربمَّا سيكون؛ ولكنَّه سيكون وفقاً لـ "رؤيتي" التي لا أعرفها، ولن أتمكَّن من معرفتها أبداً؛ ذلك أنَّكَ وحدَكَ تعلم أنَّك تراني مِن الخارج: وعليه فإنَّ "رؤيتي" من منظوركَ أنتَ، ليست هي نفسها "رؤيتي" من منظوري أنا.

نحسب أنَّ ثمَّة خارجَنا، من منظوركَ ومن منظوري، حقيقةً سيِّدةً لي وحقيقةً سيِّدةً لك، أقصد حقيقَتَيْن قائمَتَيْن بذاتهما، ومتماثلَتَيْن، وغير

قابلَتَيْن للتَّغيير. تلك الحقيقة لا وجودَ لها. ثمَّة فيَّ ولي حقيقتي الخاصَّة: تلك التي أمنحُها لنفسي؛ وثمَّة حقيقتكَ الخاصَّة فيكَ ولكَ: تلك التي تمنحُها لنفسِكَ؛ حقيقتان لن تكونا أبداً الشَّيءَ نفسَه لا من منظوركَ ولا من منظوري.

فإذاً؟

ينبغي إذاً، يا صديقي، أن نُعزِّي نفسَينا بهذا: أنَّ حقيقتي لم تعدْ مؤكَّدَةً مثلما لم تعدْ مؤكَّدةً حقيقتُكَ، وأنَّهما لا تدومان إلَّا هُنيهةً حقيقتُكَ وحقيقتي.

أيسبِّبُ لكَ هذا بعضَ الدُّوار؟ لذلك إذاً... فَلْنختُم المسألة.

-V-
أفكارٌ متسلِّطة

هوَ ذا، إذاً، ما أردتُ الخلوصَ إليه، أنَّه عليكَ ألَّا تقول ذلك بعدَ اليوم، عليكَ ألَّا تقول إنَّ عندكَ من اليقين ما عندكَ، وإنَّ هذا يكفيكَ.

متى تصرَّفتَ هكذا؟ البارحة، اليوم، قبلَ دقيقةٍ واحدة؟ والآن؟ آه، الآن أنتَ نفسُكَ مستعدٌّ للإقرار بأنَّكَ ربمَّا كنتَ ستتصرَّفُ بخلافِ ذلك. ولماذا؟ يا إلهي، إنَّكَ تَشْحُبُ. لعلَّكَ تبيَّنتَ الآنَ أنتَ أيضاً أنَّكَ قبلَ دقيقةٍ واحدةٍ كنتَ شخصاً آخر.

بلى، بلى، يا عزيزي، فكِّرْ في ذلك مليَّاً: قبلَ دقيقةٍ واحدة، قبلَ أن تقعَ لكَ هذه الواقعة، كنتَ شخصاً آخر؛ ليس ذلك فحسب، بل إنَّك كنتَ أيضاً مِائةَ شخصٍ آخر، مِائةَ ألفِ شخصٍ آخر. ولا داعي، صدِّقني، لإبداءِ أيِّ تعجُّب. بدلاً من ذلك انظرْ هل يبدو لكَ أنَّكَ قادرٌ أنْ تكون في غاية التَّيقُّن بأنَّكَ من اليومِ إلى الغدِ ستكون ذلك الذي تفترض أنَّكَ هو اليوم.

ها عزيزي، الحقيقة هي هذه: إنَّها كلُّها أفكارٌ متسلِّطة. اليومَ تتسلَّطُ عليكَ بطريقةٍ وغداً بأخرى.

سأقولُ لكَ لاحقاً كيفَ ولماذا.

-VI-
بل سأقولُه لكَ الآن

هل رأيتَ يوماً بيتاً يُبنَى؟ أنا رأيتُ الكثير، هنا في ريكْييري. وفكَّرتُ:

"انظرْ قليلاً إلى الإنسان، ما هو قادرٌ على صُنعِه! يُمزِّق الجبل؛ يقتلع منه الحجارة؛ يجعلُها مربَّعةَ الأشكال؛ يرتِّبُها واحدةً فوق الأخرى وبطريقةٍ ما، وبلا حجَّةٍ واضحة، ما كان بالأمسِ قطعةً مِن جبلٍ صارت اليومَ بيتاً".

- أنا - يقولُ الجبلُ - جبلٌ، ولن أتزحزحَ.

لن تتزحزحَ، يا عزيزي؟ انظرْ هناك إلى تلك العرباتِ التي تجرُّها الثِّيران. إنَّها محمَّلةٌ بكَ، بحجارتِكَ. إنَّهم ينقلونكَ بعربةٍ مجرورةٍ باليد، يا عزيزي! أتحسبُ أنَّكَ باقٍ هنا؟ لقد انتهى نصفُكَ سلفاً على بُعْدِ ميلَيْن منكَ، في السَّهل. أين؟ في تلك البيوت هناك، ألا ترى؟ بيتٌ أصفر، بيتٌ أحمر، بيتٌ أبيض؛ بطابقَيْن، بثلاثةِ طوابقَ، بأربعة.

وماذا عن أشجاركَ الرَّان، أشجاركَ الجوز، وأشجاركَ الشُّوح؟

هي ذي هناك، في منزلي. ألا ترى كيف نجَرْناها بإتقان؟ مَنْ سيتعرَّف إليها بعد الآن في هذه الكراسي، في هذه الخزائن، في هذه الرُّفوف؟

أنتَ أيُّها الجبل. إنَّكَ أعظم بكثيرٍ من الإنسان؛ وكذلك أنتَ أيُّها الرَّان، وأنتَ أيُّها الجوزُ، وأنتَ أيُّها الشُّوح؛ ولكنَّ الإنسان دُوَيبةٌ صغيرةٌ، بلى، دُوَيبةٌ صغيرةٌ تمتلك رغمَ ذلك في ذاتِها بعضَ الأشياء التي لا تمتلكها أنتَ.

أن يبقى على الدَّوام واقفاً، أي منتصباً على قَدَمَيْن اثنَتَيْن فحسب، كان ذلك مُتعِباً له؛ أن ينطرحَ على الأرضِ مثلَ بقيَّةِ الدَّوابِّ، لم يكن ذلك مُريحاً له، وكان يتأذَّى من ذلك، لأنَّه فوق ذلك، إذْ فقدَ وَبَرَه، أصبحَ جلدُه، ويا لِلْجلد!، أكثرَ رقَّة. ثمَّ رأى الشَّجرة وفكَّرَ أنَّ بإمكانه أن يستنبطَ منها شيئاً ما ليجلسَ عليه براحةٍ أكبر. فكان أن شعرَ حينذاك بأنَّ الخشبَ العاري ليس مُريحاً، فبطَّنَه؛ سلخَ البهائمَ الخاضعة له، أخرى جزَّ صوفَها، وألبسَ الخشبَ جلداً، وبين الجلدِ والخشب جعلَ الصُّوفَ؛ وهناك تربَّعَ في الأعلى، مغبوطاً:

- آه، ما أطيبَ البقاء هكذا!

الحسُّون يُغرِّدُ في القفص المعلَّق بين السَّتائر على رفِّ النَّافذة. لعلَّه استشعرَ دنوَّ الرَّبيع؟ يا أسفي، ربَّما استشعرَ ذلك أيضاً هذا الغصنُ، غصنُ الجوز العتيق الذي صُنِعَت منه أريكتي، هذه التي جواباً على غناء الحسُّون تُطقطق الآنَ.

لعلَّ ما نسمعه، من خلال ذلك الغناء وهذه الطَّقطقة، هو الطَّائرُ وقد صار حبيساً والجوزة وقد صارت أريكة.

-VII-
ما شأن البيت بهذا؟

يبدو لكَ أنَّ هذا الحديث عن البيت إنَّما يقع خارج السِّياق؛ ذلك أنَّكَ تراه الآن كما هو، بيتاً لكَ، وسط البيوت الأخرى التي تشكِّلُ المدينة. ترى من حولكَ قطعَ الأثاثِ التي صُنِعَتْ لتلائمَ ذوقكَ وسائرَ الوسائلِ التي اتَّخذتَها دعةً وإرفاهاً. وها هي ذي تنفث من حولكَ الرَّخاءَ المأنوسَ المستعذَب، وقد بُثَّتْ فيها الرُّوحُ المنبعثةُ من ذكرياتكَ كلِّها؛ لم تعدْ مجرَّد أشياء، بل تكاد تكون أجزاءً حميمةً من نَفْسِك، أجزاءً تستطيع من خلالها أن تلمسَ وتشعرَ بتلك الحقيقة التي يبدو لكَ أنَّها حقيقةُ وجودِكَ المطلَقة.

سواءٌ كانت من زانٍ أو من جوزٍ أو من شوح، فقِطَعُ أثاثكَ تعبق، كشأنِ ذكريات حياتكَ العائليَّة الحميمة، بذلك النَّفَس الذي يعشِّش في كلِّ بيتٍ، والذي يُضفي على حياتنا شيئاً كالعطر، عطرٍ كلَّما خفَّ أثرُه ازدادَ شعورُنا به، وحيث إنَّنا ما إن ندخلَ بيتاً آخر، حتَّى نشعرَ بنَفَسٍ آخرَ مختلف. لقد أضجَرَكَ، أرى ذلك، استشهادي لكَ بزانٍ، وجوزٍ، وشوحِ الجبل.

وكما لو أنَّكَ بدأت تتفهَّمُ قليلاً جنوني، بتَّ تضطربُ على الفورِ، لكلِّ شيءٍ أقولُه، وتسأل:

- لماذا؟ وما شأن هذا بموضوعنا؟

-VIII-
خارجاً في العراء

لا، هيَّا، لا تخشينَّ أن أدمِّرَ لكَ الأثاثَ، والسَّكينةَ، وحُبَّ البيت.

إلى الهواء! إلى الهواء! فلنتركِ البيتَ، لنتركِ المدينة. لا أقول إنَّ بإمكانكَ أن تعوِّلَ كثيراً عليَّ؛ ولكنْ، هيَّا، لا تخفْ. إلى حيث تلك الطَّريق ومعها تلك البيوت تنتهي في الحقول يمكنكَ أن تَتْبَعَني.

نعم، الطَّريق، هذه الطَّريق. أتخشى جِدِّيّاً أنَّ بإمكانها أن تُعْرِضَ عنكَ؟ إنَّها طريقٌ طريق. طريقٌ محصَّبة؛ وحذاريكَ الشَّظايا. وتلك التي هناكَ مصابيحُ. فلتتقدَّمْ واثقاً.

آه، تلك الجبال الزَّرقاء البعيدة! "الزَّرقاء" أقولُ؛ وأنتَ أيضاً تقول "الزَّرقاء"، أليس كذلك؟ نحن متَّفقان إذاً. وهذا الجبل القريب هنا، مع غابةِ كستنائه: إنَّها كستناء، أليس كذلك؟ أترى؟ أترى كيف يفهم أحدُنا الآخر؟ كستناءُ الفصيلةِ البلُّوطيَّة، الطَّويلةُ السَّاق. كستناءٌ كستنائيَّة اللون. يا لِلسَّهل المترامي أمامَنا ("أخضر" أليس كذلك؟ هو في نظرِكَ وفي نظري "أخضر" إذا شئنا القول، ذلك أنَّنا نفهم بعضنا بعضاً بشكلٍ رائع)؛ وهاتيك المروج هناك، انظرْ انظرْ كيف تلتهبُ بخشخاشٍ أحمرَ في الشَّمس! - آه، ماذا؟ معاطفُ أطفالٍ حمراء؟ - بالفعل، ما أعماني! إنَّها معاطف من صوفٍ أحمر، أنت مُحِقٌّ. لقد بدت لي خشخاشاً. وربطة عنقكَ هذه بلونٍ أحمرَ قانٍ... يا لِلحبور في هذه الطَّراوةِ المتبطِّلة، الزَّرقاء والخضراء، لطقسٍ رائقٍ

مُشمِس! أترفع قبَّعة اللَّبَّاد الرَّماديَّة؟ أتتعرَّق حقًّا؟ إيه، يا لكَ من رجلٍ وسيمٍ بَدِين، بارككَ الله! ليتكَ ترى المربَّعات البيض والسُّود للسِّروال فوق عجيرتكَ... في الأسفل، أسفل السُّترة! يبدو هذا مُبالَغاً فيه.

الحقول! أيُّ سكينةٍ أخرى، إيه؟ تشعر بأنَّكَ تذوب. نعم؛ ولكنْ، هل تستطيع أن تقول لي أين هي؟ أقصدُ السَّكينة. لا، لا تخفْ، لا تخفْ. أيبدو لكَ بحقٍّ أنَّ ثمَّة سكينةً هنا؟ فلْيَعِ أحدُنا الآخرَ، بحقِّ السَّماء! دعنا لا نحطِّم تَوافقَنا التَّامَّ. ها هنا أنا لا أرى، من بعدِ إذنكَ، سوى الشَّيء الذي أشعرُ به في داخلي في هذه اللحظة، هُراءً هائلاً، هُراءً يحوِّلُ وجهكَ، وكذلك وجهي بالتَّأكيد، إلى وجهَي أحمقَيْن مغتبطَيْن، وذلك الشَّيء هو تماماً الشَّيء الذي ننسبُه إلى الأرض وإلى النَّباتات، تلك التي يبدو لنا أنَّها تحيا لأجل أن تحيا وحسب، مثلما هي قادرةٌ على الحياة في هذا الهراء.

دعنا نقُلْ إذاً إنَّها كامنةٌ في داخلنا تلك التي نسمِّيها سكينةً. ألا تظنُّ ذلك؟ وهل تعلم من أين تنبع؟ من الحقيقةِ الفائقةِ البساطةِ بأنَّنا خرجنا للتَّوِّ من المدينة؛ أيْ، بكلمةٍ أخرى، من عالَمٍ مُشيَّد: بيوتٍ، شوارع، كنائس، ساحات؛ ولكنْ، ليس لأجل هذا فحسب أسميناه مُشيَّداً، وإنَّما أيضاً لأنَّنا لم نعدْ فيه نحيا لأجل أن نحيا، كهذه النَّباتات، دون أن ندرك كيف نحيا؛ بل لأجلِ بضعةِ أشياء لا وجودَ لها وضعناها هناكَ نحنُ؛ لأجل بضعةِ أشياء تعطي معنىً وقيمةً للحياة: معنىً وقيمةً تستطيع هنا، جزئيّاً على الأقل، أن تفقدَهما، أو أن تتبيَّنَ فيهما المعنى العميقَ للخواء المغِمِّ. وهو ذا يعتريكَ خمولٌ، وكآبة. أفهمُ ذلك، أفهم. تتراخى أعصابُكَ. تغمرُك حاجةٌ موجعةٌ إلى الانغماس. ها أنت تشعرُ بأنَّكَ تذوب، ها أنتَ تنغمس.

-IX-
غيومٌ ورياحٌ

آه، ألَّا نملك بعد اليومِ وعيَ الوجود، مثلَ حَجَرٍ، مثلَ نبتة! ألَّا نتذكَّر حتَّى أسماءَنا! نستلقي ها هنا على العشب، بيدَيْن مشبوكَتَيْن خلفَ الرَّقبة، نتأمَّلُ في السَّماء الزَّرقاء الغيومَ البيضاءَ المبهِرة وهي تبحِرُ مُتخمَةً بالشَّمس؛ نصغي إلى الرِّياح وهي تصنع هناك، بين أشجار الكستناء الحرجيَّة، هديراً كهدير البحر.

غيومٌ ورياحٌ.

ماذا قلتَ؟ واأسفاه، واأسفاه. غيومٌ؟ رياحٌ؟ ألا يُخيَّلُ إليكَ فعلاً أنَّ كلَّ شيءٍ يشعرُ ويدركُ أنَّ تلك التي تبحِرُ برَّاقةً عِبْرَ الفراغِ اللامتناهي الأزرق هي غيوم؟ أتُراه يعي حقَّاً أنَّها غيمة؟ لا؛ لا يعي ذلك حتَّى الشَّجرةُ والحَجَر، هذان اللذان يجهلان نفسَيْهما أيضاً؛ ويقفان وحيدَيْن.

أن تشعرَ بالغيمةِ وتدركَها، سيكون بمقدورِكَ، يا عزيزي، أن تفكِّرَ أيضاً بأحوالِ الماء (ولِمَ لا؟) إذْ يتحوَّلُ إلى غيمةٍ ليتحوَّلَ بعد ذلك إلى ماءٍ من جديد. إنَّه لَشيءٌ آسِرٌ، حقَّاً. يكفي أُسَيتِذُ فيزياءَ وضيعٌ ليشرحَ لكَ هذا التَّحوُّلَ. لكنْ، مَنْ سيشرحُ لكَ علَّةَ العلَّة؟

-X-
الطَّائر الصَّغير

اسمعْ، اسمعْ: عالياً في غابة الكستناء، ضرباتِ الفأس. وأسفلَ في المقلَع، ضرباتِ المعوَل.

يقدُّونَ الجبلَ، يطرحونَ الأشجارَ أرضاً ليشيِّدوا بيوتاً. هناك، في المدينة القديمة، بيوتاً أخرى. مشقَّاتٌ، تعاساتٌ، مُكابَداتٌ من كلِّ صنفٍ ولون؛ لماذا؟ لأجلِ الحصول على مدخنة، يا سيِّدي؛ ولكي نُخرِجَ بعد ذلك من هذه المدخنة بعضَ الدُّخان الذي ما يلبث أن يتبدَّدَ في خواء الفضاء.

وكمثلِ ذلك الدُّخان، كلُّ فكرةٍ، كلُّ ذكرى من ذكرياتِ البشر.

نحن في الرِّيف هنا؛ الخمولُ ذوَّبَ كلَّ عضوٍ من أعضائنا؛ من الطَّبيعيِّ أنَّ الأوهامَ والخيبات، الآلامَ والأفراح، الآمالَ والرَّغبات تبدو لنا باطلةً وعابرة، أمامَ الشُّعورِ المنبثِّ من الأشياء التي تبقى مُحايدةً وتتفوَّق على كلِّ تلك المشاعر. حسبُنا النَّظرُ إلى تلك الجبالِ الباسقةِ في ما وراءَ الوديان هناك، البعيدةِ البعيدة، المتلاشيةِ عندَ الأفق، الخفيفةِ في المغيب، وسطَ أبخرةٍ ورديَّة.

ها أنتَ: مُستلقياً، تقذف في الهواء قبَّعةَ اللَّبَّاد: تصبحُ تراجيديَّاً بعضَ الشَّيء؛ تهتفُ:

- أوه أيَّتها الطُّموحات البشريَّة!

أجل. على سبيل المثال، يا لها من صرخةِ نصرٍ، لأنَّ الإنسان، كمثل قبَّعتك تلك، شرعَ في الطَّيران، مُحاكياً طائراً صغيراً! انظرْ هنا في هذه الأثناء إلى هذا الطَّائر الحقيقيِّ كيف يطير. أرأيتَ؟ إنَّها البساطة الأكثر صفاءً وخفَّة، والتي تترافق بعفويَّةٍ مع زقزقةِ انتشاء. فكِّر الآنَ بتلك الآلةِ المجنَّحةِ والسَّخيفةِ والمدوِّية، وبذلك الهلَع، بالقلَق، باللَّوعةِ القتَّالةِ للإنسان الذي يريد أن يتشبَّه بالطَّائر الصَّغير! هنا رفرفةٌ وزقزقة؛ وهناك مُحرِّكٌ مُضِجٌّ وكريه الرَّائحة، ومن أمامِهِ الموت. المحرِّكُ يَتلفُ؛ المحرِّكُ يتعطَّلُ؛ وداعاً أيُّها الطَّائر الصَّغير.

- أيُّها الإنسان،- تقولُ أنتَ، مستلقياً على العشب،- دعْ عنكَ الطَّيران! لماذا ترغب في الطَّيران؟ ومتى طرْتَ مِن قبل؟

مرحى. إنَّكَ تقولُ هذا، هنا، في هذه اللحظة؛ لأنَّكَ في الرِّيف الآن، مستلقٍ على العشب. انهضْ، عُدْ إلى المدينةِ، وسترى أنَّكَ ما إن تَدخلَها حتَّى تدركَ على الفورِ لماذا يرغب الإنسان في الطَّيران. ها هنا، يا عزيزي، رأيتَ الطَّائرَ الحقيقيَّ، الذي يطيرُ حقيقةً، ففقدتَ معنى وقيمةَ الأجنحةِ الزَّائفة والطَّيرانِ الآلي. ستستعيدُ ذلك في الحالِ هناك، حيث كلُّ شيءٍ زائفٌ وآلي، تحويرٌ وتركيب: عالَمٌ آخر داخلَ العالَم: عالَمٌ صُنْعيٌّ، مُرَكَّبٌ، مُنَضَّد؛ عالَمٌ صُوَريٌّ، مِعوَجٌّ، تناسبيٌّ، متكلِّفٌ، فارغٌ؛ عالَمٌ يمتلك معنىً وقيمةً في نظرِ الإنسان وحده الذي هو صانعُه.

هيَّا، هيَّا، انتظرْ أن أعطيكَ يدي، لأساعدكَ على النُّهوض. بَدينٌ أنتَ، يا صاح. انتظرْ: على ظهركَ علِقَتْ بضعة خيوطٍ من العشب... ها نحن ذان، فلنمضِ.

-XI-

العودة إلى المدينة

انظرْ الآن إلى هذه الأشجار التي تحرسُ هنا وهناك، مُصطفَّةً على امتدادِ الأرصفة، شارعَنا هذا، شارعَ بورتا ڤِكْيا، كيف تبدو فاقدةً سيماءَها، أشجاراً حضريَّةً بائسة، مقصوصةً ومُسَرَّحةَ الشَّعر.

ربمَّا كانت الأشجار لا تفكِّر؛ والبهائم، ربمَّا كانت لا تحتكمُ إلى المنطق. لكنْ، إذا ما فكَّرَتِ الأشجار، يا إلهي، وكانت قادرةً على الكلام، مَنْ يعلمُ ماذا كانت ستقول هذه المستضعَفة التي، لكي نصنعَ ظلاًّ لنا، نجعلها تنمو وسط المدينة؟! يبدو أنَّها ستسألُ، إذْ ترى صورتَها منعكسةً هكذا في واجهات المتاجر الزُّجاجيَّة، ما الذي تفعله هنا، بين أفواجٍ من البشر المنهمكين في أشغالهم، وسطَ صخبِ الحياةِ الحضريَّة الذي يصمُّ الآذان؟ مُذ زُرِعَتْ قبل سنواتٍ عديدة، بقيَتْ على الدَّوامِ مجرَّدَ تُلَّةٍ من الأشجار الشَّاحبةِ البائسة. أمَّا الآذان، فلا يبدو أنَّها تمتلك شيئاً منها. لكنْ، مَنْ يعلم، ربمَّا كانت الأشجار، لكي تنموَ، في حاجةٍ إلى الصَّمت.

هل سبق أن زُرْتَ ساحةَ أوليڤللا، خارجَ أسوار المدينة؟ حيث الدَّيرُ العتيق للثَّالوثيِّينْ البيض؟ أيُّ فضاءٍ للحُلم والاستكانة، تلك السَّاحة، وأيُّ صمتٍ عجيب، عندما من خلال الطُّوب الأسودِ والمطحلَب للدَّير العتيق، تُطِلُّ نقيَّةً كطفلٍ، زرقاءَ زرقاءَ، ضحكةُ الصَّباح!

حسناً، كلَّ عامٍ هناك، تحاولُ الأرضُ، في بساطتها الأموميَّةِ الغافلة،

أن تنتفعَ من ذلك الصَّمت. لعلَّها تحسبُ أنَّه لم يعدْ ثمَّة مدينةٌ هناك؛ أنَّ النَّاسَ هجروا تلك السَّاحة؛ فإذا بها تحاولُ أن تتعافى، مادَّةً في الخفاء، وآناً فآناً، بين بلاط الطَّريق، الكثير من خيوطٍ عشبيَّة. لا شيء أكثر طزاجةً ورقَّةً من خيوط العشب الهزيلةِ والخجولةِ تلك، إذْ تخضرُّ بها السَّاحةُ خلال فترةٍ وجيزة. ولكنَّها واحسرتاه لا تدوم أكثر من شهر. إنَّها مدينةٌ تلك التي هناك؛ وليس مُباحاً لخيوطِ العشبِ أن تنبثقَ فيها. يأتي كلَّ عامٍ أربعةُ أو خمسةُ كنَّاسين؛ يجلسون القرفصاءَ على الأرض وبما معهم من أدواتٍ حديديَّةٍ معقوفةٍ يقومون باقتلاعها.

لقد رأيتُ في السَّنةِ الماضيةِ، هناك، طائرَيْن صغيرَيْن ما إنْ سمعا صريفَ تلك المناجل على مربَّعات البلاط الرَّماديَّة الخشنة حتَّى اندفعا يطيران من السِّياجِ إلى ميزاب الدَّير، ومن الميزاب إلى السِّياج من جديد، وهما يهزَّان رأسَيْهما الصَّغيرَتَيْن، وينظران ازوراراً، كما لو كانا يتساءلان، وقد مُلئا حزناً وقلَقاً، عمَّا يفعله أولئك الرِّجال هناك.

- ألا تريان، أيُّها الطَّائران؟- قلتُ لهما.- ألا تريان ماذا يفعلون؟ إنَّهم يشذِّبون لحيةَ هذا البلاط القديم.

ثمَّ فرَّا بعيداً مذعورَيْن ذانكَ الطَّائران.

كم أغبطهما، لأنَّ لهما جناحَيْن، ويستطيعان الهرب! كم ثمَّة غيرهما حيواناتٌ لا تستطيع ذلك، وقد اقتيدتْ وأُسِرَتْ ودُجِّنَتْ في المُدُن كما في الأرياف؛ ولكَم هو مُحزنٌ إذعانُها القسريُّ لاحتياجات البشر العجيبة! لكنْ، ماذا تعي هي من ذلك؟ إنَّها تجرُّ العربات، تجرُّ المحاريث.

لكنْ، ربمَّا كانت هذه البهائم أيضاً، وهذه النَّباتات وكلُّ الأشياء

الأخرى، تمتلك في حدِّ ذاتها معنىً وقيمةً، معنىً وقيمةً لا يمكن للإنسان أن يفهمهما، هذا المنغلقُ كَحالِهِ دوماً على ما يُسبغهُ لِمصلحته هو على هذه الكائنات وتلك مِن قيمةٍ ومعنى يبدو، غالباً، أنَّ الطَّبيعةَ نفسَها من جانبها لا تُقِرُّ بهما، وتجهلهما.

يلزمُ بعضُ التَّفاهم بين الإنسان والطَّبيعة. كثيراً ما تجدُ الطَّبيعةُ متعتَها في أن تطوِّحَ بجميعِ إنشاءاتنا البارعة. زوابعُ، زلازل... ولكنَّ الإنسان لا يستسلم. يعيدُ البناءَ مرَّةً بعدَ مرَّة، هذا الوحش الضَّئيل العنيد. وكلُّ شيءٍ في نظره إنَّما هو مادَّةٌ لإعادةِ البناء. ذلك أنَّه يملك في داخله ذلك الشَّيءَ الذي لا يعرفُ أحدٌ كُنهَه، والذي يدفعه كُرْهاً إلى أن يبني، إلى أن يحوِّلَ على هواه الموادَّ التي تَهَبُها له الطَّبيعةُ الغافلةُ ربمَّا، ولكنْ، المتصبِّرة، على الأقلِّ، متى شاءت. ولكنْ، أتُرانا لا نَقنَعُ سوى بالأشياء التي، إلى أن يثبتَ العكسُ، لا نعرفُ إن كانت تمتلك في ذاتِها مَلَكَةَ الشُّعورِ بالآلامِ النَّاجمةِ عن تحويراتنا وإنشاءاتنا؟! لا، يا سيِّدي. إنَّ الإنسان يتَّخذُ حتَّى نفْسَه مادَّةً، وهو يُشيِّدُ نفْسَه، نعم، يا سيِّدي، يشيِّدُ نفسَه كما لو كان يُشيِّد بيتاً.

أحسبتَ أن تعرفَ نفسَكَ لو أنَّكَ لم تشيِّدها بطريقةٍ أو بأخرى؟ أو حسبتَ أن أعرِفكَ، لو أنَّني لم أشيِّدكَ على هواي؟ وأنتَ، أكنتَ لِتَعرِفني لو أنَّكَ لم تشيِّدني على هواك؟ إنَّما يمكننا أن نعرِفَ ذلك الذي نتمكَّن من مَنْحِهِ شكلاً فحسب. لكنْ، أيُّ نوعٍ من المعرفة يُحتَمَلُ أن تكون؟ هل هذا الشَّكل هو الشَّيءُ نفسُه، يا تُرَى؟ نعم، هو كذلك بالنِّسبة إليَّ، بقدْرِ ما هو كذلك بالنِّسبة إليكَ؛ ولكنَّه ليس بالنِّسبة إليَّ كما هو بالنِّسبة إليكَ: ذلك صحيحٌ لدرجةِ أنَّني لا أعرف نفسي في الشَّكل الذي أعطيتَه

أنتَ لي، ولا أنتَ تعرف نفسَكَ في الشَّكل الذي أعطيتُه أنا لكَ؛ فالشَّيءُ نفسُه ليس نفسَ الشَّيء بالنِّسبة إلى الجميع كما أنَّه يمكن أيضاً أن يتغيَّر باستمرارٍ بالنِّسبة إلى كلِّ واحدٍ منَّا، وفي واقع الأمر إنَّه يتغيَّر باستمرار.

ومع ذلك، ليس ثمَّة حقيقةٌ أخرى خارجَ هذه، أي خارجَ الحقيقةِ المتمثِّلةِ في الشَّكلِ العابرِ الذي نتمكَّن من مَنْحِه لأنفسِنا، وللآخرين، وللأشياء. الحقيقة التي أملكها أنا بالنِّسبة إليكَ تتمثَّلُ في الشَّكل الذي تمنحُهُ أنتَ لي؛ ولكنَّها حقيقةٌ بالنِّسبة إليكَ لا بالنِّسبة إليَّ؛ والحقيقة التي تملكها أنتَ بالنِّسبة إليَّ تتمثَّلُ في الشَّكل الذي أمنحُهُ أنا لكَ؛ ولكنَّها حقيقةٌ بالنِّسبة إليَّ لا بالنِّسبة إليكَ؛ وبالنِّسبة إليَّ أنا نفسي فإنَّني لا أملك حقيقةً أخرى خارجَ تلك التي أتمكَّن من مَنْحِها لِنفسي. كيف؟ بتشييدِ نفسي طبعاً، هوَ ذا.

آه، أحسبتَ أنَّ البيوتَ وحدَها يمكن أن تُشَيَّد؟ إنَّني أشيِّدُ نفسي دونما انقطاعٍ وأشيِّدُكَ، وأنت تفعلُ الشَّيءَ نفسَه. والتَّشييدُ يستمرُّ طالما لم تتهشَّم عِدَّةُ لوازمِ مشاعرنا، وطالما استدامَ إسمنتُ إرادتنا. ثمَّ لماذا تحسبُ أنَّ ثباتَ الإرادة ورسوخَ المشاعر منوطٌ بكَ؟ يكفي أن تهتزَّ تلك قليلاً، وأن تتبدَّلَ هذه مقدارَ نقطةٍ أو تتحوَّلَ مقدارَ شَعرة، حتَّى نقولَ وداعاً لحقيقتِنا! إذَّاكَ نُدرك في الحال أنَّها لم تكن سوى أوهامنا.

ثباتُ الإرادةِ، إذاً. رسوخٌ في المشاعر. تمالكْ قواكَ، تمالكْ قواكَ لئلَّا تتهاوى تلك الإرادة وهذه المشاعر، لئلَّا تصطدمَ بتلك المفاجآت الجاحدة.

لكنْ، يا لِلعِمارات البديعةِ التي تنبثق!

-XII-

ذلك الجينجيه الأثير

- لا، لا، يا عزيزي، ابقَ صامتاً! أتخالني لا أعرفُ ما تحبُّ وما لا تحبُّ؟ أنا أعلم ذوقكَ جيِّداً، وأعلمُ كيف تفكِّر.

كم يوماً مرَّ من دون أن تخاطبني ديدا زوجتي بمثل هذا الكلام؟ فيما أنا، الأحمق، لم ألتفتْ إلى ذلك أبداً.

ولكنْ، أشكُّ أنَّها تعرف فتاها جينجيه ذاك أكثر ممَّا لا أعرفه أنا! لقد شيَّدَتْه هي! ولم يكن محضَ دُميةٍ قَطُّ. إذا كان لا بدَّ مِن دُميةٍ، فتلك الدُّمية كُنتُها أنا.

قَمْعٌ؟ استبدال؟

أيُّ كلامٍ هذا!

لكي تقمعوا أحداً، ينبغي أن يكون هذا الأحدُ موجوداً؛ ولكي تستبدلوه، ينبغي أن يكون موجوداً أيضاً، وأن تمسكوه من كتفَيْهِ، وتدفعوا به إلى الوراء لكي تضعوا أحداً آخرَ مكانه.

ديدا، زوجتي، لا هي قمعَتْني، ولا هي استبدلَتْني. ولربَّما بدا لها الأمرُ خِلافاً لذلك قمعاً واستبدالاً، لو أنَّني، شاقَّاً عصا الطَّاعة ومتسلِّحاً مع ذلك بإرادتي في أن أكون كما أشاء، أزحتُ فتاها جينجيه ذاك عن كاهلي.

ذلك أنَّ فتاها جينجيه كان موجوداً، فيما لم أكن أنا في نظرها موجوداً على الإطلاق؛ لم أوجَدْ قَطُّ.

كانت حقيقتي بالنِّسبة إليها تتمثَّلُ في ذلك الفتى جينجيه الذي شكَّلَتْهُ هي، الذي كان يملك أفكاراً ومشاعرَ وأذواقاً لم أكن أملكها، والذي لم أكن قادراً بأيَّةِ حالٍ من الأحوال على تغييره، دون التَّعرُّض لخطرِ أنْ أصبحَ في الحال شخصاً آخرَ، لن تتعرَّف هي بعد ذلك بهِ، شخصاً غريباً لن تستطيعَ بعد ذلك أن تفهمَه ولا أن تحبَّه.

للأسف لم أعرف يوماً كيف أعطي شكلاً ما لحياتي؛ لم أكن يوماً حازماً في رغبتي في أن أشكِّلَ نفسي بطريقتي الخاصَّة والمستقلَّة، إمَّا لأنَّني لم أواجه يوماً عقباتٍ يمكن أن تحرِّكَ فيَّ إرادةَ المجابهة وإثباتَ إرادتي أمامَ الآخرين وأمامَ نفسي، وإمَّا لطبيعةِ نفسي المستعدَّة لأن تفكِّرَ وتشعرَ حتَّى بعكسِ ما كانت قبلَ هُنيهةٍ تفكِّرُ وتشعرُ به، أيْ لأن تُشوِّشَ وتُشتِّتَ فيَّ عبرَ أفكارٍ دائبةٍ ومُضادَّةٍ غالباً كلَّ محاولةِ تكوينٍ فكريٍّ وشُعوريٍّ؛ وإمَّا أخيراً لسجيَّتي الميَّالةِ إلى الخضوع، إلى الاستسلامِ لحنكةِ الآخرين، لا لضعفٍ، بقدرِ ما هو لقلَّةِ اكتراثٍ ولرضوخي المتعجِّلِ للغُمَّات التي قد تحلُّ بي.

وهي ذي، في تلك الأثناء، إحداها تحلُّ بي! لم أعرف نفسي على الإطلاق، لم يكن لديَّ أيُّ تصوُّرٍ خاصٍّ عن حقيقةِ نفسي، كنتُ في حالةٍ من الوهمِ المتواصلِ، أكادُ أكون مُنساباً، مرناً. الآخرون عرفوني، كلٌّ على طريقته، وفقاً للحقيقةِ التي أسبغوها عليَّ؛ أعني أنَّ كلَّ واحدٍ منهم رأى فيَّ واحداً من الموسكارداتِ(*) الذين لم أكُنْهم أنا الذي لم أكن أحداً في نظرِ نفسي؛ موسكارداتٍ بعددِ هؤلاء الأشخاص أنفسِهم، وكلُّهم حقيقيُّون

(*) جمع «موسكاردا»، اسم المتكلِّم؛ (م).

أكثر منِّي أنا الذي لم يكن لديَّ، أكرِّرُ، أيُّ تصوُّرٍ عن حقيقةِ نفسي.

جينجيه، بلى، هو ما كُنتُه، بالنِّسبة إلى زوجتي ديدا. بيدَ أنَّني لم أكن قادراً بأيِّ شكلٍ من الأشكال على تعزيةِ نفسي به، لأنَّني أؤكِّدُ لكم أنَّه من الصُّعوبة بمكانٍ تصوُّر مخلوقٍ أكثر حماقةً من هذا الفتى جينجيه الأثير عندَ زوجتي ديدا.

وأفضلُ جزءٍ، في الوقت نفسِه، كان هذا: أنَّه لم يكن خالياً تماماً من العيوب في نظرِها فتاها جينجيه ذاك. ولكنَّها كانت تتعاطف معها جميعاً! أشياءُ كثيرةٌ فيه لم تكن تروق لها، لأنَّه لم يكن مُشيَّداً بالكامل على طريقتها، وفقاً لذوقِها وهواها: لا.

ولكنْ، على طريقةِ مَنْ إذاً؟

بالتَّأكيد ليس على طريقتي، لأنَّني، أكرِّرُ، لم أكن أُفلحُ في تمييز أفكاري، ومشاعري، وأذواقي من خلال الأفكار والمشاعر والأذواق التي كانت تنسِبُها هي إلى جينجيه خاصَّتِها. وهكذا نرى بوضوحٍ أنَّها كانت تنسِبُها إليه لأنَّ جينجيه، في رأيها، كان يملك تلك الأذواق ويفكِّرُ ويشعرُ بهذه الطَّريقة، بطريقته هوَ، لا حاجةَ إلى القول، بطريقته الخاصَّة هوَ، وفقاً لحقيقتِهِ التي لم تكن على الإطلاق حقيقتي أنا.

كنتُ أراها في بعض الأحيان تبكي لِمَراراتٍ معيَّنةٍ، سبَّبَها هو، جينجيه، لها. هو، أجل أيُّها السَّادة! وحين كنتُ أسألُها:

- ولكنْ، علامَ، يا حبيبتي؟

كانت تجيبُني:

- آه، أوَتسألُني؟ آه، ألا يكفيكَ ما قلتَه لي للتَّوِّ؟

- أنا؟

- أنتَ، أنتَ، بلى!

- ولكنْ، متى؟ ما الذي قلتُه؟

فكنتُ أتحيَّرُ في أمري.

كان واضحاً أنَّ المعنى الذي كنتُ أعطيهِ لكلماتي كان معنىً بالنِّسبة إليَّ؛ وأمَّا ذاك الذي كانت ترفعُهُ تلك الكلماتُ إليها، كلماتُ جينجيه، فكان شيئاً مُغايراً تماماً. بعض الكلمات، أنطقتُ بها أنا أم أحدٌ آخر، ما كانت لِتبعثَ الحزنَ في نفسِها، ولكنْ، ما إن ينطق بها جينجيه، حتَّى تدفعَها إلى البكاء، لأنَّها بين شَفَتَي جينجيه لا أحد يعلم أيَّ مدلولٍ آخر تحمل؛ وكانت تدفعُها إلى البكاء، أجل، يا سيِّدي.

لقد كنتُ إذاً أتحدَّثُ إلى نفسي وحسب. أمَّا هي، فكانت تتحدَّث إلى جينجيه خاصَّتِها. وكان هذا يُجيبُها عِبْرَ فمي بطريقةٍ بقيتْ مجهولةً كُلِّيّاً لي. وليس معقولاً كيف كانت تصيرُ سخيفةً، كاذبةً، وبلا طائلٍ كلُّ تلك الأشياء التي كنتُ أقولُها لها والتي كانت هي تردِّدُها لي.

- ولكنْ، كيف؟- كنتُ أسألُها.- أنا قلتُ هذا؟

- نعم، يا حبيبي جينجيه، هذا ما قلتَه بالضَّبط!

هوَ ذا: لقد كانت تُرَّهاتِ جينجيه تلك التُّرَّهاتُ؛ ولكنَّها لم تكن تُرَّهاتٍ: كانت شيئاً مُغايراً تماماً! كانت طريقةَ جينجيه في التَّفكير، هذا ما كانتْه.

وأنا، آه، كيف كنتُ سأصفعه، وأوسِعه ضرباً، وأقطِّعه إرباً أرباً! بيدَ أنَّني لم أكن قادراً على لمسِه. لأنَّه، على الرَّغم من الكَدَر الذي كان يسبِّبه لها، ومن الهراءات التي كان ينطق بها، كان جينجيه محبوباً جدَّاً من قِبَلِ زوجتي ديدا؛ ينسجم في نظرها، مثلما كان حقَّاً، مع الصُّورة المثاليَّة للزَّوج الجيِّد، هذا الذي بعضُ عيوبه الطَّفيفة تُغفَرُ بفضل الكثير من السَّجايا الطَّيِّبة الأخرى.

إذا كنتُ غير راغبٍ في أن تذهب زوجتي ديدا للبحث عن تلك الصُّورة المثاليَّة عندَ رجلٍ آخر، فإنَّه كان لِزاماً عليَّ ألَّا ألمسَ حبيبَها جينجيه ذاك.

في البداية ظننتُ أنَّه ربمَّا كانت مشاعري بالغةَ التَّعقيد؛ وأفكاري، مبهمةً للغاية؛ وأذواقي، جدُّ خارجةً عن المألوف؛ وأنَّ زوجتي بالتَّالي، في كثيرٍ من الأحيان، إذْ لم تكن تفهمُها، فإنَّها كانت تُسيء تفسيرَها. حاصلُ القول، ظننتُ أنَّ أفكاري ومشاعري لا يُمكن أن تُفهَم إذا هي لم تُختزَل وتُصَغَّر في دماغِ وقلبِ زوجتي الصَّغيرَيْن؛ وأنَّ أذواقي لا يمكن أن تنسجمَ مع بساطتِها.

ولكنْ، أيُّ كلامٍ هذا! أيُّ كلام! هي لم تكن تُسيء تفسيرَها، لم تكن تختزلُ أفكاري ومشاعري تلك. لا، لا. ولكنَّها إذْ كانت تصل إليها هكذا مُحرَّفةً، وهكذا ممسوخةً من فمِ جينجيه، كانت زوجتي ديدا تخالُها حماقات؛ هي أيضاً، هل فهمتُموني؟

فَمَنْ إذاً كان يحرِّفُها ويمسخُها؟ إنَّها حقيقةُ جينجيه، أيُّها السَّادة! فجينجيه، ذلك الذي شكَّلَتْه هي، لم يكن قادراً على امتلاك سوى تلك الأفكار، وتلك المشاعر، وتلك الأذواق. ذلك الأحمق، ولكنْ، اللطيف. آه

بلى، الفائق اللطف في نظرها! أحبَّتْهُ كما هو: لطيفٌ أحمق. وقد أحبَّتْه حقّاً.

يمكنني الإتيانُ بالعديد من الأدلَّة. حسبي هذا: وهو أوَّل ما يتبادرُ إلى ذهني.

حين كانت فتاةً، كانت ديدا تُسرِّحُ شعرَها بطريقةٍ لم تكن تروق لها وحدَها فحسب، بل ولي أيضاً، إلى درجةٍ كبيرة. ما إن تزوَّجَتْ، حتَّى غيَّرتْ تسريحتَها. ولكي أتركها تفعل ما يحلو لها، لم أقل لها إنَّ هذه التَّسريحة الجديدة لم تعجبني البتَّة. إلى أن، في صبيحةِ أحد الأيَّام، خرجتْ عليَّ فجأةً، في مئزرِ الحمَّام، والمشط ما يزال في يدِها، مُسرِّحةً شعرَها على الطَّريقة القديمة، وقد أشرق وجهُها بأكمله.

- جينجيه!- نادَتْني، فاتحةً البابَ على مصراعيه، لِتُطِلَّ منه غارقةً في ضحكتها.

لبثتُ في مكاني مشدوهاً، شِبهَ مبهورٍ.

- أوه،- هتفتُ،- وأخيراً!

ولكنَّها على الفور غرزَتْ يَدَيْها في شعرِها، نزعَتْ دبابيس الشَّعر، وحلَّتْ في لحظةٍ واحدةٍ تصفيفتَها.

- كُفَّ عن هذا!- قالت لي.- أردتُ أن أصنعَ لكَ ذلك على سبيل المزاح. أعلمُ جيِّداً، يا سيِّدي، أنَّني لا أروق لكَ في تصفيفةِ الشَّعر هذه!

اعترضتُ، مِن فوري:

- ولكنْ، مَنْ قال لكَ ذلك، يا حبيبتي ديدا؟ أقسمُ لكِ، بالعكس، أنَّ...

أطبقتْ على فمي بيدِها.-

- كُفَّ عن هذا!- كرَّرَتِ القولَ.- إنَّكَ تقول لي ذلك لتُطيِّبَ خاطري. ولكنَّني لا أحتاج إلى تطييب خاطري، يا عزيزي. أتخالُني لا أعرف كيف أروقُ أكثر لحبيبي جينجيه؟

ونفرَتْ من أمام وجهي.

أفهمْتُم؟ كانت واثقةً تمام الثِّقة من أنَّها تروق لحبيبها جينجيه أكثر في تلك التَّصفيفةِ الأخرى، فكانت تُصفِّف شعرَها بتلك الطَّريقة الأخرى التي لم تكن تروق لا لها ولا لي. ولكنَّها كانت تروق لحبيبها جينجيه؛ وكانت هي تضحِّي لأجل ذلك. أتبدو لكَ زهيدةً تلك التَّضحيات؟ أوَليستْ تضحياتٍ حقيقيَّةً وفرديَّةً، هذه التَّضحياتُ، بالنِّسبةِ إلى امرأة؟

لَشَدَّ ما أحبَّتْهُ!

أمَّا أنا - وقد باتَ كلُّ شيءٍ في النِّهاية واضحاً لي - فقد بدأتُ أصبح غيوراً بشكلٍ رهيب - لا مِن نفسي، أرجوكم صدِّقوني: ها أنتم ترغبون في الضَّحك!- لا مِن نفسي، أيُّها السَّادة، ولكنْ، مِن شخصٍ لم أكُنْهُ أنا، مِن ذلك الأحمق الذي اندسَّ بيني وبين زوجتي؛ لا مثلَ ظلٍّ فارغٍ، لا،- أرجوكم صدِّقوني - ذلك أنَّ الأمر هو على عكس ذلك تماماً، فهو مَنْ صيَّرَني ظلاًّ فارغاً، صيَّرَني أنا، أنا نفسي، ظلاًّ فارغاً، إذ استولى على جسدي لكي تحبَّهُ هي من خلالِه.

تأمَّلوا جيِّداً. ألم يكن يقبِّلُ زوجتي، على شَفَتَيَّ، واحدٌ لم أكُنْهُ أنا؟

شَفَتَيَّ أنا؟ لا! أنىَّ تكونان لي؟! إلى أيِّ حدٍّ كانتا لي، على وجهِ التَّحديدِ لي الشَّفتان اللتان كانت تُقبِّلهما؟ أتُراها امتلكتْ بين ذراعَيْها جسدي أنا؟ ولكنْ، إلى أيِّ حدٍّ يُمكنُ حقّاً أن يكون جسدي، ذلك الجسدُ، إلى أيِّ حدٍّ يعودُ حقّاً إليَّ، إذا لم أكن أنا ذلك الذي كانت تعانقه هي وتحبُّه؟

تأمَّلوا جيِّداً. ألن يشعر واحدُكم بأنَّه مُخانٌ من قِبل زوجته بأكثر أشكال الخيانةِ تهذيباً، إذا استطاع أن يدرك أنَّها، فيما تضمُّه بين ذراعَيْها، إنَّما تتذوَّق وتلتذُّ من خلال جسده بجِماعِ شخصٍ آخرَ مُستترٍ في عقلها وقلبها؟

فإذاً، بأيِّ شيءٍ كانت مختلفةً عن حالتي هذه الحالة؟ بل إنَّ حالتي كانت أسوأ! لأنَّه، في خضمِّ ذلك، فإنَّ زوجته - معذرةً - تتصوَّرُ وهي في أحضانه فحسب أنَّها في أحضان أحدٍ آخرَ؛ بينما، في حالتي أنا، فإنَّ زوجتي تضمُّ بين ذراعَيْها حقيقةَ واحدٍ آخرَ، لم أكُنْهُ أنا!

ولقد كان مُنتهى الحقيقةِ هذا الواحدُ الآخَر، حدَّ أنَّه عندما أردتُ في نهاية المطاف، ساخطاً، تدميرَه لكي أفرضَ بدلاً من حقيقتِهِ حقيقتي، كانت زوجتي، التي لم تكن يوماً زوجتي، بل زوجته هو، تُلفي نفسَها على الفورِ، وقد أخذ منها الفزعُ كلَّ مأخذ، كما لو كانت في أحضان شخصٍ غريب، شخصٍ مجهول؛ فتعلنُ أنَّها لم تعد قادرةً على حبِّي، ولم تعد قادرةً على العيش معي ولا حتَّى دقيقةً واحدة وتنفرُ من أمامِ وجهي.

أجل، أيُّها السَّادة، كما ترون، لقد نفرَتْ من أمامِ وجهي.

الكتاب الثَّالث

-I-
جنونٌ قسريٌّ

ولكنْ، أريدُ أن أخبركم أوَّلاً، بإيجازٍ على الأقلّ، عن الحماقات التي بدأتُ أقترفها بغيةَ اكتشافِ كلِّ أولئك الموسكاردات الآخرين الذين كانوا يعيشون داخلَ معارفي الأكثر قرباً إليَّ، وتدميرِهم واحداً تِلْوَ الآخَر.

حماقاتٌ بالإكراه. ذلك أنَّه، وبالنَّظر إلى أنَّني لم أكن قد فكَّرتُ بتَّةً حتَّى تلك اللحظة في أن أشيِّدَ لنفسي موسكارداً(*) يتكوَّن أمامَ عينَيَّ، وكما يحلو لي في شكلٍ وجوديٍّ، يبدو لي قابلاً للتَّمييز من جهةِ أنَّه متفرِّدٌ وخاصٌّ بي، فقد كان من المفهومِ أنَّه لم يكن بإمكاني التَّصرُّفُ بشيءٍ من الاتِّساق المنطقي. كان عليَّ من وقتٍ إلى آخر أن أُظهِرَ عكسَ ما كنتُه أو ما كنتُ أفترضُ أنَّني كنتُه في دخيلةِ هذا وذاك من معارفي، بعدما أُكْرِهْتُ على إدارك حقيقةِ الصُّورة التي أسبغوها عليَّ: صورةٍ بائسةٍ، جَبريَّةٍ، عابرةٍ، مُتقلِّبةٍ وتكاد تكون مائعةً.

هاكَ إذاً: كان عليَّ أن أمتلك مظهراً معيَّناً، ودلالةً معيَّنةً، وقيمةً معيَّنةً في نظر الآخرين، ليس من خلال القسمات الخارجة عن نطاق رؤيتي وتقديري فحسب، ولكنْ أيضاً من خلال الكثير من الأشياء التي حتَّى تلك اللحظة لم تكن قد خطرتْ ببالي قَط.

التَّفكيرُ في ذلك والشُّعورُ باندلاعِ تمرُّدٍ وحشيٍّ كانا شيئاً واحداً.

---

*) نوَّنَّاها عمداً، لنمنحَها صيغة النَّكرة المفرد بدلاً من اسم العلم، ولتتناسب مِن ثَمَّ مع ما جاء في الأصل؛ (م).

-II-
اكتشافات

أمَّا الاسمُ، فإنَّه: قبيحٌ حدَّ الفظاعة. موسكاردا. الذُّبابة(*) ، ونَكَدُ أزيزِها الصَّخِب المزعج.

لم تمتلك روحي أبداً اسماً خاصّاً بها، ولا هي امتلكَتْ وضعاً اجتماعيّاً: عالَمُها بأسْرِه كان طيَّ الباطنِ؛ ولم أكن أدمغُ في كلِّ مرَّةٍ باسمي ذاك، اسمي الذي لم أكن أفكِّر فيهِ على الإطلاق، كلَّ الأشياء التي كنتُ أراها داخلي ومِن حولي. حسناً، ولكنْ بالنِّسبة إلى الآخرين لم أكن ذلك العالَمَ الذي كنتُ أحمله في داخلي، ذلك العالَم الذي لا اسم له، الكامل، واللامجزَّأ، والمتعدِّد الأشكال أيضاً. لقد كنتُ بدلاً من ذلك، في الخارج، في عالَمهم هم، واحداً - منفصلاً - يُدعَى موسكاردا، صورةً مصغَّرَةً ومحدَّدةً لحقيقةٍ ليست حقيقتي، مُحتواةً خارجَ كينونتي داخلَ حقيقةٍ من تصوُّرِ الآخرين، تُدعَى موسكاردا.

تحدَّثتُ إلى صديقٍ: لا شيء غريب: كان يردُّ عليَّ؛ رأيتُ حركاته وإيماءاته في أثناء الكلام؛ كان له صوتُه المعتاد، وتبيَّنتُ إيماءاتِه المعتادةَ؛ هو أيضاً، واقفاً يستمعُ إليَّ فيما أتحدَّث إليه، تبيَّن صوتي وإيماءاتي. لا شيء غريب، أجل، ولكنْ، في حالةٍ واحدة، ما لَم أفكِّر في أنَّ النَّبرة التي يمتلكها بالنِّسبة إليَّ صوتُ صديقي لم تكن أصلاً نفسَ نبرةِ الصَّوتِ التي

---

*) الذُّبابة بالإيطاليَّة «موسكا»؛ (م).

كان يعرفها هوَ، لأنَّه من الممكن أن يكون غير عارفٍ حتَّى بنبرةِ صوتِه، ظانّاً أنَّ ذلك الصَّوت إنَّما هو صوتُه هوَ؛ وما لَم أفكِّر أيضاً في أنَّ صورتَه لم تكن سوى تلك التي أراها أنا، أيْ تلك التي أمنحُها له أنا، ناظراً إليه من الخارج، فيما هوَ، خائضاً في الحديث، لم يكن يملك في ذهنِه، بالتَّأكيد، أيَّ صورةٍ عن نفسِه، ولا حتَّى تلك التي يتلقَّاها ويتبيَّنها حين ينظر في المرآة.

أوه، يا إلهي، وما الذي كان يحدث لي آنذاك؟ أكان يحدث نفسُ الشَّيء لصوتي؟ لصورتي؟ أنا لم أعدْ تلك الأنا اللامُتمايزة التي كانت تتحدَّث وتنظر إلى الآخرين، بل صرتُ، بدلاً من ذلك، ذلك الذي كان ينظر إليه الآخرون، خارجَ أنفسِهم، والذي امتلك نبرةَ صوتٍ وصورةً، لم أكن أعرفهما فيَّ. كنتُ بالنِّسبة إلى صديقي ما كانَهُ هو بالنِّسبة إليَّ: ذلك الجسدَ الحصينَ الماثلَ أمامَه، والذي كان يتصوَّرُه هوَ بملامحَ معهودةٍ جيِّداً لديه، فيما لم تكن تلك الملامح نفسها تعني شيئاً لي؛ وهذا صحيحٌ لدرجةِ أنَّني لم أكن أفكِّرُ فيها أدنى تفكيرٍ، كما لم أكن، في أثناء الحديث، قادراً على رؤيتها فيَّ، ولا على إدراك كيف تبدو؛ بينما بالنِّسبة إليه كانت كلَّ شيءٍ، كونَها كانت تمثِّلُ لهُ ما كنتُهُ أنا في نظرِه، واحداً مِن بين كثيرٍ مِن: الموسكارادات. أيمكن ذلك؟ موسكارداً كانَ كلُّ ما كانَ يقولُه هذا ويفعلُه في ذلك العالَم المجهولِ في نظري؛ موسكارداً كذلك كانَ ظلِّي؛ موسكارداً إذا رأوه يأكل؛ موسكارداً إذا رأوه يدخِّن؛ موسكارداً إذا خرج سيراً على الأقدام؛ موسكارداً إذا تمخَّطَ.

لم أدرِك ذلك، لم أفكِّر في ذلك، ولكنْ، في صورتي، أقصد في تلك التي منحَها أولئك لي، في كلِّ كلمةٍ من كلماتي التي كانت ترسلُ لهم لحناً عِبْرَ صوتٍ لم أكن قادراً على تعرُّفِه، في كلِّ فِعلٍ مِن فِعالي التي

كانوا يُفسِّرونها، كلٌّ على طريقته، دائماً كان اسمي وجسدي مُضمرَيْن بالنِّسبة إلى الآخرين.

ذلك عدا عن أنَّني بدوتُ، آنذاك، لنفسي غبيّاً وبغيضاً لِكَوني وُسِمْتُ بهذا الاسم إلى الأبد، ولأنَّني لم أكن قادراً على إعطائي اسماً آخرَ، بل ما شئتُ من أسماءٍ لا نهاية لها، يمكن أن تتلاءمَ من وقتٍ إلى آخر مع المواقف المختلفة لمشاعري وتصرُّفاتي؛ كذلك آنذاك، أكرِّرُ، إذْ كنتُ مُعتاداً على حملِه منذ ولادتي، كان من الممكن لي ألَّا أُوليه كثيراً من الاهتمام، وأن أفكِّرَ في أنَّني لم أكن في النِّهايةِ ذلك الاسمَ؛ في أنَّ ذلك الاسمَ كان طريقةَ الآخرين في مناداتي، ومع أنَّه لم يكن جميلاً، فإنَّه كان من الممكن أيضاً أن يكون أشدَّ قبحاً. ألم يكن ثمَّة رجلٌ ساردينيٌّ في ريكْييري يُدعى بوركو(*)؟ بلى.

- سيِّد بوركو...

ولم يكن يجيبُ بالنَّخْرِ على أيَّةِ حال.

- هأنذا، تحت خدمتِكَ...

نظيفاً نظيفاً ومبتسماً كان يُجيب. لدرجةِ أنَّ المرء كان يخجلُ بعضَ الشَّيء لكونه مرغَماً على مناداتِهِ بذلك الاسم.

لذلك فلنُنَحِّ مسألةَ الاسمِ جانباً، وَلْنُنَحِّ كذلك مسألةَ الملامح، مع أنَّني كنتُ - وقد اتَّضحَتْ لي بقسوةٍ آنذاك وأنا أمامَ المرآة حتميَّةُ أنَّني غير قادرٍ على إعطائي صورةً عن نفسي تكون مختلفةً عن تلك التي أظهَرُ بها - أشعرُ بأنَّ هذه الملامح هي أيضاً كانت غريبةً عن إرادتي، وتُعارضُ

(*) الاسم الشَّائع للخنزير الدَّاجن بالإيطاليَّة؛ (م).

بشراسةٍ أيَّ اشتهاءٍ قد يُولَدُ في نفسي إلى امتلاكِ ملامحَ أخرى مُغايرةٍ لهذه، أيْ مُغايرةٍ لهذا الشَّعر، بِلَوْنِه هذا، لهاتَيْن العَينَيْن، المخضرَّتَيْن هكذا، ولهذا الأنفِ وهذا الفم؛ أقولُ، فلنُنَحِّ كذلك مسألةَ الملامح، لأنَّني في النِّهاية كنتُ مضطرّاً إلى الإعتراف بأنَّه كان من الممكن أيضاً أن تكون من الشَّناعةِ بمكان بينما عليَّ أنا أن أحتفظ بها وأرضخَ لها، إذا ما رغبتُ في أن أعيش حياتي؛ ولكنَّها لم تكن كذلك، وهكذا، بعدَ كلِّ شيءٍ، كان عليَّ أن أرضى بها كما هي.

لكنْ، ماذا عن ظروفي؟ أقصد ظروفي التي لا يعتمدُ أمرُها عليَّ؟ ظروفي التي كانوا يُقرِّرونها لي خارجَ كينونتي، خارجَ كلِّ رغبةٍ من رغباتي؟ ظروف ولادتي، وعائلتي؟ لم يسبق لي أن بَسَطْتُها يوماً أمامي، كيما أقيِّمها مثلما كان ممكناً للآخرين أن يقيِّموها، كلٌّ على طريقته، بطبيعةِ الحال، وبميزانِه الخاصِّ، بمثاقيلِ الحسدِ، أو الكراهيةِ، أو الازدراءِ، أو لا أعلمُ ماذا.

حتَّى تلك اللحظة كنتُ أحسبُ نفسي رجلاً على قيد الحياة. رجلاً، هكذا، ليس إلَّا. على قيد الحياة. وكأنَّني كُلِّيٌ مِن صُنعِ نفسي. ولكنْ، مثلما أنَّ ذلك الجسد لم يكن مِن صُنعي، ومثلما أنَّني لستُ مَنْ أطلقتُ ذلك الاسمَ على نفسي، وإلى الحياة قُذِفَ بي من قِبَلِ آخرين رغماً عن إرادتي؛ كذلك فإنَّه، رغماً عن إرادتي، كانت تحلُّ بي مِن فوقي وفي داخلي ومِن حولي الكثير من الأشياء الأخرى التي هي من صُنع آخرين؛ الكثير من الأشياء الأخرى التي صنعَها وأعطاها لي آخرون، والتي لم أكن في واقع الأمر قد فكَّرتُ فيها أبداً، وأبداً لم أمنحْها صورةً، تلك الصُّورةَ الغريبةَ، العدائيَّةَ، التي تهجمُ بها عليَّ الآن.

قصَّةُ عائلتي! قصَّةُ عائلتي في بلدتي هذه: لم أفكِّر في أمرها؛ ولكنَّها

كانت مكنونةً في داخلي، بالنِّسبة إلى الآخرين، هذه القصَّة؛ لقد كنتُ فرداً، آخرَ أفرادِ هذه العائلة؛ ولقد امتلكتُ في داخلي، في جسدي، دَمْغَتَها، ويعلم الله كم من عاداتِها في التَّصرُّف والتَّفكير، والتي لم يسبق أن تفكَّرتُ في أمرِها قطُّ، في حين أنَّ الآخرين كانوا يُميِّزونها بوضوحٍ فيَّ، في طريقتي في المشي، في الضَّحك، في إلقاء التَّحيَّة. كنتُ أحسبُ نفسي رجلاً على قيد الحياة، رجلاً عاديَّاً، يعيش إجمالاً في النَّهار حياةً متبطِّلةً كمثلِ هذه، حتَّى وإن امتلأتْ بأفكارٍ غريبةٍ شاردة؛ ولكنْ، لا، لا: كان من الممكن أن أكون رجلاً عاديَّاً بالنِّسبةِ إليَّ، أمَّا بالنِّسبة إلى الآخرين فلا؛ بالنِّسبةِ إلى الآخرين كنتُ أملكُ الكثيرَ من السِّمات الإجماليَّةِ التي لم أصنعْها، ولم أعطِها لنفسي، ولم أعبأ بها أبداً؛ وقدرتي تلك على أن أحسبَ نفسي رجلاً عاديَّاً، أعني بذلك بطالتي تلك نفسَها، التي كنتُ أحسبُها مُلكاً لي تماماً، لم تكن حتَّى هي في نظر الآخرين مُلكاً لي: كنتُ قد مُنِحتُها مِن أبي؛ كانت تعتمدُ على ثراء أبي؛ وكانت بطالةً وبيلةً، لأنَّ أبي...

آه، يا لِلاكتشاف! أبي... حياةُ أبي...

-III-
الجُذور

تراءى لي؛ طويلاً، بديناً، أصلعَ. وفي العينَيْنِ الصَّافيَتَيْن والزَّرقاوَيْن، كأنَّما قُدَّتا مِن زُجاجٍ، كانت تتلألأ لأجلي تلك الابتسامةُ المعهودة، بحنوِّها الغريب، الذي بعضهُ شفقةٌ، وبعضهُ ازدراء، ولكنَّها مع ذلك وَدودةٌ، كما لو أنَّه كان يروق له في النِّهاية أن أكون ذلك المخلوقَ الذي يستحقُّ نظرةَ ازدرائه تلك، ناظراً إليَّ ربمَّا على أنَّني نزوةٌ من نزواته الخيريَّة التي يُمكنه أن يُجيزَها لنفسِهِ دون أن يخشى العقاب.

ولكنَّ هذه الابتسامة، داخلَ اللحيةِ المتلبِّدة، البالغةِ الحُمرة والمتجذِّرةِ بقوَّةٍ، لدرجةِ أنَّها كانت تطمسُ لونَ وجنتَيْه، هذه الابتسامة تحت الشَّاربَيْن الهائلَيْن والمصفرَّيْن قليلاً في المنتصف، أصبحتْ فجأةً، آنذاك، ضرباً من ابتسامةٍ خبيثةٍ خرساءَ ومتجمِّدةٍ، مختبئةٍ هناك؛ ابتسامةٍ لم أتفطَّن لها قبل ذلك أبداً. أمَّا ذلك الحنوُّ عليَّ، العائمُ من قعرِ تلك الابتسامة الخبيثةِ الخبيئةِ إلى العينَيْن، والمتلألئُ فيهما، فأصبح يتراءى لي آنذاك ماكراً على نحوٍ مُريع: أشياءَ كثيرةً كشفَها لي على حين غرَّةٍ، لِتُمزِّقَ بالقشعريرةِ عموديَ الفقري. وهكذا أسرَتْني نظرةُ تينكَ العَينَيْنِ الزُّجاجيَّتَيْن، ألقتْ عليَّ سِحْرَها، لِتمنعَني من التَّفكير في هذه الأشياء التي منها أيضاً جُبِلَ ذلك الحنوُّ عليَّ، والتي كانت مع ذلك مروِّعة.

- ولكنْ، حتَّى وإن كنتَ وما تزالُ مغفَّلاً... نعم، حتَّى وإن كنتَ وما تزالُ

ساذجاً وصعلوكاً وطائشاً، تمضي وراءَ أفكاركَ، دون أن تُمسكَ أبداً بواحدةٍ منها، لكي تُمسِكَ عن ذلك المضيِّ؛ وحتَّى وإن لم يبرز لكَ أبداً هدفٌ، فتأخذ في الدَّوران مِن حوله، والتَّحديقِ فيه طويلاً إلى أن تغفوَ في النِّهاية، وفي اليوم التَّالي تفتحُ عينَيْكَ، تجدُه أمامَكَ، فلا تعرف كيف أمكنَ أن يبرزَ لكَ إذا كان ثمَّة بالأمسِ نَفْسُ هذا الهواء ونَفْسُ هذه الشَّمس؛ حتَّى وإن كان الأمرُ كذلك، انظرْ، فإنَّه ينبغي عليَّ، مُرغَماً، أن أحبَّكَ هكذا. يدايَ؟ إلامَ تُحدِّق فيَّ؟ آه، إلى هذا الشَّعر الأحمر هنا، حتَّى على ظهور الأصابع؟ إلى الخواتم... أهي كثيرةٌ جدَّاً؟ إلى الدُّبُّوس الكبيرِ الفاخرِ على ربطةِ عنقي، وأيضاً إلى سلسلةِ السَّاعة... الكثيرُ من الذَّهب؟ إلامَ تحدِّق فيَّ؟

باستغرابٍ ألفيتُ كآبتي تنصرفُ بعزمٍ عن تينك العَينَيْن، عن كلِّ ذلك الذَّهب، وتتركَّز على بعض الأوردةِ الرَّقيقةِ المزرقَّة التي كانت تتبدَّى متلوِّيةً بشقِّ الأنفس نحو الأعلى عِبرَ الجبين الشَّاحب، على الجمجمةِ البرَّاقةِ المحاطةِ بشَعرٍ أحمر، أحمرَ مثلَ شَعري - أعني، شَعري أحمرُ مثل شَعرِه - فكيف يكون هذا الشَّعرُ شَعري إذاً، إذا كان من الواضح تماماً أنَّه انتقلَ إليَّ منه؟ وهكذا، شيئاً فشيئاً، أخذت تلك الجمجمة البرَّاقة تتلاشى أمامي، كأنَّما ابتلعَها خواءُ الفضاء.

آهِ، أبي!

في الخواء، آنذاك، صمتٌ مبهوتٌ، مُثقَلٌ بكلِّ الأشياء الفاقدةِ الشَّكلِ والمعنى، التي تبقى في الخمولِ بكماءَ وموصدَةً أمامَ الرُّوح.

كانت لحظةً واحدة، ولكنَّها الأبد. شعرتُ في داخلي بكلِّ هَوْلِ المصائر العمياء، هَوْلِ الأشياء التي لا يمكن تغييرُها: الزَّمنُ بما هو سجنٌ؛ أنْ تُولَدَ

الآنَ، لا قبل ذلك ولا بعدَه؛ الاسم والجسد اللذان مُنِحا لنا؛ سلسلةُ الأسباب؛ البذرةُ المقذوفةُ من ذلك الرَّجُل: أبي، من دون قصدٍ؛ مجيئي إلى العالَمِ، من تلك البذرة؛ ثمرةُ ذلك الرَّجُل اللامقصودة؛ المعلَّقةُ بذلك الغصن؛ المنبلِجةُ من تلك الجذور.

-IV-

البذرة

رأيتُ أبي لأوَّلِ مرَّةٍ مثلما لم أرَهُ مِن قبل: مِن خارجٍ، في صميم حياتِه؛ ولكنْ، ليس كما كان في نظرِ نفسِه، ليس كما كان يشعرُ بنفسِهِ في قرارةِ نفسِه، وهو ما لم أكن قادراً على معرفتِه؛ وإنَّما كرجلٍ غريبٍ تماماً عنِّي، بالصُّورة الحقيقيَّةِ التي، مثلما بدا لي عليها ساعتئذٍ، كان يمكنني أن أفترض أنَّها الصُّورة التي أسبغَها عليه الآخرون.

هذا أمرٌ من الممكن أن يحدثَ لجميع الأبناء. أن نلاحظ كيف أنَّه حيث يكون ذلك الشَّيءُ القبيحُ الذي يذلُّنا، يكون الأبُ الذي نجزلُ لهُ التَّبجيل. أن نلاحظ، أقولُ، كيف أنَّ الآخرين لا يسبغون على هذا الأب، ولا يستطيعون أن يسبغوا عليه تلك الحقيقةَ نفسَها التي نسبغها عليه نحن. أن نكتشف كيف يحيا ويكون رجلاً خارجَ دائرةِ وجودِنا، قائماً بذاتِه، في علاقاته مع الآخرين، إذا ما نسي هؤلاء الآخرون للحظةٍ، في أثناء حديثهم معه أو دَفْعِهِ إلى الحديث، إلى الضَّحك، إلى النَّظَرِ، أنَّنا حاضرون، وهكذا يتركوننا نرى الرَّجُلَ الذي عرفوهُ هم فيهِ، الرَّجُلَ الذي يجسِّدُه هوَ في نظرِهم. رجلاً آخرَ. كيف؟ لا يمكن أن نعرف. فجأةً يصنعُ الأبُ إيماءةً، بيدِهِ أو بعينَيْه، فإذا بنا حاضرون. وإذا بتلك الإيماءة الصَّغيرة الخفيَّة تحفرُ في لحظةٍ واحدةٍ هاويةً في أعماقنا. وذلك الذي كان قريباً جدَّاً منَّا، هو ذا قد طفرَ بعيداً، وصارَ يُرى في البعيدِ مثلَ أيِّ غريب. ونشعرُ كما لو أنَّ حياتنا مُزِّقَتْ بأكملِها،

إلَّا في النُّقطةِ التي بقيتْ عندَها ملتصقةً بذلك الرَّجُل. وهذه النُّقطة هي النُّقطة المخزية. ولادتُنا المنسلِخةُ، والمجذوذةُ عنه، كحالةٍ عامَّةٍ، مُتوقَّعَةٍ ربمَّا، ولكنْ، غير اختياريَّةٍ في حياة ذلك الرَّجل، وسواءٌ أكانت محاولةَ حركةٍ أم ثمرةَ فِعلٍ، أم أيَّ شيءٍ آخرَ، إنَّما هي في خاتمة المطاف، بلى، هي ما يجعلنا الآن نشعرُ بالخزي، ويثيرُ فينا مشاعرَ الازدراء وما يشبه الكراهية. فإذا لم يكن بالضَّبط كراهيةً، فإنَّه ولا شكَّ ازدراءٌ حادٌّ ذلك الذي نلاحظه في عَينَي الأب اللتَيْن اصطدمتا في تلك اللحظة بعَينَيْنا. نحن في نظره، نحن المنتصبون هناك على ساقَيْن، بعيونٍ مُتيقِّظةٍ مُعادية، لسنا سوى ذلك الشَّيء الذي لم يكن، من مجرَّد التَّنفيسِ عن رغبةٍ أو لذَّةٍ لحظيَّةٍ، يتوقَّعه: نحن تلك البذرة المقذوفة التي لم يدرِ بها، المنتصبة الآن على ساقَيْن، مع عينَيْ حلزونٍ جاحظَتَيْن تنظران متحسِّسَتَيْن طريقهما، وترتئيان وتلجمانِه عن أن يكون بعد اليوم كما يشاء أن يكون، حُرَّاً، رجلاً آخرَ حتَّى بالنِّسبة إلينا.

-V-
ترجمةُ لَقَب

لم يسبقْ لي إلى الآن أن فَصَلْتُ أبي عنِّي إلى هذا الحدِّ. دائماً تخيَّلتُه، وتذكَّرتُه كأبٍ، ذاتِ الأب الذي كانَهُ لي. بعدَ فترةٍ وجيزةٍ حقَّاً من وفاة أمِّي، وكانت ما تزال في رَيعان شبابها، وُضِعْتُ في مدرسةٍ داخليَّةٍ بعيدةٍ عن ريكْيبري، ثمَّ في أخرى، ثمَّ في ثالثةٍ بقيتُ فيها حتَّى سنِّ الثَّامنة عشرة، وبعد ذلك ذهبتُ إلى الجامعة حيث قضيتُ ستَّ سنواتٍ متنقِّلاً من نظامٍ دراسيٍّ إلى آخر، دون اجتناءِ طائلٍ عمليٍّ واحدٍ مِن أيٍّ منها؛ السَّببُ الذي لأجله استُدعيتُ في نهايةِ المطاف إلى ريكْيبري، وعلى الفور، ولا أعرف إن كان ذلك لثوابٍ أو لِعقابٍ، زُوِّجْت. بعد عامَيْن توفيِّ أبي دون أن يتركَ لي منه، من عطفِهِ، ذكرى أخرى أكثر توقُّداً مِن ذكرى ابتسامته الحانية تلك، والتي كان - كما قلتُ - بعضُها شفقةً، وبعضُها استهزاء.

لكنْ، ماذا عمَّا كانَهُ في حدِّ ذاتِه؟ لقد ماتَ أبي، ماتَ كلِّيَّاً. ماتَ بكلِّ ما كانَهُ في نظر الآخرين... وبالقليلِ الذي كانَهُ في نظري! ولقد أتتْهُ هي أيضاً من الآخرين، بلا شكٍّ، من الحقيقةِ التي كان يسبغها عليه الآخرون، وكان يرتاب فيها، ابتسامتُه تلك المرسومةُ لأجلي... الابتسامةُ التي فهمتُها في تلك اللحظة، وفهمتُ مأتاها، بصورةٍ مرعبة.

- ماذا يعملُ والدُكَ؟- سؤالٌ سألني إيَّاه مرَّاتٍ عديدةً زملائي في المدرسة الدَّاخليَّة.

وكنتُ أجيب:

- مصرفيّاً.

ذلك أنَّ أبي، في نظري، كان مصرفيّاً.

إذا كان والدكم سيَّافاً(*)، كيف كان سيُترجَمُ في عائلتكم هذا اللَّقب لجعلِهِ ينسجمُ مع الحبِّ الذي تكنُّونه أنتم له، والذي يكنُّه هو لكم؟ أوه، إنَّه طيِّبٌ جدّاً معكم، أوه، أعلمُ، لا حاجة لتقولوا لي ذلك؛ يمكنني أن أتخيَّلَ تماماً حُبَّ مثلِ هذا الأب لابنِه، الرِّقَّةَ المرتعشةَ ليدَيْه الهائلَتَيْن، إذْ تزرِّران القميصَ الأبيضَ الصَّغيرَ حولَ عنقِه. وهما ذات اليدَيْن اللتَيْن تصبحان بعد ذلك، في الغدِ، عندَ الفجرِ، وحشيَّتَيْن فوق الخشبة. لأنَّه حتَّى المصرفيُّ، يمكنني أن أتخيَّلَ ذلك تماماً، ينتقلُ من العشرة إلى العشرين، ومن العشرين إلى الأربعين في المِائة، بينما تتنامى في البلادِ مع ازدراءِ الآخرين له شهرتُه في الرِّبا، والتي سترمي في الغد بثقلِها كوصمةِ عارٍ على كاهل الابنِ الذي حتَّى تلك اللحظة لم يكن يعرفه، وكان يشردُ خلفَ أفكارٍ غريبة، الابنِ الذي هو تلك النَّزوة الخيريَّة البائسة، والذي كان، بالضَّبط كما أقولُ لكم أنا، يستحقُّ بحقٍّ ابتسامةَ العطفِ تلك، التي نصفُها شفقةٌ، ونصفُها استهزاء.

---

*) قاطع الأعناق الذي ينفِّذ حكم الإعدام؛ (م).

-VI-
الابنُ الوحشيُّ الطَّيِّب

بِعَينَيْن امتلأتا رعباً من ذلك الاكتشاف، ولكنَّه رعبٌ محجَّبٌ ببرقعَي مذلَّةٍ وحزنٍ كانا يُحرِّكان على شفتيَّ ابتسامةً جوفاء، تحت ظلالِ الشَّكِّ في أنَّه لا يمكن لأحدٍ أن يصدِّقهما أو يتبيَّنَ وجودَهما حقّاً في نفسي، وقفتُ آنذاك بين يدي ديدا زوجتي.

كانت تقف - أذكرُ - داخلَ غرفةٍ طافحةٍ بالضَّوء، متسربلةً بالبياضِ وملفوفةً بالكاملِ بغلالةٍ من بريق الشَّمس، تُوضِّبُ في الخزانةِ الكبيرةِ المَطليَّةِ بالأبيض والمذهَّبةِ بثلاثةِ شُعُعٍ أثوابَها الرَّبيعيَّةَ الجديدة.

موخوزاً بخزيٍ مُضمَرٍ، وباذلاً وُسعيَ لكي أعثرَ في حَنْجَرَتي على صوتٍ لا يبدو غريباً جدّاً، سألتُها:

- أتعلمين، يا ديدا، ما هي مهنتي؟

التفتت ديدا، مع حمَّالةٍ في يدِها، يتدلَّى منها ثوبٌ من قماشٍ رقيقٍ شفَّافٍ ذي لونٍ أصفر فاتح، لتنظرَ إليَّ في أوَّلِ الأمرِ، كما لو أنَّها لم تعرفني. ثمَّ مبهوتةً، ردَّدَت:

- مهنتكَ؟

وكان عليَّ أن أتذوَّق مرَّةً أخرى الطَّعمَ الواخزَ لذلك الخزي لكي أستردَّ،

كما لو مِن خلال تمزيقِ روحي، السُّؤالَ الذي بقي معلَّقاً. ولكنَّه هذه المرَّة تهشَّمَ في فمي:

- نعم،- قلتُ - ماذا أعمل أنا؟

لبثتْ ديدا، حينذاك، في مكانها تتأمَّلني، ثمَّ انفجرَتْ في ضحكةٍ كبيرة:

- ولكنْ، ما هذا الذي تقوله، يا جينجيه؟

تحطَّمَ فجأةً مع انفجار تلك الضَّحكةِ رُعبي، كابوسُ تلك المصائر العمياء الذي كانت روحي منذ قليلٍ، وهي غارقةٌ في قعرِ تساؤلاتها، ترتجفُ فيه رعباً.

آه، هوَ ذا - مُرابٍ هناك، في نظر الآخرين؛ مُغفَّلٌ هنا، في نظر ديدا زوجتي. جينجيه كنتُ؛ جينجيهاً واحداً هنا، في قلبِ زوجتي وأمامَ عينَيْها؛ ومَنْ يعلمُ كم جينجيهاً آخرَ كنتُ، في الخارج، في قلوبِ أو في عيون قاطني ريكْييري وحسب. لم يكن الأمر يتعلَّق بروحي التي كانت تشعرُ في داخلي بأنَّها حُرَّةٌ ومحصَّنةٌ، وهي في جوفِها الأصليِّ، حيالَ كلِّ تلك النَّظرات إلى الأشياء التي حلَّتْ بي، وصُنِعَتْ ومُنِحَتْ لي من قِبَل الآخرين، ولا سيَّما نظراتهم هذه إلى ثروةِ ومهنةِ أبي.

أليس ذلك كذلك؟ فبمَنْ كان يتعلَّق إذاً؟ إذا كنتُ قادراً على ألَّا أعترفَ بحقيقتي المَهينةِ هذه التي منحَها لي الآخرون، فلقد كان عليَّ للأسف أن أعترف بأنَّه حتَّى لو منحتُ أنا لِنفسي حقيقةً ما، فإنَّ هذه الحقيقة لن تكون أكثر صِدْقاً، كحقيقةٍ، من تلك الحقيقة التي منحَها لي الآخرون، تلك التي فيها شكَّلَني الآخرون بذلك الجسد الذي في تلك اللحظة، وهو ماثلٌ

أمام زوجتي، لم يستطِعْ حتَّى هو أن يبدو مُلكاً لي، بما أنَّه كان مناسباً لها ذلك الجينجيه خاصَّتُها، ذلك الذي تفوَّه لتوِّه بتُرَّهَةٍ جديدةٍ ضحِكَتْ هي منها كثيراً. يسألُ عن مهنته، وهل من أحدٍ لا يعرفها؟

- نزوةٌ خيريَّةٌ...- قلتُ، كما لو بيني وبين نفسي، منتزعاً الصَّوتَ من برائنِ صمتٍ بدا لي خارجَ الحياة، لأنَّني، أنا الظِّلَّ الماثلَ أمامَ زوجتي، لم أستطع من ذلك المكان الذي أنا فيه - أنا كأنا - أن أقولَ لها أكثر.

- ماذا تقول؟- كرَّرَتْ هي، من الأرضِ الصُّلبةِ الواثقة التي تقوم عليها حياتُها، مع ذلك الثَّوب ذي اللون الأصفر الفاتح على ذراعِها.

وحيث إنَّني لم أحِرْ جواباً، مشتْ نحوي، أخذتْني من ذراعي ونفختْ على عينيَّ، كما لو لِتمحوَ عنهما نظرةً لم تعدْ هي نفسها نظرةَ جينجيه، ذلك الجينجيه الذي كانت تعرفه، والذي مثلها كان عليه أن يتظاهر بأنَّه لا يعرف كيف كان يُترجَمُ في هذه المدينة الاسمُ الذي كان يُطلَق على مهنة أبي.

ولكنْ، ألم أكن، أنا، أسوأ من أبي؟ آه، على الأقلِّ، كان أبي يعمل... أمَّا أنا! ماذا كنتُ؟ كنتُ الابنَ الوحشيَّ الطَّيِّب. الابن الطَّيب الذي كان يتحدَّث عن أشياء غريبةٍ (مستهجنةٍ حتَّى): عن اكتشاف الأنف الذي كان يميل نحو اليمين: أو عن الوجه الآخر للقمر؛ فيما ذلك الشَّيء الذي يُقالُ له مصرفُ أبي كان يواصلُ العملَ، ويزدهرُ، على أيدي اثنَيْن من الأصدقاء الجديرين بالثِّقة، فيربو وكوانتورتْسو. كذلك كان ثمَّة أعضاءٌ صِغارٌ مُساهمون، في المصرف، كما أنَّ الصَّديقَيْن الموثوقَيْن نفسَيْهما كانا - كما يُقال – شريكَيْن في الفوائد، وكان كلُّ شيءٍ يسير على ما يُرام

دون أن أقحِمَ نفسي قيدَ أنملة، محبوباً من جميع أولئك الشُّركاء، من كوانتورتْسو، كابنٍ، ومن فيربو كأخٍ؛ وجميعهم كانوا يعرفون أنَّه كان من غير المجدي الحديث معي حول الأعمال، وأنَّه كان يكفي من وقتٍ إلى آخر استدعائي لأجل التَّوقيع؛ كنتُ أوقِّع، وذلك كان كلَّ شيء. ليس كلَّ شيءٍ، لأنَّه أيضاً من وقتٍ إلى آخر كان يأتيني أحدُهم متوسِّلاً أن أصحبَه إلى فيربو أو إلى كوانتورتْسو مع رسالة توصيةٍ صغيرة؛ بلى! في حين كنتُ أكتشفُ على ذقنه غمَّازةً، تقسم ذلك الذَّقن إلى جزأيْن غير متناظرَيْن تماماً: جزءٍ أكثر بروزاً هنا، وآخر أكثر انبساطاً هناك.

كيف لم يقتلوني حتَّى تلك اللحظة؟ إيه، لم يقتلوني، أيُّها السَّادة، لأنَّه كما أنَّني حتَّى تلك اللحظة لم أكن قد انسلختُ عن نفسي لأرى نفسي، وكنتُ أحيا مثلَ أعمى وسطَ الظُّروف التي وُضِعتُ فيها، بغضِّ النَّظر عن ماهيَّتها، ذلك أنَّني فيها وُلِدْتُ، وفيها ترعرعتُ، ولأجل ذلك كانت جدُّ طبيعيَّةً في نظري؛ فإنَّه كذلك أيضاً في نظر الآخرين كان من الطَّبيعيِّ أن أكون هكذا؛ كانوا يعرفونني هكذا؛ لم يكن في مقدورهم أن يتخيَّلوني غيرَ ذلك، وكان في مقدورهم جميعاً إذَّاكَ أن ينظروا إليَّ دونما كراهيةٍ تقريباً، وأن يبتسموا فوق ذلك لهذا الابن الوحشيِّ الطَّيِّب.

جميعهم؟

شعرتُ فجأةً بزوجَيْن من العيون ينغرزان في روحي كأربعةِ خناجر مسمومة: عيون ماركو دِي دِيُّو، وزوجته ديامانتِهْ، اللذَيْن كنتُ ألتقيهما كلَّ يومٍ على طريقي، وأنا عائدٌ إلى المنزل.

-VII-
جملةٌ اعتراضيَّةٌ لا بدَّ منها، واحدةٌ للجميع

كان نصيبُ ماركو دِي دِيُّو وزوجتِه دياماتِهْ أن يكونا (على ما أذكرُ) أوَّلَ ضحاياي. أعني، أوَّل ضحايا التَّجريب التَّهديميِّ لأحدِ الموسكاردات.

ولكنْ، بأيِّ حقٍّ أتكلَّم عن الآخرين؟ بأيِّ حقٍّ أعطي هنا مظهراً وصوتاً لآخرين خارجَ دائرةِ نفسي؟ ما الذي أعرفه أنا عنهم؟ كيف أستطيع أن أتكلَّمَ عنهم؟ إنَّني أراهم مِن الخارج، وطبعاً كما يبدون لي، أي بالشَّكل الذي من المؤكَّدِ أنَّهم لا يعرفون أنفسهم به. أفلا أقترف مع الآخرين إذاً، نفسَ الخطأ الذي كثيراً ما أتشكَّى منه أنا؟

نعم، بالطَّبع؛ ولكنْ، مع فارقٍ صغيرٍ في الأفكار المتسلِّطة التي تحدَّثتُ عنها في البداية؛ في ذلك الشَّكل المحدَّد الذي يرغب كلُّ واحدٍ منَّا أن يكون عليه، مُشيِّداً نفسَه على هذا النَّحو أو ذاك، وفقاً للصُّورةِ التي يرى نفسَه بها أو يعتقد بصدقٍ أنَّها هو، لا في نظرِه فحسب، بل وأيضاً في نظرِ الآخرين. إنَّه تبجُّحٌ ينبغي، على أيَّةِ حالٍ، دفعُ غرامتِه.

ولكنَّكم، أعلمُ، ما تزالون لا تريدون التَّسليم بذلك، وها أنتم تصرخون:

وماذا عن الوقائع؟ أوه، بحقِّ الله، أوَليس ثمَّة وقائع؟

- بلى، ثمَّة وقائع.

الولادةُ واقعةٌ من الوقائع. الولادةُ في وقتٍ دون آخر، كما سبق وقلتُ لكم؛ ومِن هذا الأب أو ذاك، وفي هذا الظَّرف الاجتماعيِّ أو ذاك؛ الولادةُ ذَكَرَاً أو أنثى؛ في لاپُونيا(*) أو في وسط إفريقيا؛ وجميلاً أو قبيحاً؛ مع حدبةٍ أو دون حدبة: كلُّ ذلك وقائع. وكذلك إذا فقدتُم عيناً، فهي واقعةٌ، ويمكن أيضاً أن تفقدوا كلتا العَينَيْن، وإذا كان أحدُكم رسَّاماً، فتلك ستكون أسوأ واقعةٍ يمكن أن تحدُثَ له.

الزَّمان، المكان: حَتْميَّان. القدَرُ، الحظُّ، الصُّدَفُ: كلُّها فِخاخٌ من فِخاخِ الحياة. يريدُ أحدُكم أن يكون؟ ثمَّةَ هذا. تجريديَّاً لا شيء يمكن أن يكون. على الكينونةِ أن تقعَ في فخِّ الشَّكل، وأن تنتهي فيه لأمدٍ محدَّدٍ، هنا أو هناك، على هذا النَّحو أو ذاك. وكلُّ شيءٍ، ما بقيَ قائماً، سيحمل معه شقاءَ الشَّكل، شقاءَ أن يكون على هذا النَّحو، وألَّا يكون قادراً بعدئذٍ على أن يكون بخلافِ ذلك. ذلك الكسيحُ هناك، يبدو ألعوبةً، نكتةً نعذُرُها بمشقَّةٍ للحظةٍ واحدةٍ وحسب؛ ثمَّ ماذا؟ ثمَّ يعودُ مستقيماً، منتصِباً، خفيفَ الحركةِ، رشيقاً، وطويلاً... ولكنْ، أيُّ هُراء! إنَّه باقٍ على الدَّوام هكذا، إلى آخر حياته التي هي حياةٌ واحدة؛ وينبغي أن يُسَلِّمَ بأنَّه سيمضيها كلَّها على تلك الحال.

وكحالِ الأشكالِ، حالُ الأفعال.

عندما نقوم بفِعلٍ ما، يكون قد قُضِيَ الأمر؛ لا شيء يمكن أن يُغيِّرَه بعد ذلك. عندما يقوم أحدٌ، بأيَّةِ طريقةٍ كانت، بفِعلٍ ما، حتَّى من دون أن يشعر بعد ذلك بأنَّه قام به أو يجد نفسَه جزءاً من ذلك الفِعل المنجَز، فإنَّ ما فعلَه يبقى: كسجنٍ له. إذا اتَّخذتُم زوجةً، أو حتَّى إذا سرقتُم، ماديَّاً

(*) مقاطعة في فنلندا؛ (م).

أقصد، وافتُضِحَ أمرُكم؛ وإذا قَتَلتُم، فإنَّ عواقبَ أفعالِكم سوف تلتفُّ عليكم مثلَ أفاعٍ ومجسَّات؛ وسوف تثَّاقلُ فوقكم، ومن حولكم، مثلَ هواءٍ كثيفٍ وخانقٍ، المسؤوليَّةُ التي تحمَّلتُمُوها عن تلك الأفعال وعواقبِها، أكانت تلك الأفعالُ وعواقبُها غير مقصودةٍ أم غير متوقَّعة، فكيف ستستطيعون بعد ذلك تحريرَ أنفسِكم؟

نعم. ولكنْ، ما الذي تريدون قولَه بهذا؟ إنَّ الأفعالَ، شأنها شأن الأشكال، تحدِّدُ حقيقتي أو حقيقتكم؟ كيف؟ ولماذا؟ من جهةِ أنَّها سجنٌ، فلا أحد يمكنه إنكار ذلك. ولكنْ، إذا كنتُم تريدون تأكيدَ هذه النُّقطة فحسب، حذارِ أن تُؤكِّدوا شيئاً ضدِّي، لأنَّ هذا هو بالضَّبط ما أقولُه أنا، وأؤكِّدُ فوق ذلك أنَّها سجنٌ، السَّجنُ الأشدُّ إجحافاً الذي من الممكن تصوُّره.

ظننتُ، والرَّبِّ القدُّوس، أنَّني بيَّنتُ لكم ذلك! هاكَ، أعرفُ فلاناً. وفقاً لمعرفتي بهِ، أسبغُ عليهِ حقيقةً واقعة: من وجهةِ نظري طبعاً. ولكنَّ السَّيِّدَ فلانٍ تعرفونه أنتم أيضاً، ولا شكَّ أنَّ ما تعرفونه أنتم ليس الشَّيءَ نفسَه الذي أعرفه أنا، لأنَّ كلَّ واحدٍ منَّا يعرفه على طريقته، وعلى طريقته يُسبغ عليه حقيقةً واقعة. الآن، يمتلك السَّيِّد فلان هو أيضاً العديد من الحقائق عن نفسِه، حقائق بعدد مَنْ يعرفهم منَّا، لأنَّه بطريقةٍ معيَّنةٍ يعرف نفسَه معي وبطريقةٍ أخرى معك ومع ثالثٍ، ومع رابعٍ، وهكذا دواليك. وهو ما يعني أنَّ السَّيِّدَ فلانٍ هو في الحقيقةِ شخصٌ معي، وشخصٌ معكَ، وشخصٌ آخر مع ثالثٍ، وشخصٌ آخر مع رابعٍ، وهكذا دواليك، وإن توهَّمَ هو أيضاً، وعلى وجه الخصوص هو، أنَّه واحدٌ في نظر الجميع. المشكلة هي هاتِه؛ أو النُّكتة، إذا استطبتُم أكثر تسميتَها هكذا. يقوم أحدُنا بفِعلٍ

ما. يظنُّ بحسنِ نيَّةٍ أنَّه كُلِّيّاً منخرطٌ في ذلك الفِعل. يُدركُ للأسفِ أنَّ الأمرَ ليس كذلك، وأنَّ الفِعل، خِلافاً لذلك، يعودُ دائماً إلى واحدٍ فحسب من الكثيرين الذين هم هوَ أو الذين من الممكن أن يكونوا هوَ، عندما، لِواقعةٍ وبيلةٍ، يلفي على حين غرَّةٍ نفسَه كالمربوط أو المعلَّق بهم: يدركُ، وهذا ما أريدُ قولَه، أنَّه ليس كُلِّيّاً منخرطاً في ذلك الفِعل، وأنَّه سيكون ظلماً فظيعاً أن يُحكَمَ عليه من مُنطلَقِ ذلك الفِعلِ وحدِه، أن يُترَكَ مربوطاً أو معلَّقاً به، بذلك الغُلِّ، مدى الحياة، كما لو أنَّ هذه الحياة اختُصِرَتْ كلُّها بذلك الفِعل وحدِه.

- ولكنَّني أيضاً هذا، وهذا أيضاً، وهذا كذلك!- يشرع في الصُّراخ.

إنَّه كثيرون، أيْ نعم؛ كثيرون ممَّن كانوا خارجَ الفِعل الذي قام به ذلك الواحدُ، والذين لا علاقة لهم أبداً أو بالكاد لهم علاقةٌ بذلك. ليس هذا فحسب؛ بل إنَّ ذلك الواحدَ نفسَه، أيْ تلك الحقيقة التي في لحظةٍ ما أُعطِيَتْ لنا والتي في تلك اللحظةِ نفسِها قامت بذلك الفِعل، ما يلبث غالباً أن يتلاشى تماماً؛ لدرجةِ أنَّه لا يبقى في أعماقنا، إنْ كان لشيءٍ أن يبقى حقَّاً، سوى ذكرى الفِعل، مثلَ حلمٍ مُكرِبٍ لا يمكن تفسيرُه. واحدٌ آخَرُ، عشرةٌ آخرون، كلُّ أولئك الآخرين الذين هم نحنُ أو الذين من الممكن أن يكونوا نحنُ، ينهضون واحداً تِلْوَ الآخر في داخلنا، لكي يسألونا كيف استطعنا أن نفعلَ ذلك؛ ولن نعرفَ ساعتئذٍ كيف نُفسِّر لهم الأمر.

حقائق عابرة.

إذا لم تكن تلك الوقائعُ من الخطورةِ بمكان، فإنَّنا نُسمِّي تلك الحقائق العابرة خِداعاً. أجل، ذلك صحيحٌ؛ لأنَّ كلَّ حقيقةٍ ليست في الحقيقةِ

سوى خدعة. إنَّها بالضَّبط تلك الخدعة التي أخبركم الآن من خلالِها أنَّ ثمَّة خدعةً أخرى أمامَكم.

- إنَّكم على خطأ!

إنَّنا جدُّ سطحيُّون، أنا وأنتم. إنَّنا لا ننفَذُ إلى عمقِ النُّكتة، التي هي أكثر عمقاً وتجذُّراً، يا أعزَّائي. وهي تتمثَّلُ في هذا: أنَّ الكائن يؤدِّي الأفعالَ بالضَّرورةِ عِبرَ الأشكال، هذه التي هي المظاهر التي يخلقها هو، ونسبغُ عليها نحن قيمةَ الحقيقة. قيمةٌ تتغيَّرُ، بطبيعةِ الحال، وفقاً لما يبدو عليه لنا الكائنُ وهو حبيسُ ذلك الشَّكل وذلك الفِعل.

ولا بدَّ أن يبدو لنا رغماً عنَّا أنَّ الآخرين أخطؤوا؛ أنَّ شكلاً معيَّناً، فِعلاً معيَّناً، ليس هذا، وليس هكذا. ولكنْ، بعد ذلك بقليل، وعلى نحوٍ يتعذَّرُ اجتنابُه، إذا ما بدَّلنا قيدَ شعرةٍ موضِعَنا، أدركنا أنَّنا نحن أيضاً قد أخطأنا، وأنَّه حقَّاً ليس هذا، وليس هكذا؛ حيث إنَّنا في النِّهاية مُرغَمون على الإقرارِ بأنَّه لن يكون أبداً هذا، ولن يكون أبداً هكذا بأيَّةِ طريقةٍ ثابتةٍ وأكيدة؛ ولكنْ، حيناً بطريقةٍ، وحيناً بطريقةٍ أخرى، بحيث يبدو لنا عندَ نقطةٍ معيَّنةٍ أنَّ الجميعَ مخطئون، أو الجميعَ مُحِقُّون، سِيَّانَ هذا وذاك؛ لأنَّه ما مِن حقيقةٍ أعطيَتْ لنا وما مِن حقيقةٍ موجودة، وإنَّما علينا نحن أن نصنعَها، إذا ما أردنا أن نكُون: ولن تكون أبداً واحدةً في نظرِ الجميع، ولا واحدةً على الدَّوام، بل باستمرارٍ، وإلى ما لا نهايةٍ قابلةً للتَّغيير. إنَّ إمكانَ أن نُوهِمَ أنفسَنا بأنَّ حقيقةَ اليومِ هي وحدَها الصَّائبة، إذا ما هو آزرَنا من جانبٍ، فإنَّه مُلْقٍ بنا من جانبٍ آخرَ في فراغٍ لا نهاية له، لأنَّ حقيقةَ اليوم مرصودةٌ لاكتشافِ الوَهْمِ غداً. فالحياة لا تبلغ حكماً نهائيَّاً. لا يمكن أن تبلغ حكماً نهائيَّاً. وإذا ما بلغتْهُ غداً، فتلك هي نهايتُها.

-VIII-
فَلْنَخْفِضْها قليلاً

أيبدو لكم أنَّني رميتُها عالياً جدًّا؟ فلنَخْفِضها قليلاً إذاً. الكرةُ مطَّاطيَّةٌ؛ ولكنْ، لكي ترتدَّ عليها أن تلمسَ الأرض. فلتلمس الأرض، ولنجعلها ترتدُّ عائدةً إلى يدِنا.

عن أيِّ الوقائع تريدون أن نتحدَّث؟ عن واقعةِ أنَّني وُلِدْتُ، في ذلك العام، ذلك الشَّهر، ذلك اليوم، في مدينةِ ريكْيِيري النَّبيلة، في منزلٍ بذلك الشَّارع، بذلك الرَّقْم، من السَّيِّد فلان والسَّيِّدة فلانة؛ وعُمِّدْتُ في الكنيسةِ الأمِّ في يومَيَ السَّادس؛ وأُرْسِلْتُ إلى المدرسةِ في عامَيَ السَّادس؛ وزُوِّجْتُ في عامَيَ الثَّالث والعشرين؛ طولُ قامتي مترٌ وثمانيةٌ وستُّون؛ أحمرُ الشَّعر، وهلمَّ جرًّا، هلمَّ جرًّا؟

تلك هي علاماتي الفارقة. بياناتي الشَّخصيَّة، كما تسمُّونها أنتم. فهل ترغبون في استخلاصِ حقيقتي منها؟ ولكنْ، هذه البيانات نفسها التي في حدِّ ذاتها لا تقولُ شيئاً، أتظنُّون أنَّها تستجلبُ تقييماً واحداً للجميع؟ وحتَّى إذا افترضنا أنَّها تُمثِّلني بشكلٍ كاملٍ ودقيقٍ، فأين تُراها تُمثِّلُني؟ في أيَّةِ حقيقةٍ؟

في التي تمنحُها لي أنتَ، والتي هي مغايرةٌ لتلك التي يمنحُها لي آخرُ: ثمَّ لتلك التي يمنحُها لي آخرُ؛ ثمَّ للَّتي يمنحُها آخرُ. هل ثمَّة يا تُرى حقيقةٌ واحدةٌ، واحدةٌ لا ثاني لها في نظر الجميع؟ ولكنَّنا رأينا أنَّه ما مِن

حقيقةٍ واحدةٍ، ولا حتَّى لكلِّ واحدٍ منَّا على حِدة، لأنَّه حتَّى في داخلنا، فإنَّ حقيقتنا تتغيَّر باستمرار! فإذاً؟

ها نحن أولاء، كدنا نلامسُ الأرضَ. خمسةٌ أنتم؟ تعالوا معي.

هذا هو المنزل الذي وُلِدْتُ فيه، في ذلك العام، ذلك الشَّهر، ذلك اليوم. حسناً، من النَّاحية الطُّبوغرافيَّة، وبالنَّظر إلى الطُّولِ والارتفاعِ وعددِ النَّوافذ التي في جزئه الأمامي، فإنَّ هذا المنزل هو نفسُ المنزل بالنِّسبة إلى الجميع؛ من ناحيةِ أنَّني بالنِّسبة إليكم جميعاً أنتم الخمسة قد وُلِدْتُ هنا، في ذلك العام، ذلك الشَّهر، ذلك اليوم، أحمرَ الشَّعر وطولي الآنَ مترٌ وثمانيةٌ وستُّون، فهل يَتْبَعُ ذلك يا تُرى أن تُسبغوا أنتم الخمسة نفسَ الحقيقةِ على هذا المنزل وعليَّ؟ في نظركَ أنتَ الذي تقطن كوخاً، فإنَّ هذا المنزل يبدو قصراً بديعاً؛ وفي نظركَ أنتَ الذي تملك ذوقاً فنِّيّاً معيَّناً، فإنَّه يبدو منزلاً مبتذلاً؛ وأنتَ الذي تمرُّ على مضضٍ من الطَّريق التي يقوم فيها ذلك المنزل، لأنَّه يذكِّرك بفصلٍ حزينٍ من حياتكَ، فإنَّكَ تنظر إليه بسخطٍ؛ أمَّا أنتَ فبحُبٍّ ترمقه، لأنَّه هنا قُبالتَه - أعلمُ ذلك - كانت تسكن أمُّكَ المسكينة التي كانت صديقةً طيِّبةً لأمِّي.

وماذا عنِّي أنا الذي وُلِدتُ هنا؟ يا إلهي! إنْ كان ذلك الأبله بالنِّسبة إليكم أنتم الخمسة قد وُلِدَ في هذا المنزل، الذي هو واحدٌ وخمسة، في ذلك العام، ذلك الشَّهر، ذلك اليوم، فهل تعتقدون أنَّه نفسُ الأبله بالنِّسبة إلى الجميع؟ سأكون في نظر بعضكم أبلهَ، لأنَّني أترك كوانتورتْسو مديراً للمصرفِ وفيربو مستشاراً قانونيّاً، أيْ بالضَّبط لنفس السَّبب الذي يجعل بعضَكم الآخر يخال أنَّني في غايةِ النَّباهة، في حين أنَّه يرى بلاهتي واضحةً في واقعةِ أنَّني أنزِّه كلَّ يومٍ كلبةَ زوجتي، وهكذا دواليك.

خمسة بُلَهاء. واحدٌ في كلِّ واحد. خمسة بُلَهاء يمَثُلون أمامَكم، كما ترونهم مِن خارجٍ، فيَّ أنا الذي لستُ إلَّا كهذا المنزل، واحداً وخمسة، كلُّهم بنفسِ الاسم، موسكاردا، الذي لا يعني في حدِّ ذاته شيئاً، ولا حتَّى شيئاً واحداً، بما أنَّه ينفعُ في الإشارة إلى خمسة بُلَهاء مختلفين يلتفتون جميعاً إذا ناديتُم: موسكاردا!- ولكنْ، كلٌّ منهم بتلك الهيئةِ التي أعطاها له كلٌّ منكم؛ خمسُ هيئاتٍ؛ فإذا ضحكتُ، كُنَّ خمس ضحكاتٍ، وهكذا دواليك.

أوَلن يبدوَ لكم كلُّ فِعْلٍ أقوم به بأنَّه فِعْلُ واحدٍ مِن هؤلاء الخمسة؟ وهل يمكن له أن يكون نفسَ الفِعْل إذا كان الخمسة مختلفين؟ كلٌّ منكم سيؤوِّلُه، سيعطيه معنىً وقيمةً وفقاً للحقيقة التي أعطاها لي.

أحدُكم سيقول:

- لقد فعلَ موسكاردا هذا.

الآخرُ سيقول:

- ولكنَّه لم يفعل هذا! لقد فعلَ شيئاً آخرَ!

والثَّالثُ:

- يبدو لي أنَّه أحسنَ فِعلاً. كان عليه أن يتصرَّف هكذا!

الرَّابعُ:

- ولكنْ، عمَّ تتحدَّثون؟! لقد أساء التَّصرُّف. كان عليه أن يفعلَ العكس...

والخامسُ:

- ماذا كان عليه أن يفعل؟ ولكنَّه هكذا لم يفعل شيئاً!

وسيكون في مقدوركم أن تتعاركوا بالأيدي لأجل ذلك الذي فعلَه موسكاردا أو لم يفعله، ولأجل ذلك الذي كان ينبغي له أن يفعله أو لم يكن ينبغي له أن يفعله، دون رغبةٍ في إدراكِ أنَّ موسكاردا أحدِكم ليس موسكاردا الآخر؛ معتقدين أنَّ واحدكم إنَّما يتحدَّث عن موسكاردا واحدٍ، بلى، واحدٍ لا ثانيَ له، هو ذلك الماثل أمامه على هذه الصُّورةِ وهذه الحال، مثلما يراه هو، ومثلما يلمسه؛ في حين أنَّه يتحدَّث عن خمسة موسكاردات؛ ذلك أنَّ لكلٍّ من الأربعة الآخرين موسكارداً واحداً آخرَ ماثلاً أمامَه. واحداً لكلِّ واحدٍ، هو ذلك الذي لا ثانيَ له، الذي على هذه الصُّورة وهذه الحال، مثلما يراه كلُّ واحدٍ ومثلما يلمسه. خمسةٌ؛ أو ستَّةٌ، إذا ما قُيِّضَ للبائس موسكاردا هو أيضاً أن يرى ويلمس نفسَه من خلالِ نفسِه؛ ولكنَّه، واأسفاه، واحداً ولا أحد يرى ويلمسُ نفسَه، ما دامَ الخمسة الآخرون يرونه ويلمسونه بطريقةٍ مُغايرة.

-IX-
فَلْنُغلق القوسَيْن

مع ذلك سوف أبذلُ كلَّ ما في وسعي لكي أمنحك، لا تشكَّ في ذلك، تلك الحقيقة التي تظنُّ أنَّكَ تمتلكها؛ وذلك يعني أنْ أبتغيكَ فيَّ كما تبتغي نفسَكَ. ذلك ليس ممكناً، هذا ما نعرفه الآن جيِّداً، لأنَّه، مع كلِّ تلك الجهود التي أبذلها لكي أصوِّرَكَ على طريقتكَ، فإنَّها ستكون دوماً "طريقتَكَ" في نظري أنا فحسب، لا "طريقتكَ" في نظركَ أنتَ، وفي نظر الآخرين.

ولكنْ، عُذراً: إذا كنتُ في نظركَ لا أمتلك حقيقةً أخرى خارجَ تلك التي تمنحُها لي أنتَ، وكنتُ مستعدَّاً للإقرار والتَّسليم بأنَّها لا تقلُّ صدقاً عن تلك التي يمكنني أن أمنحَها لِنفسي؛ تلك التي هي خِلافاً لذلك الحقيقة الوحيدة الصَّادقة في نظركَ (والله وحده يعلم ما هي هذه الحقيقة التي تمنحُها لي!)؛ فهل حقَّاً تودُّ الاحتجاجَ الآنَ على تلك التي أمنحها لكَ أنا، مع كلِّ حُسن نيَّتي في أن أصوِّرَكَ بقدرِ ما أستطيع على طريقتكَ؟

إنَّني لا أفترضُ أنَّكَ تُشبهُ ما أُصوِّرُكَ عليه. لقد سبق وأكَّدتُ أنَّكَ لستَ حتَّى ذلك الذي تمثِّله أنتَ لنفسِكَ، بل كُثْرٌ أنتَ في آنٍ واحدٍ، وفقاً لكلِّ احتمالات الصَّيرورة التي لديكَ، وللوقائع، والعلاقاتِ والظُّروف. فإذاً، أيُّ خطأٍ أقترفُ أنا نحوَكَ؟ إنَّك أنتَ مَنْ يُخطئ معي، باعتقادكَ أنَّني لا أمتلك أو لا يمكن أن أمتلك حقيقةً أخرى خارجَ تلك التي تمنحُها لي

أنتَ؛ والتي هي من صُنعِكَ أنتَ فحسب، كما تخال: إنَّها فكرتكَ التي كوَّنتَها عنِّي، إنَّه احتمالُ أن أكُوْنَ تلك الحقيقةَ كما تعيها أنتَ، كما تبدو لكَ أنتَ، كما تتبيَّنُها أنتَ في داخلكَ؛ بما أنَّه في نهاية المطاف ليس أنتَ فحسب مَنْ لا يمكنه أن يعرفَ شيئاً، بل وأنا نفسي أيضاً لا يمكنني أن أعرف شيئاً، عمَّا يمكن أن أكُوْنَه في نظر نفسي.

-X-

زيارتان

وإنَّني سعيدٌ أنَّه الآن، فيما أنتَ تقرأ كتابي هذا بابتسامةٍ ساخرةٍ قليلاً، ابتسامةٍ رافقتْ منذ البدءِ قراءتَكَ، جاءتْ فجأةً هاتان الزِّيارتان، واحدةٌ داخلَ الأخرى، لتُبيِّنا لك كم كانت خرقاء ابتسامتُكَ تلك.

إنَّك ما تزال حائراً - أرى ذلك - حائراً وحانقاً ومُهاناً من الصُّورة السَّيِّئة التي تركتَها في نفْسِ صديقِكَ القديم الذي أقصيتَهُ عنكَ بعدَ فترةٍ قصيرةٍ من قدومِ ذلك الجديد، مع عُذْرٍ سخيفٍ، أنَّكَ لم تعد تُطيق رؤيتَه أمامَكَ، لم تعد تُطيق سماعَه يتحدَّث ويضحك في حضور ذلك الآخَر. ولكنْ، كيف؟ كيف لكَ أن تقصيه هكذا، إنْ كنتَ قبلَ قليلٍ مِن قدومِ هذا الآخَر في غاية السُّرور من الحديث والضَّحك معه؟

أقصيتَه بعيداً. مَنْ؟ صديقكَ؟ أتعتقد حقَّاً أنَّكَ أقصيتَه بعيداً؟

فكِّرْ في الأمر قليلاً.

إنَّ صديقكَ القديم، في حدِّ ذاته، لا يمتلك أيَّ سببٍ لإقصائه بعيداً، بعد إذْ جاء ذلك الجديد. الاثنان، اللذان لم يكن يعرف أحدُهما الآخر، قدَّمْتَهما أنتَ إلى بعضِهما بعضاً؛ ولم يكن أمراً مُستبعَداً أن يمكثا نصفَ ساعةٍ في حُجرة الجلوس في منزلكَ، ليتحدَّثا حديثاً خفيفاً في هذا الشَّأن أو ذاك؛ دونما إحراجٍ، لا لهذا ولا للآخر.

مَنْ كان في موقفٍ حَرِجٍ هو أنتَ، وكان موقفكَ، بالأحرى، يزداد تحرُّجاً وضيقاً كلَّما رأيتَ ذينك الاثنَيْن يتقرَّبُ أحدُهما إلى الآخر شيئاً فشيئاً، ليتحالفا معاً. لماذا؟ طبعاً لأنَّكَ (هل ما تزال راغباً عن فَهْم ذلك؟) لأنَّكَ، على حين غرَّةٍ، أيْ لحظةَ قدومِ صديقكَ الجديد، اكتشفتَ أنَّكَ اثنان، أحدُهما جدُّ مختلفٌ عن الآخر، فكنتَ مرغماً عندَ نقطةٍ معيَّنةٍ، نقطةٍ لم تعد عندَها تطيق صبراً، على إقصاء أحدهما بعيداً. وليس صديقَكَ القديم، لا، ليس صديقَكَ القديم مَنْ أقصيتَ بعيداً، بل أقصيتَ نفسَك، أقصيتَ ذلك الذي كنتَه في نظر صديقكَ القديم، لأنَّكَ شعرتَ بأنَّه مُغايرٌ كُلِّيّاً لذلك الذي كنتَه، أو أردتَ أن تَكُوْنَه، في نظر الصَّديق الجديد.

لم يكونا متعارضَيْن في ما بينهما ذانك الاثنان، الغريبان أحدُهما عن الآخر، الخَلُوقان كلاهما، والمخلوقان ربمَّا ليفهمَ أحدُهما الآخر بشكلٍ مُذهِل؛ واللذان اكتشفتَهما أنتَ على حين غرَّةٍ في نفسِكَ. لم تستطعْ التَّسامُحَ مع احتمالِ أن تختلطَ أمورُ الأوَّلِ بأمورِ الآخر، في حين أنَّها لم تكن تمتلك أيَّ قواسم مشتركةٍ في ما بينها. لا شيء، لا شيء، بما أنَّكَ في نظر صديقكَ القديم تمتلك حقيقةً وفي نظر الجديد حقيقةً أخرى، حقيقتَيْن جدُّ مختلفتَيْن في كلِّ شيءٍ حدَّ أنَّك تشعرُ، في ما يشبه الوعيد، بأنَّكَ إذا ما ملتَ نحوَ أحدهما، لبثَ الآخرُ يتأمَّلكَ مشدوهاً؛ وهو لم يعدْ قادراً على تبيُّن مَنْ تكون؛ وكأنَّه يهتف بينه وبين نفسِه:

"ولكنْ، كيف؟ أهذا هو؟ أهكذا هو؟"

وفي هذا الموقف الحرِج الذي وقعتَ فيه إذْ وجدتَ نفسَكَ هكذا، اثنَيْن في وقتٍ واحدٍ، رحتَ تبحث عن عذرٍ سخيفٍ لتتحرَّرَ، لا مِن

أحدهما، وإنَّما من أحدِ اثنَيْنِ كانا يُرغمانكَ على أن تكون ذينك الاثنَيْن، في آنٍ واحد.

هيَّا هيَّا، عُدْ إلى قراءة كتابي هذا، دون تلك الابتسامة التي ما فتأتَ تصنعها حتَّى الآن.

ولْتوقِنْ حقَّ اليقين أنَّه إذا ما استطاعت هذه التَّجربة التي مررتَ بها للتَّوِّ أن تسبِّبَ لكَ بعضَ الغمِّ والحزن، فإنَّ ذلك ليس شيئاً، يا عزيزي، لأنَّك لستَ اثنَيْن فحسب، بل لا أحد يدري كم، ولا أنتَ تدري، وتحسبُ نفسَكَ على الدَّوام واحداً.

فلْنمضِ قُدُماً.

الكتاب الرَّابع

-I-

كيف كانا بالنِّسبة إليَّ ماركو دي دِيُّو وزوجتُه ديامانتِهْ

أقولُ "كانا"، ولكنْ، ربمَّا كانا ما يزالان على قيد الحياة. أين؟ هنا ربمَّا، حيث يمكنني أن أراهما غداً. ولكنْ، هنا، أين؟ لم يعد للعالَم وجودٌ في نظري؛ لا شيء يمكن أن أعرفَهُ عنهما، ولا أعلم أين يمكن أن أتصوَّرَ وجودَهما. سأعلمُ يقيناً أنَّهما يمرَّان من هذه الطَّريق، إذا ما التقيتهما غداً في هذه الطَّريق. يمكنني أن أسأله:

- أأنتَ ماركو دِي دِيُّو؟

وقد يُجيبُني:

- أجل. أنا ماركو دِي دِيُّو.

- وهل تسيرُ في هذه الطَّريق؟

- أجل. في هذه الطَّريق.

- وهل هذه زوجتكَ ديامانتِهْ؟

- أجل. زوجتي ديامانتِهْ.

- وهل هذا الشَّارع اسمُه كذا وكذا؟

- كذا وكذا. وفيه الكثير من البيوت، الكثير من التَّقاطُعات، والكثير من المصابيح، وهلمَّ جرّاً.

كما هو الحال في قواعد أورلِندورف اللغويَّة.

حسناً، كان ذلك كافياً بالنِّسبة إليَّ حينذاك، مثلما هو كافٍ بالنِّسبة إليكم الآن، لكي أشيِّدَ حقيقةَ ماركو دِي دِيُّو وزوجتِهِ دياماتِهْ والطَّريقِ التي ما يزال ممكناً أن ألتقيهما عِبْرَها، مثلما كنتُ ألتقيهما آنذاك. متى؟ أوه، ليس منذ سنواتٍ عديدة. يا لها مِن دقَّةٍ لافتةٍ في تحديد المكان والزَّمان! الشَّارع، قبل خمس سنوات.

الأبديَّةُ تهاوتْ بالنِّسبة إليَّ، ليس بين هذه السَّنوات الخمس فحسب، وإنَّما بين اللحظةِ والأخرى. والعالَم الذي كنتُ أحيا فيه حينذاك يبدو لي الآن أبعدَ من أبعدِ نجمةٍ في السَّماء.

كان ماركو دِي دِيُّو وزوجته دياماتِهْ يبدوان لي اثنَيْن من مَنكُودي الحظِّ، ولكنَّ بؤسَهما ذاك، حتَّى وإنْ بدا من ناحيةٍ أنَّه كان يحملهما آنذاك على الاعتقاد بأنَّه من غير المجدي غسْلُ وجهَيْهما كلَّ صباح، فلا شكَّ أنَّه من النَّاحية الأخرى كان ما يزال يُقنعهما بألَّا يأليا جهداً، ليس من أجل كسبِ ذلك النَّزر اليسير الذي بالكاد يكفي لإطعامهم كلَّ يومٍ فحسب، بل ومن أجل أن يُصبحا بين عشيَّةٍ وضحاها مِلْيونيرَيْن: مِل.يو.نِير.رَيْ.ن مثلما كان يقول هو متهجِّياً، محدِّقاً بعينَيْن متوعِّدَتَيْن.

كنتُ أضحك آنذاك، والجميع كانوا يضحكون معي لسماعِهِ يتحدَّث هكذا. الآنَ باشمئزازٍ أستذكرُ ذلك، إذْ أفكِّرُ في أنَّني ما كنتُ لِأتمكَّن من الضَّحك سوى لأنَّه لم يكن قد اعتراني الشَّكُّ بعدُ في ذلك الشَّيء

السَّماويِّ المحفِّز المُسمَّى اطِّرادَ الخبرات؛ ولذلك كنتُ أخالُه حلماً مثيراً للضَّحك أنْ يتمكَّن المرء من أن يصبحَ مليونيراً بين عشيَّةٍ وضُحاها. ولكنْ، ماذا لو أنَّ هذا الخيط الذي اتَّضحَ أنَّه خيطٌ رفيعٌ للغاية، وأعني بذلك خيطَ اطِّراد الخبرات، انقطعَ في داخلي؟ ماذا لو أنَّ هذا الحلمَ المضحكَ لم يكتسب، خِلافاً لذلك، سِمةَ الاطِّراد إلَّا لأنَّه تكرَّر مرَّتَيْن أو ثلاث مرَّات؟ لكان بدا لي أنا أيضاً ضرباً من المستحيل الشَّكُّ في أنَّه من الممكن للمرء حقَّاً أن يصبحَ مليونيراً بين عشيَّةٍ وضُحاها. فكم مِمَّنْ يحرصون على الاطِّرادِ الهنيء للخبرات لا يستطيعون أن يتخيَّلوا أيَّ الأشياء يمكن أن تكون حقيقيَّةً أو مُقاربةً للحقيقةِ في نظرِ مَنْ يحيا خارجَ كلِّ قاعدة، تماماً كحالِ ذلك الرَّجل.

يحسبُ نفسَه مُبتكِراً.

والمبتكِرُ، يا سادتي، في صبيحةِ يومٍ جميلٍ، يفتح عينَيه، يبتكر شيئاً، وها هو ذا: يصبحُ مليونيراً!

كثيرون ما يزالون يذكُرونه كبدائيٍّ، وفدَ لتوِّهِ إلى ريكْييري من الرِّيف. يذكُرون أنَّه استُقبِلَ حينذاك في مُحترَفِ واحدٍ من فنَّانينا الأكثر شهرةً، والذي هو في عِداد الموتى الآن؛ وأنَّه تعلَّمَ في غضون فترةٍ وجيزةٍ العملَ بالرُّخامِ بمهارةٍ عاليةٍ. ناهيكَ عن أنَّ معلِّمَه، ذاتَ يومٍ، أرادَ اتِّخاذَه نموذجاً لأجلِ مجموعةٍ من مجموعاته الرُّخاميَّة، وما إنْ عُرِضَ كقطعةٍ من الجصِّ في أحد المعارض الفنِّيَّة، حتَّى اشتُهِرَ تحت عنوان: ساتير والطِّفل.

لقد استطاع الفنَّان أن يُترجمَ في الصَّلصال رؤيتَه الخياليَّة دون إيذاءٍ لها، فأتت فائقةَ الجمال وجديرةً بالرِّضا والثَّناء، حتَّى وإن لم تخلُ تماماً من العيوب.

اللذَّة كانت تكمن في الصَّلصال.

لم يظنَّ المعلِّمُ في أنَّ تلك الرَّغبة في ترجمة رؤيته الخياليَّة يمكن أن تنبجسَ أيضاً في نفسِ تلميذه، من الصَّلصالِ الذي ثُبِّتَتْ فيه إلى الأبد بشكلٍ يستحقُّ الثَّناء إلى حركةٍ لحظيَّةٍ لم تعدْ جديرةً بالثَّناء، فيما كان هذا، وقد خنقهُ قيظُ ظهيرةٍ صيفيَّةٍ، يتعرَّق في المحترَفِ من أجل صياغةِ الشَّكل الأوَّليِّ لتلك المجموعة الرُّخاميَّة.

الطِّفلُ الحقيقيُّ لم يرغب في اتِّخاذ تلك الليونةِ البَشوش التي كان الطِّفلُ الزَّائفُ يُظهرُها في الصَّلصال؛ صاحَ مُستنجداً؛ انتبهَ النَّاسُ؛ وأُخِذَ ماركو دِي دِيُّو على غفلةٍ في مشهدٍ من النَّوع البهائميِّ الذي انبعث فيه فجأةً في لحظةِ القيظِ تلك.

إنَّنا على صوابٍ الآن: إنَّه بهيمةٌ، أجلْ؛ بهيمةٌ فائقة القُبح، تجلَّتْ في ذلك المشهد؛ ولكنْ، بالنِّسبة إلى المشاهد الأخرى المُمثَّلَة بصدقٍ، ألم يكن ماركو دِي دِيُّو في الوقتِ نفسِه ذلك الشَّابَّ الطَّيِّبَ الذي خبرَهُ معلِّمُه دوماً في الشَّكل الأوَّليِّ لتماثيلِه، وهو ما كان يُعلنه للجميع؟

أعلم أنَّني أجرحُ بهذا السُّؤال أخلاقيَّاتكم. في الواقع ستجيبونني بأنَّه إذا كان من الممكن لمثل تلك الرَّغبة أن تنبجسَ في نفسِ ماركو دِي دِيُّو، فتلك علامةٌ بيِّنةٌ على أنَّه لم يكن ذلك الشَّابَّ الطَّيِّبَ الذي كان معلِّمُه يُحدِّث عنه. ولكنْ، في الوقت نفسِه، يمكنني أن أجعلكم تلاحظون أنَّ حيوات القدِّيسين طافحةٌ هي أيضاً بمثل تلك الرَّغبات (بل وبرغباتٍ أكثر فحشاً). كان القدِّيسون ينسبونها إلى الشَّيطان، وبعونٍ من الله كانوا قادرين على كسر شوكتِها. بنفس الطَّريقة غالباً ما تمنع الرَّوادع التي تفرضونها عادةً

على أنفسكم تلك الرَّغبات من أن تُولَدَ فيكم، أو من أن يتفلَّتَ خارجاً منكم فجأةً اللصُّ أو القاتل. فسطوةُ القيظِ في ظهيرةٍ من ظهيرات الصَّيف لم تستطعْ يوماً أن تُذيب القشرةَ عن استقامتكم المعتادة، ولا أن تؤجِّجَ فيكم للحظةٍ البهيمةَ الأصليَّة. يمكنكم أن تستنكروا.

ولكنْ، إذا رحتُ الآن أحدِّثكم عن يوليوس قيصر، هل سيملؤكم مجدُه الامبراطوريُّ بإعجابٍ كبير؟

- ابتذال!- ستهتفون. هو لن يكون، حينذاك، يوليوس قيصر. إنَّنا نجلُّه هناك فحسب، حيث يوليوس قيصر هو حقّاً هو.

رائعٌ جدّاً. حيث هو حقّاً هو. أترون إذاً؟ إذا كان يوليوس قيصر هو يوليوس قيصر هناك فحسب حيث تجلُّونه، فحين لا يعود موجوداً هناك، أين سيكون؟ مَنْ سيكون؟ لا أحد؟ أحداً ما؟ ومَنْ هو هذا الأحد؟

ينبغي أن نتوجَّه بهذا السُّؤال إلى كالبورنيا زوجتِه، أو إلى نيقوميديس مَلِكِ بيثينيا(*).

صفِّقوا صفِّقوا، ففي نهاية المطاف نفذَتْ إلى أذهاننا هذه الفكرة أيضاً: أنَّ يوليوسَ قيصر، واحداً، لم يكن له وجود. بلى، كان ثمَّة ذلك اليوليوس قيصر الذي كان، في الجزء الأكبر من حياته، يمثِّلُ نفسَه؛ وهذا اليوليوس قيصر كان يمتلك بلا شكٍّ قيمةً لا مثيل لها، أعظم من تلك التي امتلكها الآخرون(**)؛ لا من حيث كونه حقيقيّاً أو لا، صدِّقوني، أرجوكم، ففي النِّهاية ذلك اليوليوس قيصر الإمبراطوريُّ لم يكن حقيقيّاً أكثر من ذلك

---

*) منطقة قديمة في شمال غرب آسيا الصُّغرى؛ (م).

**) يقصد بالآخرين هنا التَّمظهراتِ الأخرى ليوليوس قيصر نفسِه؛ (م).

المتصنِّع المُضجِر الحليق بالكامل ونصف العاري والعديم الوفاء لزوجته كالبورنيا: أو من ذلك الذي بلغ أقصى درجات الفجور مع نيقوميديس مَلِك بيثينيا.

المشكلة هي دائماً هذه، أيُّها السَّادة: أنَّ كلَّ تلك التَّمظهرات كان يجب أن تُدعَى باسمٍ واحدٍ فقط هو ذلك الاسم "يوليوس قيصر"، وأنَّه في جسدٍ ذُكُوريٍّ واحدٍ كان على الكثير من الذُّكُور أن يتعايشوا ومعهم أنثى واحدة أيضاً؛ تلك التي، لشدَّة رغبتها في أن تكون أنثى، ولأنَّها لم تجد السَّبيل إلى ذلك في ذاك الجسد الذُّكُوري، كانت أينما وكيفما استطاعت، تُحقِّق أنثويَّتَها بصورةٍ شاذَّةٍ وفاجرة، واقعةً مرَّةً تِلْوَ مرَّة في الخطيئة.

أيَّاً ما كان، فالسَّاتيرُ الكامنُ في أعماقِ ماركو دِي دِيُّو المسكين تفلَّتَ خارجاً دفعةً واحدة، لِيُبتلى بمجموعةِ معلِّمه تلك. مأخوذاً على حين غرَّةٍ في ذلك المشهد الذي لم يدم أكثر من هُنيهة، حُكِم عليه بذلك المصير إلى الأبد. لم يَلْقَ أحداً يرغب في أن يلتفت إليه؛ وما إن خرجَ من سجنه، حتَّى راح يبني في الهواء أكثر التَّصاميم غرابةً، علَّها ترفعه من البؤس المُهين الذي سقط فيه، متأبِّطاً ذراعَ امرأة، امرأةٍ كانت قد أقبلتْ إليه ذات يومٍ، لا أحد يعرف كيف ولا من أين.

منذ ما يقارب العشر سنوات وهو يقول إنَّه سيغادرُ إلى إنجلترا الأسبوعَ المقبل. ولكنْ، يا تُرى هل أصبحت هذه السَّنوات العشر في عِداد الماضي بالنِّسبة إليه؟ إنَّها في عِداد الماضي بالنِّسبة إلى أولئك الذين سمعوه مِراراً وتكراراً يقول ذلك. لقد كان دائماً عاقدَ العزمِ على المغادرة إلى إنجلترا الأسبوعَ المقبل. وكان يدرس اللغة الإنجليزيَّة. أو على الأقلّ، منذ سنواتٍ

وهو يحتضن تحت ذراعه كتابَ قواعد اللغة الإنجليزيَّة، مفتوحاً ومطويّاً دائماً عندَ نفس النُّقطة، حيث إنَّ تينك الصَّفحَتَيْن المفتوحَتَيْن أصبحتا من أثر الاحتكاك بالذِّراع واتِّساخ السُّترة غير مقروءَتَيْن آنذاك، في حين أنَّ الصَّفحات التَّالية بقيتْ نظيفةً بصورةٍ لا تُصدَّق. بيدَ أنَّه إلى الحدِّ الذي وقفتْ عندَه القذارة كان قد تعلَّم. ومن وقتٍ إلى آخرَ كان يوجِّه على حين غرَّةٍ، في الذَّهاب أو الإياب، بعضَ الأسئلة إلى زوجته، مقطِّبَ الجبين، كما لو ليختبرَ مدى تأهُّبها ونُضجِ مستواها:

- Is Jane a happy child?(*)

وكانت الزَّوجة تجيب بتأهُّبٍ وجِدِّيَّة:

-Yes, Jane is a happy child.(**)

ذلك أنَّ الزَّوجة أيضاً كانت قد أزمعت على الرَّحيل معه إلى إنجلترا الأسبوعَ المقبل.

كان مَبعثَ صَدمةٍ، وشفقةٍ في نفس الوقت، هذا المشهدُ لامرأةٍ، كيف استطاع هو أن يستميلَها، وأن يجعلَها تحيا ككلبةٍ مُخلِصةٍ في كنفِ حُلمِهِ المثير للضَّحك، في أن يصبحَ مليونيراً بين عشيَّةٍ وضُحاها بابتكارٍ ما، كابتكارِ "مراحيض عديمة الرَّائحة لبلدانٍ لا مياه في منازلها". أتضحكون؟ لقد كانت جدِّيَّتهما صارمةً للغاية لهذا السَّبب؛ أعني، لأنَّ الجميع كانوا يضحكون منها. بل إنَّها كانت ضاريةً. وتغدو أكثر ضراوةً بكثير كلَّما تعاظمَ، من حولِها، ذلك الضَّحك.

---

*) بالإنجليزيَّة، وتعني: «هل جاين طفلة سعيدة؟»؛ (م).

**) بالإنجليزيَّة، وتعني: «أجل، جاين طفلة سعيدة»؛ (م).

وآنذاك كانا قد وصلا إلى تلك النُّقطة، أنَّه إذا ما توقَّف أحدٌ صُدفةً للإصغاء إلى تصاميمهما دون أن يضحك منها، بدلاً من أن يسرَّهما ذلك، كانا يحدجانه بنظرةٍ شزراء، ليست نظرة شكٍّ فحسب، بل وضغينةٍ أيضاً. ذلك أنَّ سخرية الآخرين كانت حينذاك الهواءَ الذي يتنفَّسُه حلمُهُما. فإذا ما تلاشت السُّخرية، تعرَّضا لخطر الاختناق.

لذا سأوضِّحُ كيف أنَّ أسوأ مُناويءٍ لهما كان والدي.

في الواقع لم يكن والدي يأذن لنفسِه بتلك النَّزوة الخيريَّة التي تحدَّثتُ عنها آنفاً معي أنا فحسب. كان مدعاةً لسروره أيضاً أن يُمهِّدَ السَّبيلَ، بسخاءٍ لا يَتعَب، وهو يرسمُ تلك الابتسامة المتفرِّدة، أمامَ الأوهام السَّاذجة لبعض أولئك الذين، كما هو شأن ماركو دِي دِيُّو، كانوا يبكون بين يَديْه حظَّهم العاثرَ في أنَّهم لا يملكون الكثير، لينجزوا على أرض الواقع تصاميمَهم، أحلامَهم: إنَّه الثَّراء!

- كَم؟- كان يسألُ والدي.

أوه، القليل فحسب. ذلك أنَّه كان دائماً قليلاً ذلك الذي كان يكفي أولئك لكي يُصبحوا أثرياء: مِل.يو.نِير.ات. وكان والدي ينفحهم المالَ.

- ولكنْ، كيف؟! لقد قلتَ لي إنَّكَ تحتاج القليل...

- بالفعل. لم أكن دقيقاً في حساباتي. ولكنْ، الآن، هو حقًّاً...

- كَم؟

- أوه، القليل فحسب!

وكان والدي يجودُ، ويجود. ولكنْ، بعد ذلك، في مرحلةٍ معيَّنة، يبلغ الأمرُ كفايتَه. وحينذاك لا يبقى أولئك، كما من السَّهل أن نفهم، ممتنِّين لعدم رغبته في التَّلذُّذ بسخريةٍ حتَّى النِّهاية بخيبةِ أملهم التَّامَّة وبإمكانيَّةِ أن ينسبوا إليه، دونما ندمٍ، وفي أحسن الأحوال، مسؤوليَّةَ إخفاقِ أوهامهم. ولا أحد أشدُّ استكلاباً من هؤلاء لكي ينتقم من والدي ناعتاً إيَّاه بالمرابي.

والأشدُّ استكلاباً على الإطلاق كان هذا الماركو دِي دِيُّو. هذا الذي، وقد أصبح والدي في عِداد الموتى الآن، صبَّ عليَّ، وليس بلا سببٍ، ضغينتَه الوحشيَّة. ليس بلا سببٍ، لأنَّني أنا الآخرُ، وتقريباً دونَ علمي، واصلتُ الإحسان إليه. آويتُه في كوخٍ من ممتلكاتي، لم يسأله يوماً كِراءً عليهِ لا فيربو ولا كوانتورتْسو. بلى، لقد أعطاني ذلك الكوخُ آنذاك الوسيلةَ، لأطبِّق عليه تجربتي الأولى.

-II-
ولكنَّه كان كُلَّاً واحداً

كُلَّاً واحداً، لأنَّه كان يكفي أن تتحرَّك في داخلي بالكاد، ولو على سبيل الدُّعابة، الرَّغبةُ في أن أقدِّمَ نفسي كشخصٍ مختلفٍ إلى واحدٍ من المائة ألفِ شخصٍ الذين كنتُ أحيا وراءَ جلودِهم، حتَّى تتحوَّلَ إلى مِائةِ ألفِ صورةٍ مختلفةٍ كلُّ إنياتي الحقيقيَّةِ الأخرى.

وهذه الدُّعابة، إذا ما تأمَّلتم الأمر جيِّداً، كان لا بدَّ وأن تُثمِرَ فيَّ جنوناً. أو بتعبيرٍ أفضل، أن تُثمِرَ هذا الرُّعبَ: وعيَ الجنون، الطَّريَّ والسَّاطعَ، أيُّها السَّادة، الطَّريَّ والسَّاطعَ كصبيحةِ يومٍ من نيسان، والجليَّ والثَّاقبَ مثلَ مرآة.

لأنَّني، بِسَيري صوبَ تجربتي الأولى تلك، إنَّما كنتُ أمضي لأضعَ رغبتي بخفَّةٍ خارجَ نفسي، كما لو كنتُ أُخرِجُ منديلاً من جيبي. أردتُ أن أقومَ بفِعلٍ لا ينبغي له أن يكون من شأني، بل من شأن ظلِّي، ذلك الظِّلِّ الذي كان يحيا حقيقتَه في إنيةٍ أخرى؛ الظِّلِّ الصَّلْدِ والبيِّنِ لدرجةٍ كنتُ معها قادراً أن أرفعَ قبَّعتي، وأحيِّيه، لولا ذلك القدر اللعين الذي كان يُرغمني على أن ألتقيه وأحيِّيه وهو يتنفَّس، ليس بالضَّبطِ فيَّ، وإنَّما في جسدي نفسِه، في الجسدِ الذي، إذْ لم يكن في حدِّ ذاته أحداً، كان من الممكن أن يكون مُلكاً لي وقد كان مُلكاً لي بما أنَّه كان يقدِّم لي صورةً عن نفسي، ولكنَّه من الممكن أيضاً أن يكون وقد كان فعلاً مُلكاً لذلك الظِّلِّ،

لتلك المِائةِ ألفٍ من الظِّلال التي كانت تُصوِّرني بمِائة ألفِ طريقةٍ حيَّاً ومختلفاً في عيون مِائةِ ألفِ إنيةٍ أخرى.

ولكنْ، في الواقع، ألم أكن أمضي نحوَ السَّيِّد ڤيتانْجِلو موسكاردا لكي أنصب له مكيدةً قذرة؟ إيه! بلى، أيُّها السَّادة، مكيدةً قذرة (عذراً لكلِّ هذه الغمزات؛ ولكنْ، لا بدَّ لي من الغمز، من الغمز بهذه الطَّريقة، لأنَّني، ولعدم تمكُّني من معرفةِ كيف أبدو لكم في هذه اللحظة، أجدُني أميلُ أنا أيضاً، مع هذه الغمزات، إلى التَّخمين) أيْ مكيدةً تتمثَّل في أن أسوقه إلى القيام بفِعلٍ مناقضٍ تماماً له وغيرِ مُترابطٍ: فِعلٍ، إذْ يدمِّرُ في لحظةٍ واحدةٍ منطقَ حقيقتِه، فإنَّه يُلغيهِ كُلِّيَّاً في عينَي ماركو دِي دِيُّو مثلما في عيون كُثرٍ آخرين؟

دون أن أقصدَ، يا لِبؤسي!، أنَّ عاقبةَ فِعْلٍ مِن هذا القبيل لا يمكنها أن تكون تلك العاقبةَ التي تخيَّلتُها: أيْ أن آتيَ، بعد ذلك، لأسألَ الجميع:

- أترون الآن، أيُّها السَّادة، أنَّه ليس صحيحاً على الإطلاق أنَّني ذلك المرابي الذي تريدون رؤيتَه فيَّ؟

ولكنَّ العاقبة كانت ستكون هذه بدلاً من تلك: أنَّ الجميع كانوا سيهتفون، مُستغربين:

- أوه، أوه! أسمعتم؟ لقد جُنَّ المرابي موسكاردا.

ذلك أنَّه من الممكن للمرابي موسكاردا أن يُجَنَّ، ولكنْ، لا يمكن له أن يتدمَّر هكذا في لحظةٍ واحدة، بسبب فِعلٍ مناقضٍ له وغيرِ مُترابط. هو لم يكن ظلاًّ مُعَدَّاً للَّهو به أو لاستصغارِ شأنه، المرابي موسكاردا: كان سيِّداً جديراً بأن يُعامَلَ بكلِّ أشكال الاحترام الواجبة، طولُه مترٌ وثمانيةٌ وستُّون،

أحمر الشَّعر مثلَ أبيه، مؤسِّسِ المصرف، مع ذينك الحاجبَيْن الشَّبيهَيْن بعلامَتَيْن من علاماتِ مَدِّ النَّبر، والأنفِ الذي يميلُ إلى اليمين كأنفِ ذلك الجينجيه الأبله الذي تؤثره زوجتي ديدا: سيِّداً، باختصارٍ، لو أنَّه جُنَّ، لا سمحَ الله، لجازفَ بأن يجرَّ معه إلى مستشفى المجانين كلَّ الموسكاردات الآخرين الذين كنتُهم أنا في نظرِ الآخرين بمَنْ فيهم، أوه، يا إلهي، ذلك الجينجيه المسكين غير المؤذي الذي لزوجتي ديدا؛ ومعه كذلك، إذا سمحتم لي، أنا الذي، بخفَّةِ عقلٍ، كنتُ أهازلكم مبتسماً.

لقد جازفتُ إذاً، أو بالأحرى جازفنا جميعاً، كما سوف ترون، بالانتهاء في مستشفى المجانين، منذ المرَّة الأولى؛ ولم يكفِنا ذلك. كان علينا أيضاً أن نجازفَ بحياتنا، لكي أستعيدَ نفْسي وأعثرَ في النِّهاية (أنا الواحد، واللاأحدُ، والمِائة ألف) على طريق الخلاص.

ولكنْ دعونا لا نستبق الأمور.

-III-
في مكتب تحرير العقود

ذهبتُ أوَّلَ الأمر إلى مكتب "ستامبا" لتحرير العقود والوثائق، في شارع كروتْشيفيسُّو، مبنى رَقْم ٢٤. لأنَّه (أوه، وهذه في الواقع تواريخُ دامغة) في اليوم... مِن عامِ...، عندما تسلَّمَ ڤيتُّوريو إيمانويلِهْ الثَّالث(*) بفضلِ من اللهِ ومشيئةٍ من الشَّعب عرشَ إيطاليا في مدينة ريكْييري النَّبيلة، في شارع كروتْشيفيسُّو، مبنى رَقْم ٢٤، تولَّى السَّيِّد ستامبا إلْبيديو، الذي كان آنذاك في الثَّانية والخمسين أو الثَّالثة والخمسين من عمره، مكتبَ تحرير العقود الملَكِيِّ.

- هل ما يزال هناك؟ في المبنى رَقْم ٢٤؟ أتعرفون جميعاً محرِّرَ العقود "ستامبا"؟

أوه، فإذاً يمكننا أن نكون على يقينٍ بأنَّنا لن نخطئ. إنَّه ذلك المحرِّرُ "ستامبا"، الذي نعرفه جميعاً. حسناً؟ ولكنَّني كنتُ، حين دخلتُ ذلك المكتب، في حالةٍ مزاجيَّةٍ لا تستطيعون تخيُّلَها. وكيف لكم أن تتخيَّلوها، عُذراً، إذا كان ما يزال يبدو لكم أنَّ الشَّيء الأكثر طبيعيَّةً في العالَم هو دخولُ مكتبِ محرِّرٍ للعقود لتحرير عقدٍ ما، وإذا كنتم تقولون إنَّكم تعرفونه جميعاً هذا المحرِّرَ "ستامبا"؟

---

*) آخر ملوك مملكة إيطاليا، وُلِدَ في مدينة نابُولي سنة ١٨٦٩م، وتوفيِّ سنة ١٩٤٧م في مدينة الإسكندريَّة بمصر، ودُفن فيها. حملَ لقب ملك إيطاليا (١٩٠٠-١٩٤٦)، وإمبراطور إثيوبيا (١٩٣٦-١٩٤٢)، وملك ألبانيا (١٩٣٩-١٩٤٣)؛ (م).

أقولُ إنَّني ذهبتُ إلى هناك، في ذلك اليوم، للقيام بتجربتي الأولى. والحاصلُ، هل ترغبون أنتم أيضاً، نعم أم لا، في خوضِ هذه التَّجربة معي، ولو لمرَّةٍ واحدة؟ أعني، هل ترغبون في استيعاب هذه المزحةِ المرعبة التي تربض تحت الطَّبيعةِ المسالمة للعلاقات اليوميَّة، لتلك العلاقات التي تبدو لكم جدُّ مُعتادةً وطبيعيَّة، وتحت المظهر الهادئ لِما يُسَمَّى حقيقةَ الأشياء؟ المزحة التي يحدث لكم، أوه، أيُّها الرَّبُّ القدُّوس، أن تغضبوا بسببها كلَّ خمس دقائق، وتصرخوا في وجه الصَّديق الذي بجانبكم:

- ولكنْ، معذرةً! كيف لا ترى هذا؟ هل أنتَ أعمى؟

وهو لا، لا يراه، ذلك أنَّه يرى شيئاً آخرَ، في حين تعتقدون أنتم أنَّ عليه أن يرى الشَّيء الذي ترونه، كما يبدو لكم. بيد أنَّه يراه كما يبدو له هو، وبالنِّسبة إليه، فإنَّ الأعمى هو أنتم.

هذه المزحة، سأُحدِّثكم عنها؛ سأخبركم كيف استوعبتُها.

ها قد دخلتُ ذلك المكتب، مُثقَلاً بكلِّ الأفكار والاعتبارات التي حضنتُها طويلاً؛ وكنتُ أشعرُ بها كما لو كانت تغلي وتفورُ معاً في داخلي، بجيشانٍ كبير؛ وكنتُ أريدُ في الوقت نفسِه أن أبقى هكذا، في ثباتٍ واضحٍ، في ما يشبه البرودَ المتحجِّرَ، بينما لكم أن تتخيَّلوا بأيِّ ضحكةٍ مدوِّيةٍ أوشكت أن أنفجرَ لدى رؤيتي له واقفاً أمامي في منتهى الجدِّيَّة، ذلك المسكين، السَّيِّد "ستامبا" محرِّر العقود، دون أن يعتريه أدنى شكٍّ في احتمالِ ألَّا أكون في نظر نفسي ذاك الذي كان يراه هو، ومتيقِّناً في نفس الوقت من أنَّه بالنِّسبة إليَّ نفسُ ذلك الشَّخص الذي يرى كلَّ يومٍ نفسَه وهو يعقدُ ربطةَ العنقِ السَّوداء أمامَ المرآة، مع كلِّ الأشياء المحيطةِ به.

أفهمتم الآن؟ لقد اعترتني رغبةٌ في الغمز، في أن أغمز إليه أيضاً، لأشيرَ له بخبثٍ "حذارِ! حذارِ!". رغبتُ أيضاً، أوه، يا إلهي، في أن أُخرِجَ له فجأةً لساني، وأن أُحرِّك أنفي في كشرةٍ مُباغِتة، كيما أُغيِّرَ له فجأةً، على سبيل المزاح ودونما حَرازةٍ، تلك الصُّورة التي كان يحسبها صورتي الحقيقيَّة. ولكنْ، أكنتُ جادّاً في هذا؟ كنتُ جادّاً، بلى، جادّاً. كان عليَّ أن أنفِّذَ التَّجربة.

- إذاً، سيِّدي المحرِّر، ها أنا هنا. ولكنْ، عُذراً، أتكون غارقاً على الدَّوام في هذا الصَّمت؟

التفتَ بحدَّةٍ ليروزني بناظريه، وقال:

- صمتٌ؛ أين؟

في الواقع كان ثمَّة في تلك اللحظة مرورٌ متواصلٌ للنَّاس والعربات في شارع كروتْشيفيسُّو.

- أجل؛ ليس في الشَّارع، بطبيعةِ الحال. ولكنْ، ثمَّة هنا كلُّ هذه الأوراق، سيِّدي المحرِّر، خلفَ زجاجِ هذه الرُّفوف المغبَّر. ألا تسمع؟

بين المضطرب والسَّاهي، عادَ يروزني بناظرَيْه؛ ثمَّ أصغى:

- أسمعُ ماذا؟

- هذا الحفيف! آه، إنَّهما القَدَمَان الصَّغيرتان، عُذراً، القَدَمَان الصَّغيرتان لعصفورِكَ الكناريِّ؛ عُذراً عُذراً. إنَّهما طويلتا البراثن تينك القَدَمَيْن، وإذْ تحُكَّان توتياءَ القفص...

- نعم. بلى. ولكنْ، ماذا يعني ذلك؟

- أوه، لا شيء. ألا تثير أعصابكَ صفيحةُ التُّوتياء هذه، سيِّدي المحرِّر؟

- صفيحةُ التُّوتياء؟ ولكنْ، مَنْ يكترث لأمرها؟ أنا لم ألحظْ وجودَها حتَّى...

- ومع ذلك، فكِّرْ في الأمر! صفيحةُ توتياء، في قفصٍ، تحت القَدَمَيْن الرَّهيفَتَيْن لكناريٍّ، داخلَ مكتب مُحرِّرِ عقودٍ... أراهن على أنَّه لا يغرِّدُ، هذا الكناريَّ.

- لا، أيُّها السَّيِّد، إنَّه لا يُغرِّد.

بدأ السَّيِّدُ محرِّرُ العقود يرمقني بطريقةٍ معيَّنة، فأبديتُ إعجابي بحكمته في ترك الكناريِّ هناك لئلَّا يُفتضَحَ أمرُ التَّجربة؛ هذه التي كانت تقتضي، أقلُّه من حيث المبدأ، وعلى وجه الخصوص هناك، في حضرةِ محرِّرِ العقود، ألَّا يُثارَ أيُّ شكٍّ حولَ قدراتي العقليَّة. ثمَّ سألتُ محرِّرَ العقود إن كان يعرف ذلك المنزل، الواقع في ذلك الشَّارع الذي يحمل ذلك الرَّقْم، والذي تعود ملكيَّته لذلك السَّيِّد المَدعوِّ ڤيتانْجِلو موسكاردا، نجلُ الرَّاحل فرانْتْشِسكو أنطونيو موسكاردا...

- أوَلستَ هوَ؟

- بلى، إنَّه أنا. بالتَّأكيد أنا...

كم كان رائعاً، واحسرتاه!، ونحن في مكتب تحرير العقود ذاك، وسطَ كلِّ تلك الأوراق المصفرَّة على تلك الرُّفوف القديمة المغبرَّة، الحديثُ هكذا، كما لو أنَّ قروناً تفصل بيني وبينه، عن بيتٍ بعينِه يملكه شخصٌ

بعينه هو ذلك الموسكاردا ڤيتانْجِلو... لاسيَّما وأنَّني كنتُ هناك؛ حاضراً وطرَفاً من طرفيَ العقد، في مكتب تحرير العقود ذاك، بيدَ أنَّه لا أحد يعلم كيف كان ينظر هو، السَّيِّدُ محرِّرُ العقود، إلى مكتبه؛ وأيَّ رائحةٍ مختلفةٍ عمَّا كنتُ أشمُّها أنا كان يشمُّها هو هناك؛ ولا أحد يعلم كيف وأين كان، في عالَمِ السَّيِّد محرِّر العقود، ذلك البيتُ الذي كنتُ أحدِّثه عنه بصوتٍ قادمٍ من بعيد؛ وأنا، أنا نفسي، في عالَمِ السَّيِّد محرِّر العقود، مَنْ يعلم كم كنتُ أبدو غريباً...

آه، تلك هي لذَّة التَّاريخ، أيُّها السَّادة! لا شيء يوفِّرُ الرَّاحة أكثر من التَّاريخ. كلُّ شيءٍ في الحياة يتغيَّر باستمرارٍ تحت أنظاركم؛ لا شيء يقينيٌّ؛ وهذا الهاجسُ الذي لا يهدأ لمعرفةِ كيف تُرسَمُ الصُّدَف، لرؤيةِ كيف تُحدَّد الوقائع التي تُبقيكم أسرى آلامٍ كبيرةٍ وقلقٍ كبير! كلُّ شيءٍ مرسومٌ، كلُّ شيءٍ مُحدَّدٌ، على النَّقيض من ذلك، في التَّاريخ: بقدر ما هي مؤلمةٌ الأحداث ومُحزنةٌ الوقائع، هي ذي هناك، مُنسَّقةٌ، على الأقلِّ، ومثبَّتةٌ في كتابٍ من ثلاثين أو أربعين صفحة: هي ذي، هناك؛ هي التي لن تتغيَّرَ بعد ذلك أبداً، أقلُّه ما لم تشعر روحٌ نقديَّةٌ خبيثةٌ برغبةٍ خبيثةٍ في هَدْمِ ذلك البناء المثاليِّ، حيث جميع العناصر يتضامُّ بعضُها إلى بعضٍ بتجانسٍ جميلٍ جدَّاً، فيما أنتم مستريحون في مكانكم تتحيَّرون كيف أنَّ كلَّ معلولٍ يتبعُ طوعاً علَّته بتسلسلٍ منطقيٍّ تامٍّ، وكلَّ حدَثٍ يتطوَّرُ بدقَّةٍ وترابُطٍ في كلِّ تفصيلٍ من تفاصيله، مع سيِّدي، دوق نيڤر، الذي في ذلك اليوم، من ذلك العام، وهلمَّ جرَّاً، هلمَّ جرَّاً.

لكيلا أُفسدَ كلَّ شيءٍ، كان عليَّ أن أقتاد نفسي ثانيةً إلى الحقيقةِ المعلَّقةِ والمؤقَّتةِ والمذعورةِ للسَّيِّد محرِّر العقود.

- بلى، إنَّه أنا،- سارعتُ إلى القول. - بالتَّأكيد أنا، سيِّدي المحرِّر. أمَّا البيت، فلن تجد صعوبةً، أليس كذلك؟ لن تجد صعوبةً في الإقرار بأنَّه ملكٌ لي، كما هو شأن كلِّ تَركات الرَّاحل فرانتْشِسكو أنطونيو موسكاردا والدي. نعم! وأنَّه شاغرٌ الآن هذا البيتَ، سيِّدي المحرِّر. أوه، وصغيرٌ، أتعلم... لعلَّها خمسُ أو ستُّ غرَفٍ، مع جناحَيْن واطئَيْن - أليس هذا هو المصطلح الذي تستخدمونه؟- يا لِجمالهما، هذان الجناحان الواطئان... ولكنَّه شاغرٌ على أيَّة حالٍ، سيِّدي المحرِّر؛ ويمكنني أن أتصرَّف فيه كما يحلو لي. الآن إذاً، ينبغي لكَ...

وهنا انحنيتُ وبصوتٍ هامسٍ، مع كثيرٍ من الجدِّيَّة، أفضيتُ إلى السَّيِّد محرِّر العقود بالإجراء الذي كنتُ أنوي القيامَ به والذي لا أستطيع هنا، وفي هذه اللحظة، إخباركم به، لأنَّه، قلتُ له:

- يجب أن يبقى بيني وبينكَ، سيِّدي المحرِّر، وألَّا يخرج عن أصول السِّرِّيَّة المهنيَّة، ما دمتُ أرى ذلك. اتَّفقنا؟

اتَّفقنا. ولكنَّ السَّيِّد محرِّر العقود لفتَ نظري إلى أنَّ القيام بإجراءٍ من هذا القبيل يحتاجُ بعضَ البيانات والوثائق التي تتطلَّب منِّي الذَّهاب إلى المصرف لكي أحصل عليها من كوانتورتْسو. شعرتُ بخيبةِ أملٍ؛ ومع ذلك انتصبتُ متأهِّباً للخروج. وفيما كنتُ أتحرَّك، انبجست فيَّ فجأةً رغبةٌ لعينةٌ في أن أسأل السَّيِّدَ محرِّرَ العقود:

"عذراً: كيف هي مشيتي؟ لعلَّكَ تستطيع على الأقلِّ أن تقول لي كيف تبدو لكَ!"

حاولتُ بشقِّ الأنفسِ لجمَ نفسي؛ ولكنَّني لم أستطع إلَّا أن ألتفتَ، وأنا أفتح البابَ الزُّجاجيَّ، وأن أقولَ له بابتسامةٍ رَحوم:

- حسناً، مع مِشيتي هذه، أشكركَ!

- ما الذي تقوله؟- سألَ محرِّرُ العقودِ مشدوهاً.

- آه، لا شيء، كنتُ أقولُ وحسب إنَّني مُغادرٌ بمِشيتي هذه، سيِّدي المحرِّر. ولكنْ، أتعلم أنَّني رأيتُ مرَّةً حصاناً يضحك؟ نعم، يا سيِّدي، رأيتُ ذلك، فيما كان الحصان يمشي. والآن، ستذهب أنتَ لتنظرَ إلى خطمِ حصانٍ كي ترى ضحكته، ثمَّ ستعود لتخبرني أنَّكَ لم تره يضحك. ولكنْ، ما شأن الخطم! الأحصنة لا تضحك عبرَ خطومها، على الإطلاق! أتعلمُ عبرَ ماذا تضحك الأحصنة، سيِّدي المحرِّر؟ عبرَ أردافها. بلى، أؤكِّد لكَ أنَّ الحصان وهو يمشي يضحك بين الفينة والأخرى عبرَ ردفَيْه، لبعض الأشياء التي يراها أو التي تجولُ في رأسه. ولذلك، إذا أردتَ أن ترى حصاناً يضحك، انظرْ إلى ردفَيْه، ولن تُخطئ أبداً!

أعلمُ أنَّ ما قلتُه له لا صلةَ له بالموضوع. أعلمُ ذلك كلَّه. ولكنْ، عليَّ أن أضعَ نفسي في الحالة النَّفسيَّة التي كنتُ فيها آنذاك. فحين كنتُ أرى عيونَ النَّاس منصبَّةً عليَّ كان يبدو لي أنَّني خاضعٌ لبطش قوَّةٍ رهيبةٍ جرَّاء تفكيري في أنَّ كلَّ تلك العيون كانت تسبغ عليَّ صورةً، لم تكن قطعاً الصُّورةَ التي كنتُ أعرفها، بل أخرى لم يكن في مُكنتي، لا أن أعرفها، ولا أن أتفاداها؛ فكانت تنزع بي نفسي ليس إلى أن أقول لهم فحسب، بل أيضاً إلى أن أفعل لهم - أن أفعلَ لهم - بعض الحماقات، كأن أتشقلبَ في الشَّارع، أو أتنطَّطَ مثلَ كرة، غامزاً تارةً، ومُخرِجاً لساني وراسماً على وجهي سيماءَ سُخرية تارةً أخرى... ولكنْ، بدلاً من ذلك، كنتُ أسلك الطَّريق بكلِّ ما استطعتُ من جدِّيَّةٍ ووقار. وأجملُ ما في المسألة أنَّكم أنتم أيضاً، كلُّكم، كنتم تسلكون طريقكم بكلِّ ما أوتيتم من جدِّيَّةٍ ووقار...

-IV-
الشَّارعُ الرَّئيس

كان عليَّ، إذاً، أن أذهب إلى المصرف لأجل تلك الأوراق التي كان محرِّرُ العقود يحتاجها بخصوص المنزل. تلك الأوراق كانت أوراقي، لا شكَّ في ذلك، نظراً إلى أنَّ ذلك المنزل كان منزلي، وإلى أنَّه كان في مُكنتي أن أتصرَّف فيه كما أشاء. ولكنْ، إذا ما فكَّرتم في الأمر جيِّداً، فإنَّ تلك الأوراق، ومع أنَّها أوراقي، لم يكن في وسعي الحصول عليها إلَّا بالسَّطو عليها أو بانتزاعها في فورةِ غضبٍ مجنونةٍ من يَدَي آخرَ هو في عيون الجميع مالكُها الشَّرعيُّ: أقصدُ السَّيِّدَ ڤيتانْجِلو موسكاردا، المرابي.

بالنِّسبة إليَّ كان ذلك واضحاً، لأنَّني كنتُ أرى ذلك المرابي المَدعوَّ ڤيتانْجِلو موسكاردا من الخارج، حيَّاً في الآخرين، وليس فيَّ. ولكنْ، في نظر الآخرين الذين كانوا لا يرون فيَّ سوى ذلك المرابي، فإنَّني كنتُ في طريقي إلى المصرف، لأسرق من نفسي تلك الأوراق أو لأنتزعها من بين يَدَيَّ بجنون.

وهل كان من الممكن، يا تُرى، أن أقول إنَّني لستُ أنا؟ أو إنَّني كنتُ أحداً آخرَ؟ لم يكن ثمَّة سبيلٌ إلى استنباطِ أيِّ عملٍ ينزعُ إلى أن يبدو، في عيون الآخرين كلِّهم، مناقِضاً ومُخالِفاً لي.

واصلتُ المُضِيَّ، كما ترون، وأنا في كامل وعيي، عبرَ الشَّارع الرَّئيس لجنوني، والذي لم يكن غيرَ الشَّارع الرَّئيس لحقيقتي نفسِها، هذه التي

كانت قد تشعَّبت آنذاك بإبهارٍ أمامي، مع اشتباهات صوري كلِّها، الحيَّةِ والمنعكسةِ والسَّائرة قُدُماً إلى جانبي.

ولكنَّني كنتُ مجنوناً بالضَّبط لأنَّني امتلكتُ ذلك الوعيَ الدَّقيقَ والنَّافذَ البصيرة. أمَّا أنتم، من جهةٍ أخرى، أنتم السَّائرون في نفس الشَّارع دون رغبةٍ في أن تُلقوا بالاً إلى ذلك، فإنَّكم الحكماء، وحكمتكم هذه تزدادُ بقدرِ ما يعلو صراخكم في وجه مَنْ يسير إلى جانبكم:

- أنا، هذا؟ أنا، هكذا؟ إنَّكَ لَأعمى! إنَّكَ لَمجنون!

-٧-

استئساد

السَّطوُ، على أيَّةِ حالٍ، لم يكن ممكناً، أقلُّه في البداية. لم أكن أعلم أين هي تلك الأوراق. فأدنى مرؤوسي كوانتورتْسو أو فيربو منزلةً كان يملك في ذلك المصرف سلطةً أعلى من سلطتي. عندما دخلتُ، ولدى استدعائي للتَّوقيع، لم يرفع الموظَّفون عيونَهم قيدَ شعرةٍ عن سجلَّاتهم، وإن حصلَ ورمقني أحدُهم بنظرةٍ، فإنَّ تلك النَّظرة كانت تُظهِرُ بوضوحٍ كبيرٍ أنَّ صاحبَها لم يكن يحسب لي أيَّ حساب.

مع ذلك، كانوا جميعهم هناك يعملون بهمَّةٍ عاليةٍ لأجلي، لكي يُثْبِتوا أكثر وأكثر عبرَ عملهم الدَّؤوب ذاك الفكرةَ البئيسةَ التي كانت سائدةً عنِّي في البلدة، أنَّني كنتُ مرابياً. ولم يكن ليخطرَ في بالِ أحدٍ أنَّني، بدلاً من أن أكون ممتنَّاً وميَّالاً إلى مجاملتهم والإطراء على حماستهم، كنتُ أشعرُ بالامتعاض من ذلك.

آهِ، أيُّ جوٍّ من الصَّرامة والملل والكآبة كان يخيِّمُ في ذلك المصرف! كلُّ تلك الفواصل الزُّجاجيَّة الممتدَّة في صفٍّ واحدٍ على طولِ الغرف الثَّلاث الكبيرة، فواصل من زجاجٍ مُصنفَرٍ، مع خمسِ كوىً صفراء في كلِّ فاصلٍ، بنفس درجةِ الصُّفرةِ التي كانت للأفاريز، وكذلك لمنجورِ النَّوافذ الزُّجاجيَّةِ العريضة؛ وبقعُ خبرٍ هنا وهناك؛ والشَّرائط الورقيَّة المُلصَقَة على كسور الألواح الزُّجاجيَّةِ هنا وهناك؛ والبلاطُ الذي من طوبِ طينٍ نضيجٍ،

المتَحاتُّ في المنتصف، على امتدادِ صفِّ الغرف الثَّلاث؛ المتَحاتُّ كذلك أمام كلِّ كوَّةٍ من الكوى: يا لهُ ممرَّاً موحِشاً، بين زجاجِ تلك الفواصل هنا والزُّجاج المغبرِّ للنَّوافذ العريضة هناك، نافذتَيْن لكلِّ غرفة؛ وتلك السِّلسلة من الرُّموز والأرقام المرسومة بأقلام الحبر، أو الرَّصاص، على طول الجدار، فوق الطَّاولات الصَّغيرة الملطَّخةِ بالحبر، بين النَّافذة والأخرى، تحت البراويز المتقشِّرة لبعض اللوحات الزَّيتيَّة البالية المبقَّعة بالسُّخام هنا وهناك، والمنتفخة والمغبرَّة؛ ورائحةُ عفنٍ قديمٍ راكدةٌ في كلِّ مكان، ممزوجةٌ بتلك الرَّائحة اللاذعة لأوراق السِّجلَّات وبذلك الهواءِ المحروقِ الفائحِ من فرنٍ في الأسفل، في الطَّابق الأرضي. ثمَّ ذلك الكربُ القانطُ لبضعِ كراسٍ قديمةِ الطِّراز لا يجلسُ عليها أحدٌ، موضوعةٍ عند الطَّاولات الصَّغيرة، مُزاحَةٍ ومتروكةٍ هناك، في مكانٍ لا تنتمي إليه، حتَّى إنَّني لا أشكُّ لحظةً في أنَّ الأمرَ بدا لتلك الكراسي العقيمة البائسة وكأنَّها أهمِلَتْ على سبيل العقاب والإهانة.

وكم من مرَّةٍ، دخلتُ فيها هذا المكان، خطرَ ببالي أن أعلِّق:

"ولكنْ، لِمَ هذه الكراسي؟ لماذا حُكِمَ عليها بأن تظلَّ واقفةً هنا، إذا لم يكن ثمَّة مَنْ يعبأ باستخدامها؟"

ولكنَّني كنتُ أكبحُ نفسي، لا لأنَّني أدركتُ مُسبَّقاً وفي الوقتِ المناسب أنَّ الرَّأفة بالكراسي، في مكانٍ كهذا، أمرٌ من شأنه أن يصعق الجميع وأن يُظهرَني ربمَّا في مظهر الكلبيِّ المتهتِّك: كنتُ أكبحُ نفسي، بالأحرى، لأنَّني أدركتُ أنَّني بقولِ ذلك ما كنتُ لأفعلَ سوى أن أُضحِكَ عليَّ، لمثل ذلك الاهتمام بشيءٍ لا بدَّ وأن يبدوَ خارجاً عن المألوف، مَنْ كان يعلمُ أنَّني لم أكن أولي إلَّا القليل من الاهتمام لمسائل العمل.

في ذلك اليوم، حين دخلتُ، وجدتُ الموظَّفين وقد تجمَّعوا معاً في آخر غرفةٍ من الغرف الثَّلاث الكبيرة، وهم يطلقون الضَّحكات بين الفينة والأخرى شهوداً لمشاحنةٍ بين إسْتِفانو فيربو وشخصٍ يُدعَى تورولَّا، كان هدفاً لسخريةِ الجميع حتَّى للطَّريقة التي كان يرتدي بها ملابسَه. فسترةٌ طويلةٌ، كما كان من عادةِ المسكين تورولَّا أن يقول، على قامته القصيرة جدَّاً، كان من شأنها أن تجعله يبدو أكثر قصراً بعدُ. وقد كان مُحِقَّاً. ولكنْ، في الوقت نفسه فإنَّ هذا الرَّجلَ القصيرَ والقميءَ والمتَّسمَ بالأبَّهة، مع ذينك الشَّارِبَيْنِ الشَّبيهَيْنِ بشاربَيْ ضابطِ صفٍّ، لم يكن يدرك كم كان يبدو مضحكاً من الخلف بتلك السُّترة المقصَّرة وقد كشفت عن ردفَيْنِ صلبَيْنِ ومتماسكَيْنِ.

في تلك الأثناء وهو يقف على شفير البكاء، منكسرَ النَّفس، ومحتقناً، ومجلوداً بضحكات زملائه، رفعَ ذراعاً صغيرةً في وجه فيربو قائلاً:

- يا إلهي، كيف تنتزع الكلمات!

كان فيربو يُشرِفُ عليه من أعلى ويصرخ في وجهه، هازّاً إيَّاه باهتياجٍ من تلك الذِّراع المرفوعة:

- هكذا يبدو لكَ الأمرُ إذاً! ولكنْ، ما الذي تعلمه أنتَ؟ ما الذي تعلمه؟ إنَّكَ لا تعلم أدنى شيءٍ عن ذلك!

علمتُ أنَّ الجدال كان يدورُ حول شخصٍ كان قد طلب قرضاً من المصرف، بعد أن قدَّمَه تورولَّا قائلاً إنَّه رجلٌ شريفٌ من معارفه، فيما ادَّعى فيربو العكسَ، وعندَ سماعِ ذلك شعرتُ برغبةٍ عنيفةٍ في التَّمرُّد تمزِّق روحي.

وإذْ كنتُ غافلاً عن العذاب السِّرِّيِّ لروحي، فإنَّ أحداً منهم لم يستطع

أن يفهمَ سببَ ذلك، وكاد أن يُغمى على الجميع عندما دفعتُ فجأةً إلى الوراء اثنَيْن أو ثلاثةً من أولئك الموظَّفين:

- وماذا عنكَ؟- صحتُ في فيربو،- ما الذي تعلمه أنتَ؟ بأيِّ حقٍّ تستأسدُ على الآخرين بهذا الشَّكل؟

التفتَ فيربو لينظر إليَّ مشدوهاً، كما لو أنَّه لم يصدِّق عينَيْه، إذ رآني هناك، وصاح:

- هل أنتَ مجنون؟

لا أعلم كيف وقعَ الأمر، ولكنَّني قذفتُ في وجهه بإجابةٍ حاذقةٍ، جمَّدَت الدِّماء في عروق الجميع:

- نعم؛ مثلَ زوجتكَ التي يتوجَّبُ عليكَ أن تُبقيها حبيسةً في مستشفى المجانين!

وقف أمامي شاحباً ومرتعشاً:

- ما الذي قلتَه؟ يتوجَّب عليَّ ماذا؟

هززتُ كتفيَّ، ومُتكدِّراً من الهلع الذي أصاب الجميع، وفي نفس الوقتِ مُصَمِّاً على حين غرَّةٍ من صوت الوعي الباطنيِّ الذي كان يُخبرني بأنَّ مداخلتي تلك كانت في غير محلِّها، أجبتُه بهدوءٍ، لكي أقطعَ دابرَ المسألة:

- بلى، أنتَ تعرف ذلك حقَّ المعرفة.

ثمَّ لا أعرف كيف أصف لكم ما حدث بعدئذٍ؛ بيدَ أنَّني لم أعد قادراً،

كما لو أنَّني بعد هاتيك الكلمات تحوَّلتُ فجأةً إلى حجر، على سماعِ ما كان يزمجر به فيربو من بين أسنانه قبل أن يندفعَ إلى الخارج باهتياج. أعلمُ أنَّني كنتُ أبتسم عندما كان كوانتورتْسو، وقد أتى إلى مكان المشاجرة فجأةً، يجرُّني معه بعيداً إلى غرفةِ الإدارة. ابتسمتُ لأُظهِرَ أنَّه لم تعد ثمَّة حاجةٌ لسَورةِ الغضب تلك، وأنَّ المسألة كلَّها قد انقضت، مع أنَّني كنتُ أشعرُ في أعماقي وبدرجةٍ كافيةٍ من الوضوح، بأنَّني كنتُ قادراً في تلك اللحظة، اللحظة التي كنتُ أبتسمُ فيها، على قتلِ أحدِهم، لشدَّةِ ما ألهبتني قسوةُ كوانتورتْسو المهتاجة. في غرفةِ الإدارة رحتُ أجيلُ النَّظرَ من حولي، مندهشاً أنا نفسي كيف أنَّ ذلك الخدَر الغريب الذي سقطتُ في لحظةٍ واحدةٍ في مهاويه لم يمنعني من رؤية الأشياء بدقَّةٍ ووضوح، حدَّ أنَّني كنتُ أميلُ حيال ذلك الموقف إلى السُّخرية، فتدفَّقتْ من فمي، في خضمِّ التَّوبيخ الحادِّ اللهجة الذي راح كوانتورتْسو يُمطرني به، بعضُ الأسئلة ذات الفضول الطُّفوليِّ حول هذا الشَّيء أو ذاك من الأشياء الموجودة في الغرفة. وفي الوقت نفسِه، لا أعلم لماذا فكَّرتُ، بشيءٍ من التِّلقائيَّة، في إسْتِفانو فيربو حين كان صبيَّاً، وكيف جعلوا له أزراراً من الخلف، لئلَّا تُرَى حدبته، إلَّا أنَّه بذلك الغلاف المحيط بالجزء العلويِّ من جسده بدا كلُّه وكأنَّه حدبة: بلى، فوق تينك السَّاقَيْنِ الهزيلَتَيْنِ والطَّويلَتَيْنِ كساقَي طائر: ولكنَّه متأنِّقاً كان؛ بلى بلى: كان ذلك المتأنِّقَ الزَّائفَ الحدبة، البارعَ التَّحوُّل.

وفيما كنتُ أفكِّرُ على ذلك المنوال، بدا لي فجأةً وبوضوحٍ أنَّه كان لا بدَّ له أن يستعمل ذكاءه الخارج عن المألوف، لينتقم من جميع أولئك الذين لم يمتلكوا مثله، في طفولتهم، أزراراً من الخلف.

كنتُ أفكِّر في هذه الأمور، أكرِّرُ مرَّةً أخرى، كما لو أنَّ شخصاً آخر

في داخلي كان يفكِّر فيها، شخصاً أصبحَ في لمح البصر باردَ الأعصاب ومشتَّتَ الذِّهن على نحوٍ غريب، لا ليجعلَ من تلك البرودةِ ضرباً من ضروب التَّحصين إذا اقتضى الأمر وحسب، بل من بابِ أولى، ليجسِّدَ ذلك الجانب الذي كان ما يزال يجدر بي أن أخفيَ وراءَه كلَّ الأشياء التي كنتُ لا أنفكُّ أكتشفها حيال تلك الحقيقة المرعبة التي باتت بالفعلِ جليَّةً بالنِّسبة إليَّ:

"نعم! هنا يكمن كلُّ شيء،" فكَّرتُ، "في هذا الاستئساد. كلُّ امرئٍ يريد أن يفرض على الآخرين ذلك العالَمَ الكامنَ في داخله، كما لو كان كياناً خارجيّاً، كما لو كان على الجميع أن ينظروا إليه من منظوره هو، وكما لو كان من المحال أن يوجَدَ الآخرون إلَّا كما يراهم هو."

عادت إليَّ مرَّةً أخرى، في لمحةٍ عابرة، الوجوهُ البَلهاء لأولئك الموظَّفين، وواصلتُ التَّفكير:

"بلى! بلى! أيُّ ضربٍ من الحقائق يمكن أن تكُونه تلك الحقيقة التي يُفلِحُ أكثرُ البشر في تكوينها داخلَ أنفسهم؟ بالية، وزائلة، وملتبسة. والمستأسدون، كما ترون، يستفيدون من ذلك! أو بالأحرى، يوهمون أنفسهم بأنَّهم قادرون على الاستفادة من ذلك، بإخضاعنا وإرغامنا على قبول ذلك المعنى وتلك القيمة اللذَيْن يسبغونهما على أنفسهم، وعلى الآخرين، وعلى الأشياء، لكي نرى ونسمع ونفكِّر ونتكلَّم على طريقتهم هم."

نهضتُ من جلستي؛ ودنوتُ من النَّافذة بارتياحٍ كبير؛ ثمَّ التفتُّ نحو كوانتورتْسو الذي لبث يُحدِّق فيَّ بعدما قوطِعَ وهو في منتصف خطابه؛ ومسترسلاً في الهاجس الذي كان يعذِّبني، قلتُ له:

- آه، بلى! آه، بلى! إنَّهم يوهمون أنفسَهم!

- مَنْ الذي يوهم نفسَه؟

- أولئك الذين يحاولون الاستئساد! السَّيِّد فيربو، على سبيل المثال! إنَّهم يوهمون أنفسَهم، لأنَّهم في حقيقة الأمر، يا عزيزي، لا ينجحون في فرض شيءٍ سوى الكلمات. كلماتٍ، كلمات، أتفهم؟ كلماتٍ كلُّ واحدٍ يسمعُها ويردِّدها بالطَّريقة التي تناسبُه. ولكنْ، علينا ألَّا ننسى أنَّ هذه الكلمات هي ما يشكِّل في النِّهاية ما يُسَمَّى بالرَّأي العامّ! وويلٌ لمَنْ يجد نفسَه ذات يومٍ موسوماً بإحدى تلك الكلمات التي يردِّدها الجميع. على سبيل المثال: مُرابٍ! أو على سبيل المثال: مجنون! ولكنْ، هلَّا توضِح لي قليلاً: كيف يمكن لكَ أن تبقى هادئاً وأنتَ تفكِّر في أنَّ هناك مَنْ يبذل قصارى جهده لإقناع الآخرين بأنَّكَ كما يراكَ هو، وليُرسِّخ صورةً عنكَ في نظر الآخرين وفقاً للرَّأي الذي كوَّنه هو فيكَ، وليمنعَ الآخرين من رؤيتكَ والحكم عليكَ بأيَّة طريقةٍ أخرى؟

بالكاد كان لديَّ الوقتُ الكافي لألاحظ ذهولَ كوانتورتْسو، ذلك أنَّني رأيتُ إسْتِفانو فيربو واقفاً أمامي. لمحتُ في الحالِ في عينَيْه أنَّه تحوَّلَ في غضون هُنيهاتٍ قليلةٍ إلى عدوٍّ لي. وبالسُّرعة نفسها تحوَّلتُ أنا، إذَّاكَ، إلى عدوٍّ له؛ عدوٍّ، لأنَّه ما كان ليفهمَ أنَّ ذلك الشُّعور الذي فجَّرَه منذ قليلٍ في داخلي، وبالرَّغم من قسوة كلماتي، لم يكن موجَّهاً على نحوٍ مباشرٍ ضدَّه؛ حدَّ أنَّني كنتُ مستعدَّاً لأستصفحَه تلك الكلمات. ولكنَّني، مثلَ سكرانٍ، مضيتُ أبعدَ من ذلك. فحينِ أقبلَ منقضَّاً عليَّ، هائجاً ومتوعِّداً، يقول:

- أريدكَ أن تدفع ثمن ما قلتَه في حقِّ زوجتي!

سقطتُ على ركبتيَّ.

- طبعاً! انظرْ!- صرختُ،- هكذا!

ولامستُ حجرَ البلاطِ بجبيني.

اعتراني على الفور رعبٌ من تصرُّفي ذاك، أو بالأحرى، من فكرة أنَّه وكوانتورتْسو يمكن أن يظنَّا أنَّني ركعتُ له. نظرتُ إليهما ضاحكاً، ثمَّ دوَّى صوتُ ارتطام جبيني بالأرض مرَّتَيْن أُخرَيَيْن.

- أنتَ، وليس أنا، هل تفهم؟ - أمام زوجتكَ - هل تفهم؟ عليكَ أن تتصرَّف هكذا! بينما أنا، وهو، وجميع الآخرين، أمام مَنْ يُقالُ لهم مجانين، علينا أن نتصرَّف هكذا!

توثَّبتُ واقفاً على قَدَمَيَّ، وجسدي ينتفض برمَّته. لبث الرَّجلان هناك يُحدِّق أحدهما في عيني الآخر، مذعورَيْن. سألَ أحدُهما الآخرَ:

- ولكنْ، ما الذي يقوله؟

- كلمات جديدة!- صرختُ.- هل تريدان سماعها؟ اذهبا إذاً، اذهبا إلى هناك، إلى حيث تَسْتَبْقيان أولئك النَّاس حُبَساء: اذهبا، اذهبا وأنصتا إلى ما يقولون! إنَّكما تَسْتَبْقيانهم حُبَساء لمجرَّدِ أنَّ ذلك أكثر ملاءمةً لكما!

قبضتُ على فيربو من ياقةِ سترته، ورحتُ أهزُّه، ضاحكاً:

- هل تفهم، يا إسْتِفانو؟ لا تظنَّنَّ على الإطلاق أنَّ ما أقوله ينسحبُ عليكَ وحدكَ! إنَّكَ ساخطٌ. لا، يا عزيزي! ما الذي كانت تقوله زوجتكَ عنكَ؟ كانت تقول إنَّكَ داعرٌ، لصٌّ، مزوِّرٌ، دجَّالٌ، وإنَّكَ لا تفعل شيئاً

سوى نشر الأكاذيب! ذلك ليس صحيحاً. لا أحد يمكن أن يُصدِّق ذلك. ولكنْ، قبل أن تُسكِتَها، أليس كذلك؟، قبل أن تُغلِقَ فمَها كنَّا نقف جميعاً، لنصغي إليها، وفرائصنا ترتعدُ من الخوف. ليتني أدري لماذا!

بالكاد ألقى إليَّ فيربو بنظرة. التفتَ إلى كوانتورتْسو وكأنَّه يتوسَّلُ نصيحته، ثمَّ بحرَجٍ يقطرُ بلاهةً قال:

- أوه، جميل! ولكنَّ الأمر كان كذلك، لأنَّه ببساطةٍ لا أحدَ كان يصدِّق ذلك!

- آه، لا، يا عزيزي!- صحتُ.- انظرْ جيِّداً في عينيَّ!

- ما الذي ترمي إلى قوله؟

- انظرْ في عينيَّ!- قلتُ له ثانيةً.- لا أقول إنَّ ذلك صحيحٌ! اهدأ.

أرغمَ نفسَه على النَّظر في عينيَّ، وقد امتُقعَ وجهُه.

- أترى؟- صحتُ حينذاك،- أترى؟ أنتَ نفسكَ! أنتَ نفسكَ لديكَ ذلك الشَّيء الآن، لديكَ ذلك الذُّعر في عينَيْكَ!

- هذا لأنَّكَ تبدو لي مجنوناً!- صاحَ في وجهي، حانقاً.

انفجرتُ ضاحكاً، وضحكتُ طويلاً، طويلاً، دون أن أتمكَّن من كبح نفسي، وأنا أتأمَّلُ الرُّعبَ والإرباك اللذَيْن أثارتْهما ضحكتي في كلَيْهما.

توقَّفتُ فجأةً، مرتعدَ الفرائص بدوري من العيون التي كانا ينظران بها إليَّ. ففي نهاية المطاف، ما كنتُ أفعله وأقوله لم يكن له في نظرهما معنىً أو سببٌ واضحٌ. ولكي أستعيدَ زمامَ نفسي، قلتُ بخشونةٍ:

- فلنختصر القول. لقد أتيتُ اليومَ إلى هنا لكي أطلبَ منكما حسابات المَدعوِّ ماركو دِي دِيُّو. أودُّ أن أعرف لماذا، طوال كلِّ تلك السِّنين، لم يدفع أيَّ إيجارٍ، بينما لم يتَّخذ أيٌّ منكما أيَّ خطوةٍ لطَرْده.

لم أتوقَّع ذهولاً أكبر من ذاك الذي رأيتُهما يسقطان فيه عندَ طرحي ذلك السُّؤال. راحا يحدِّقان أحدُهما في الآخر، كما لو كان كلٌّ منهما يبحث في نظرةِ الآخر عن ركيزةٍ، يمكن أن يستند إليها، ليعزِّز الانطباعَ الذي كوَّنه عنِّي، أو بالأحرى، عن ذلك الكائن الغريب والمريب الذي اكتشفاه على حين غرَّةٍ فيَّ.

- ولكنْ، ما الذي تقوله؟ أيُّ حديثٍ هذا الذي تخوض فيه؟- سألَ كوانتورتْسو.

- ما حالكما؟ ألا تستطيعان استجماع ذكائكما؟ أتحدَّث عن ماركو دِي دِيُّو. هل يدفع الإيجار أم لا؟

ظلَّا يُحدِّقان أحدُهما في الآخر فاغرَي الفم. انفجرتُ ضاحكاً من جديد؛ ثمَّ، ودون سابق إنذار، اتَّخذتُ سيماء الجدِّيَّة، وقلتُ كما لو كنتُ أتحدَّث إلى شخصٍ أمامي، ظهرَ في الحال من العَدَم بينهما:

- منذ متى صرتَ تهتمُّ بمثل هذه الأمور؟

مشدوهَيْن أكثر من ذي قبل، ومذعورَيْن تقريباً، صوَّبا عينَيْهما نحوي، ليبحثا فيَّ عمَّنْ تفوَّه بتلك الكلمات التي فكَّرا في قولها لي، وكانت على رأس لسانَيْهما. ولكنْ، كيف حدث ذلك؟! أهو أنا مَنْ تفوَّه بها؟

- نعم - استطردتُ في الكلام، بأسلوبٍ بقي متَّسماً بالجدِّ.- أنتَ تعلم

جيِّداً أنَّ والدكَ ترك ذلك المَدعوَّ ماركو دِي دِيُّو يقيم هناك كلَّ تلك السَّنوات دون أن يزعجَه. فكيف خطرَ ببالك، الآن؟

وضعتُ يداً على كتف كوانتورتْسو وبأسلوبٍ مُغايرٍ، لا يقلُّ جدِّيَّةً، ولكنَّه بات مثقلاً آنذاك بوهنٍ مُكرِبٍ، أضفتُ:

- أحذِّرُكَ، يا عزيزي، أنا لستُ والدي.

ثمَّ التفتُّ إلى فيربو وواضعاً يديَ الأخرى على كتفه، قلتُ:

- أريدكَ أن تعِدَّ الأوراق اللازمة في الحال. إخلاءٌ فوريٌّ. أنا هو السَّيِّد هنا، وأنا مَنْ يُصدرُ الأوامر. وبالتَّالي، أريدُ كشفاً بالبيوت التي أملكها مع المستندات الخاصَّة بكلِّ بيتٍ منها. أين هي؟

كلماتٌ بيِّنة. أسئلةٌ مُحكَمة. ماركو دِي دِيُّو. الإخلاء. كشفٌ بملكيَّة البيوت. المستندات. ومع ذلك، لم يعيا ما أقول. كانا يُحدِّقان فيَّ كزوجٍ من الحمقى. وكان عليَّ أن أُعيدَ عليهما غير مرَّةٍ أنَّني أريد أن يصطحباني إلى الخزانة المكتبيَّة التي توجد فيها المستندات المتعلِّقة بذلك البيت، والتي كان السَّيِّد ستامبا محرِّرُ العقود يحتاج إليها. حالما دخلتُ الغرفة التي تقبع تلك الخزانة فيها، أخذتُ فيربو وكوانتورتْسو، اللذَيْن اقتاداني إلى هناك كرجُلَيْن آليَّيْن، من ذراعَيْهما، وسحبتُهُما إلى خارج الغرفة، مُغلِقاً الباب من ورائهما.

أنا على يقينٍ من أنَّهما وقفا هناك، على الجانب الآخر من الباب، لفترةٍ من الوقت، وكلٌّ منهما يُحدِّق في عينَي الآخر ببلاهةٍ، ومن أنَّ أحدهما قال للآخر:

- لقد جُنَّ لا مَحالة!-

-VI-
السَّطو

تلك الخزانة، ما إن خلوتُ بنفسي، حتَّى استحوذتْ عليَّ مثلَ كابوس. وكما لو كانت كائناً حيَّاً، كنتُ أشعر بالحضور الهائل لهذا الوحش العتيق والحصين، الحارس لكلِّ تلك الأوراق التي كان يئنُّ تحت ثقلها، مُتعَباً مُتهالِكاً ينخرهُ الدُّود.

نظرتُ إليه، ثمَّ ما لبثتُ أن غضضتُ طرفي، ورحتُ أجيلُ النَّظرَ من حولي.

النَّافذة؛ كرسيٌّ قشٌّ قديم؛ منضدةٌ صغيرةٌ أقدَمُ منه، عاريةٌ، سوداءُ ومغطَّاةٌ بالغبار؛ لم يكن ثمَّة شيءٌ آخر في الغرفة.

ضوءٌ كئيبٌ كان يرشحُ من زجاجِ النَّافذة المليَّسِ حرفيَّاً بالصَّدأ والغبار، إذْ كانت بالكادِ تسمحُ له بالمرور قضبانُ المشربيَّةِ الحديدِ وحوافُّ سقيفةِ الآجُرِّ العندميِّ اللون التي تطلُّ النَّافذةُ مِن فوقها.

آجُرُّ تلك السَّقيفة، والخشب المبرنَقُ لعضائدِ تلك النَّافذة، وذلك الزُّجاجُ الملطَّخ بالأوساخ: إنَّه الهدوءُ الهامدُ للأشياء التي لا روح فيها.

تخيَّلتُ فجأةً يدَي والدي المثقلَتَيْن بالخواتم وهما ترتفعان داخل هذه الغرفة، لتتناولا المستندات عن رفوف تلك الخزانة؛ ورأيتُهما، كأنَّهما قُدَّتا مِن شمعٍ، بيضاوَيْن، ومكتنزَتَيْن، مع كلِّ تلك الخواتم والشَّعر الأحمر على

ظهر الأصابع؛ ورأيتُ عينَيْه، كأنَّهما قُدَّتا من زجاج، زرقاوَيْن وخبيثَتَيْن، مُنكبَّتَيْن على التَّنقيب في تلك الأضابير.

ثمَّ، ليس دونما خوفٍ، وكأنَّما لتمحوَ شبحَ تينك اليَدَيْن، برزَت أمامَ عينيَّ وتجسَّمَت هناك، كتلةُ جسدي المتَّشحةُ بالسَّواد؛ سمعتُ الأنفاس المتسارعةَ لهذا الجسد الذي دخل تلك الغرفةَ ليسرق؛ ومجرَّدُ رؤيةِ يَدَيَّ وهما تفتحان دُرَفَ تلك الخزانة بعث القشعريرةَ في ظهري. صَرَرْتُ بأسناني؛ ارتعدتُ؛ وتساءلتُ بغضبٍ:

"أين ستكون، وسط كلِّ هذه الأوراق، الأوراقُ التي أنا في حاجةٍ إليها؟"

وليس إلَّا لكي أقوم في الحال بعملٍ ما، رحتُ أسحب تلك الأضابير ملءَ ذراعَيَّ، وأرمي بها على الطَّاولة. وفي لحظةٍ ما شعرتُ بالخدر يدبُّ في ذراعَيَّ، ولم أدرِ أأضحكُ أم أبكي. ألم يكن ضرباً من الفكاهة أنْ أسرقَ نفسي؟

عدتُ أنظرُ من حولي، لأنَّني بغتةً لم أعد أشعرُ، وأنا في الدَّاخل هناك، بأنَّني متأكِّدٌ من حالتي الوجوديَّة. كنت موشكاً على القيام بعملٍ ما. ولكنْ، هل كنتُ أنا- أنا؟ لقد استولتْ عليَّ فكرةُ أنَّ كلَّ أولئك الغرباء المتعذَّر فصلُهم عنِّي كانوا قد دخلوا إلى هناك، وأنَّهم كانوا على وشك ارتكاب تلك السَّرقة بيدَيْن ليستا يَدَيَّ.

نظرتُ إلى يَدَيَّ.

بلى: كانتا نفسَ اليَدَيْن اللتَيْن عرفتُهما. ولكنْ، هل كانتا تنتميان إليَّ وحدي، يا ترى؟

واريتُهُما في الحال خلف ظهري؛ ثمَّ، وكأنَّ ذلك لم يكن كافياً، أغمضتُ عينَيَّ.

في ذلك الظَّلام، أحسستُ بدُفعةِ عزمٍ جديدةٍ أخذتْ تطوفُ في داخلي دون أيِّ اتِّساقٍ واضحٍ؛ وقد انتابني ذعرٌ شديدٌ كدتُ معه أن أُصابَ بالإغماء حتَّى من النَّاحية الجسديَّة. مددتُ غريزيّاً إحدى يَدَيَّ، لأتَّكئ بها على المنضدة؛ وفتحتُ عينَيَّ:

- بلى! بلى!- قلتُ.- هذا غير منطقيٍّ على الإطلاق! غير منطقيٍّ على الإطلاق!

ورحتُ أبحثُ وسط كلِّ تلك الأوراق.

كم من الوقت بحثتُ؟ لا أعلم. كلُّ ما أعلمُه هو أنَّ حُميَّا غضبي تلك خبتْ في لحظةٍ معيَّنة، وأنَّ وهناً أشدَّ قنوطاً استبدَّ بي، فإذا بي مطروحٌ على الكرسيِّ أمام تلك المنضدة التي كانت قد امتلأت آنذاك بتلالٍ من الأوراق، فيما رزحتْ ركبتاي تحت ثقل تلَّةٍ أخرى. أرخيتُ رأسي، واجتاحتْني رغبةٌ، رغبةٌ حقيقيَّةٌ، في الموت، بما أنَّ هذا القنوط الذي اكتسح أعماقي كان من شأنه أن يتركني عاجزاً عن إتمام تلك العمليَّة العجيبة.

أذكرُ أنَّني، برأسٍ متَّكئٍ على الأوراق، وبعينَيْن مُغمضَتَيْن، بغيةَ كظمِ دموعي ربَّما، كنتُ أسمعُ كما لو من أقاصٍ لامتناهية، وفي الرِّيح التي كانت تهبُّ في الخارج، القوقأةَ المكرِبةَ لدجاجةٍ وضعتْ بيضةً. تلك القوقأة ذكَّرتْني بقريةٍ عرفتُها طفلاً، ولم أزرْها منذ انقضى عهدُ طفولتي؛ غير أنَّ القرقعةَ الجافية لدرفةِ النَّافذة المصفوعةِ بالرِّيح، بين الفينة والأخرى، كانت تُشوِّش عليَّ تلك الذِّكرى. إلى أن جعلتْني طرقتان مُباغِتتان على الباب أقفز واقفاً. صرختُ باهتياج:

- لا تُزعجاني!

وفي الحال، عدتُ أبحثُ باستكلابٍ بين الأوراق.

حينما عثرتُ في النِّهاية على الإضبارة التي تتضمَّن جميع وثائق ذلك المنزل، أحسستُ كما لو أنَّني تحرَّرتُ من عبءٍ ثقيل؛ قفزتُ على قَدَمَيَّ مبتهجاً، ولكنَّني ما لبثتُ أن التفتُّ ناظراً إلى الباب. كان جدُّ سريعاً ذلك التَّحوُّل من البهجةِ إلى الاشتباه، الاشتباه في أنَّني رُؤيتُ- فأخذتْني القشعريرة من ذلك. سارق! كنتُ أسرق. كنتُ أسرق بكلِّ ما في الكلمة من معنى. خطوتُ نحو الباب، ووضعتُ كتفيَّ عليه، حَلَلْتُ أزرارَ الصِّدار، وأزرارَ صدرِ القميص، وخبَّأتُ تحتهما تلك الإضبارة التي كانت ضخمةً بما فيه الكفاية.

خنفساء، لا تبدو راسخةً تماماً على أرجلها، خرجَتْ في تلك اللحظة من أسفل الخزانة، متَّجهةً مباشرةً نحو النَّافذة. وطِئتُها في الحال برجلي، وسحقتُها سحقاً.

بوجهٍ يتقبَّض قَرَفاً، أعدتُ كيفما اتَّفق حشرَ كلِّ الملفَّات الأخرى داخلَ الخزانة، وخرجتُ من الغرفة.

لحسن الحظِّ، كان كوانتورتْسو وفيربو وجميع الموظَّفين قد غادروا حينذاك؛ ولم يكن ثمَّة إلَّا الحارس العجوز، هذا الذي لم يكن ليشكَّ في شيء.

ومع ذلك، شعرتُ بأنَّه لا بدَّ من قول شيءٍ له:

- ينبغي لكَ تنظيف الأرض هناك في الدَّاخل؛ لقد سحقتُ خنفساءَ برجلي.

ثمَّ حثثتُ الخطا عبر شارع كروتْشيفيسُّو نحوَ مكتب مُحرِّر العقود.

-VII-
الانفجار

ما يزال يتصادى في أذنيَّ نضيضُ الماء المتساقط من ميزابٍ قربَ المصباح الذي لم يكن قد أُضيءَ بعد، أمامَ كوخ ماركو دِي دِيُّو، في الزُّقاق الذي أظلمَ قبلَ مغيب الشَّمس؛ وما أزال أرى النَّاس واقفين على امتداد الجدران اتِّقاءَ المطر، وقد احتشدوا هناك للتَّفرُّج على عمليَّةِ الإخلاء، فيما وقف آخرون تحت المظلَّات يحدوهم الفضول من رؤية ذلك الحشد وتلك الكومة من المتاع المنزليِّ البائس الذي أُخرِجَ عنوةً، ووُضِعَ أمامَ الباب تحتَ المطر؛ وكلُّ ذلك وسطَ صراخ السَّيِّدة ديامانتِهْ التي كانت، بين الفينة والأخرى، تأتي منفوشةَ الشَّعر إلى النَّافذة، لتطلقَ بغضبٍ لعناتها الغريبة، يُخالِطُها صفيرُ الاستهجان واللغيطُ الأخرقُ لأطفالِ شوارع حُفاةٍ كانوا يتراقصون، غير عابئين بالمطر، حولَ تلك الكومة البائسة، مُطَرطِشين بأوحالِ الحُفَر أولئك الفضوليِّين الذين أمطروهم بدورِهم بالشَّتائم. أمَّا التَّعليقات، فكانت من قبيل:

- إنَّه أشدُّ تقزيزاً للنَّفْس من أبيه!

- تحت المطر، يا سيِّدي! حتَّى إنَّه لم يستطع الانتظار إلى الغد!

- أنْ يستكلبَ هكذا على رجلِ بائسٍ معتوه!

- مُرابٍ! مُرابٍ!

ذلك أنَّني كنتُ هناك، بلى، كنتُ حاضراً عن عمدٍ ذلك الإخلاءَ، تحت حمايةِ وكيلٍ واثنَيْن من رجال الشرطة.

- مُرابِ! مُرابِ!

وكنتُ أبتسمُ لذلك المشهد. نعم، ربَّما بدوتُ شاحبَ الوجه قليلاً. ولكنَّني ممتلئاً كنتُ بلذَّةٍ، أجَّجَتْ أحشائي، ودغدغتْ لَهاتي، وجعلتْني أغصُّ. ومع ذلك، كنتُ أشعرُ بين الفينةِ والأخرى برغبةٍ في تصويب عينَيَّ على شيءٍ ما، فرُحتُ أنظرُ بشيءٍ من الخمول السَّاهي إلى الإفريز البابيِّ لذلك الكوخ، باحثاً لي عن عزلةٍ بصريَّةٍ، وأنا متيقِّنٌ أنَّ أحداً، في لحظةٍ كمثلِ هذه، لن يخطر بباله أن يرفعَ عينَيْه، ليُمتِّعهما بالتَّحقُّق من أنَّ ذلك الإفريز كان جدُّ حزيناً في واقع الأمر، حيث لم تكن تعني له شيئاً على الإطلاق كلُّ الأصوات المختلطة في ذلك الشَّارع: ذلك الجصُّ الرَّماديُّ المتقشِّر، مع ثلمةٍ هنا وثلمةٍ هناك، لم يشعر مثلي بأنَّه مضطرٌّ إلى التَّورُّد خجلاً، وقد خُدِشَ حياؤه من مرأى وعاء التَّبوُّل الذي أُخليَ من الكوخ مع بقيَّةِ الأغراض ووُضِعَ هناك أمامَ أعين الجميع، على سطح شيفونيرةٍ، وسطَ الشَّارع.

ولكنَّ متعةَ عزلِ الذَّات تلك كادتْ تُكلِّفني غالياً. حينما انتهت عمليَّة الإخلاء القسريِّ، وبينما كان ماركو دِي دِيُّو خارجاً من باب الكوخ مع زوجته دياماتِهْ، لمحني واقفاً في الزُّقاق بين الوكيل والشُّرطيَّيْن، فلم يستطعْ تمالكَ نفسِه؛ وفيما أنا أُحدِّق في ذلك الإفريز قذفني غاضباً بمطرقته القديمة المخصَّصة للنَّحت الأوَّليِّ. كانت، لا مناصَ، ستسحق رأسي لولا أنَّ الوكيل كان متأهِّباً ليشدَّني نحوَه. وفي خضمِّ الفوضى والصُّراخ، اندفع الشُّرطيَّان، ليُلقيا القبض على ذلك البائس الذي اهتاجَ لمرآيَ؛ ولكنَّ الحشد الذي كان قد تضاعفَ حتَّى تلك اللحظة أجارَه منهما، وكان على

وشك أن ينقضَّ عليَّ عندما صعدتْ هيئةٌ ضئيلةٌ سوداء، رثَّةٌ، ولكن شرسَة الملامح، لغلامٍ يعمل لدى مكتب ستامبا لتحرير العقود، على منضدةٍ صغيرةٍ وسط المتاعِ المنزليِّ المكوَّمِ في منتصف الرُّقاق، وراحت تصيحُ ملوِّحةً باهتياجٍ بيَدَيْها، كما لو كانت تُؤدِّي رقصةً شعبيَّة:

- انتظروا! انتظروا، وأصغوا! لقد جئتُ إلى هنا باسمِ السَّيِّد ستامبا مُحرِّر العقود! أصغوا إليَّ! ماركو دِي دِيُّو! أين هو ماركو دِي دِيُّو؟ لقد جئتُ باسمِ السَّيِّد ستامبا لكي أُبلِغهُ أنَّ ثمَّة هبةً في انتظاره! ذلك المرابي موسكاردا...

لا أستطيع شرحَ الأمر، ولكنَّني منذ قليلٍ كنتُ أرتجف من قمَّة الرَّأس إلى أخمص القدمين، في انتظار المعجزة: معجزةِ أن أتحوَّل، بين لحظةٍ وأخرى، إلى هيئةٍ أخرى على مرأىً من الجميع. ولكنْ، فجأةً، ودون سابق إنذار، تمزَّقتْ رجفتي تلك، تمزَّقتْ ألفَ مِزقةٍ، وكياني بأكمله طُوِّحَ به، ونُثِرَ هباؤه هنا وهناك لدى اندلاع صفيرٍ حادٍّ يُمزِّق الآذان، مختلطٍ مع صيحاتٍ متنافرةٍ وشتائم راح يُطلقها المتجمهرون جميعاً ما إن سمعوا اسمي، ذلك أنَّهم لم يفهموا، بطبيعةِ الحال، أنَّ الذي قدَّم تلك الهبة هو أنا، بعد كلِّ تلك الشَّراسة الوحشيَّة، شراسةِ الإخلاء القسريِّ.

- اقتلوه! أسقطوه أرضاً!- صرخَ الحشدُ.- مُرابٍ! مُرابٍ!

غريزيّاً، رفعتُ يَدَيَّ في إشارةٍ على أنَّه ينبغي لهم أن يتريَّثوا؛ ولكنَّني وجدتُ نفسي كَمَنْ يُؤدِّي مشهدَ استرحامٍ، فخفضتُهما على الفور، فيما واصلَ ذلك الغلامُ الواقف على المنضدة، وهو يُلوِّح بذراعيه لفرض الصَّمت، صياحَه هاتفاً:

- لا! لا! أصغوا إليَّ! لقد قدَّمها هو، لقد قدَّمها هو، لدى مكتب ستامبا لتحرير العقود، تلك الهبة! لقد وهبَ لماركو دِي دِيُّو منزلاً!

ذُهِلَ الحشدُ حينذاك. أمَّا أنا، فشعرتُ بأنَّني بعيدٌ، وخائبُ الآمال، ومنكسرُ النَّفس. غير أنَّ ذلك الصَّمتَ الذي خيَّمَ على الحشد استولى عليَّ، فكان الأمرُ كما حينما تُضرَمُ النَّارُ في كومةٍ من الحطب، فتغدو للحظةٍ عاجزاً عن رؤيةِ أو سماعِ أيِّ شيء؛ ثمَّ إذا بسنبلةٍ هنا، وقشَّةٍ هناك، تتَّقدان، تتطايران، وفي النِّهاية الحزمة بأكملها تطقطق مادَّةً ألسنةَ اللهب من خلال الدُّخان.

- هو؟ - منزلاً؟ - كيف؟ أيَّ منزل؟ - صمتاً! – ماذا يقول؟

هذه وسواها من الأسئلة المشابهة بدأتْ تنهمرُ من الحشد، مثيرةً على نحوٍ متسارعٍ عجيجاً أخذ شيئاً فشيئاً يزداد إبهاماً وتشوُّشاً، فيما كان غلامُ محرِّرِ العقود يصيح مؤكِّداً:

- أجل، أجل، منزلاً! منزلَه الواقع في شارع القدِّيسين، ورَقْمه ١٥. وليس ذلك فحسب! إنَّه يتبرَّع بمبلغٍ قدره عشرة آلاف ليرة لأجل تأثيث وتجهيز أحد المختبَرَات!

لم أستطع رؤية ما جرى بعد ذلك؛ فلقد حرمتْني من تلك المتعة رغبةٌ جارفةٌ في أن أهرعَ إلى مكانٍ آخر. ولكنْ، ليس من الصَّعب أن أتصوَّر أيَّ متعةٍ كنتُ سأحظى بها، لو أنَّني بقيتُ هناك.

تواريتُ في دهليز ذلك المنزل، منزلِ شارع القدِّيسين، في انتظار أن يأتي ماركو دِي دِيُّو ويضع يدَه عليه. بالكادِ نورٌ ضئيلٌ كان يبلغُ ذلك الدِّهليز من جهةِ الدَّرَج. وعندما أخيراً، متبوعاً بالحشد بأكمله، فتحَ البابَ المطلَّ

على الشَّارع بالمفتاح الذي سلَّمه له محرِّرُ العقود، ولمحني هناك مُسنِداً ظهري إلى الجدار مثلَ شبح، تراجع لأوَّلِ وهلةٍ إلى الخلف، وقد أصابته الحيرة؛ ثمَّ رماني من عينَيْه الوحشيَّتَيْن بنظرةٍ لن أنساها ما حييتُ؛ وبزمجرةٍ كتلك التي تصدرُ عن حيوانٍ برِّيٍّ، زمجرةٍ بدتْ في حقيقةِ الأمرِ مزيجاً من النَّشيج والضَّحك، انقضَّ عليَّ كالثَّور الهائج، وراح يصرخ في وجهي، لا أعلم أأرادَ بذلك تمجيدي أم قتلي، دافعاً بي إلى الجدار:

- مجنون! مجنون! مجنون!

والصَّيحة نفسها بلغتْ سمعي من ذلك اللفيف المحتشد هناكَ أمامَ الباب:

- مجنون! مجنون! مجنون!

وكلُّ ذلك لأنَّني أردتُ أن أثبتَ أنَّه يمكن أن أكون بالنِّسبة إلى الآخرين، مثلما بالنِّسبة إليَّ أيضاً، شيئاً آخر مختلفاً عمَّا كانوا يظنُّون بي.

الكتاب الخامس

-I-

داسَّاً ذيلي بين ساقَيَّ

لحسن الحظِّ، كنتُ في وضعٍ يسمح لي، أقلُّه في تلك اللحظة، بالاستفادة من حُجَّة كوانتورتْسو، بأنَّ والدي أيضاً كان ينقاد في أيَّامه وراءَ "نزواتٍ خيريَّة" كنزوتي هذه، مصحوبةٍ بشيءٍ من الوحشيَّةِ المُسكِرة؛ ومن أنَّه لم يكن ليخطر في ذهن كوانتورتْسو يوماً أن يشيرَ مجرَّدَ إشارةٍ إلى وجوب احتجاز والدي في مستشفىً للمجانين، أو على الأقلّ إلى ضرورةِ وضعٍ رقيبٍ عليه، وهو ما كان يؤكِّدُ فيربو بإصرارٍ على أنَّه لا بدَّ من القيام به في حالتي، إذا ما أرادوا إنقاذ أرصدتي المصرفيَّة التي كانت مهدَّدةً جدِّيَّاً بفِعالي الجنونيَّة تلك.

ولكنْ، آه يا إلهي، ألم يكن جميعُ مَنْ في البلدة يعلمُ أنَّني لم أقحِم نفسي يوماً، لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ، في شؤون المصرف؟ فكيف ولماذا إذاً ذلك التَّرهيب من ضياع الأرصدة؟ ما شأن المصرف بفِعالي الجنونيَّة تلك؟

حقَّاً. غير أنَّ حجَّة كوانتورتْسو التي كانت غايتُها إبقائي في منجىً خلف ظهر والدي، ما لبثتْ أن سقطتْ. فصحيحٌ أنَّه كانت لوالدي من وقتٍ إلى آخر مثل تلك النَّزوات الفجائيَّة، إلَّا أنَّه لطالما برهنَ في المعاملات التِّجاريَّة أنَّه كان يمتلك رأساً بين كتفَيْه، ولذلك لم يكن لتخطر في ذهن أحدٍ فكرةُ احتجازه في مستشفىً للمجانين أو وضع رقيبٍ عليه؛ في حين

أنَّ حماقتي المعلَنة ولامبالاتي المطلَقة أظهرتا للآخرين أنَّني لستُ سوى مجنونٍ ينبغي إيثاقه، مجنونٍ لا يجيدُ غير شيءٍ واحدٍ فحسب، الإطاحة المخزية بكلِّ ما بناه والدُه بفطنةٍ مُبيَّتة.

آه، لا بدَّ من قول ذلك، إنَّ المنطق كلَّه كان يقف إلى جانب فيربو. ولكنَّه لم يكن، إذا ما جاز القول، بأقلَّ من ذلك إلى جانب كوانتورتْسو، فلا بدَّ أنَّ هذا الرَّجل (لم يكن لديَّ أدنى شكٍّ في ذلك) لفتَ انتباه فيربو، في جلسةٍ سرِّيَّةٍ بينهما، إلى أنَّه بما أنَّني كنتُ أنا مالكَ المصرف، فإنَّ لامبالاتي تلك بالصَّفقات التِّجاريَّة وحماقتي تلك لم تكونا سلاحاً يمكن إشهاره في وجهي، فبفضل ذلك تحديداً أصبحا كلاهما المالكَيْن الحقيقيَّيْن داخلَ المصرف؛ وبالتَّالي فإنَّ أفضل ما يمكن القيام به هو عدمُ لمسِ هذا الوتر، ولزوم الصَّمت، أقلُّه إلى أن أبدي علاماتٍ على الرَّغبة في اقتراف أعمالٍ جنونيَّةٍ جديدة.

من ناحيةٍ أخرى، ومن جهتي، كنتُ أودُّ أن أطرح على فيربو، بمعزلٍ عن الآخرين، سؤالاً عمَّا إذا كان أفضل ما يمكنني فعله - وقد بتُّ في تلك اللحظة مسحوقاً من التَّجربة التي مررتُ بها - هو ألَّا أبقى واقفاً وذيلي مدسوسٌ بين ساقَيَّ، فيما ينسدلُ السِّتارُ على الجدال الدَّائر بينه وبين كوانتورتْسو، أو أنَّ الأفضل، فيما ذلك السِّتار لم يُسدَلْ كُلِّيَّاً بعدُ، أن يتركَ شهوةَ الانتقام لنفسه، بسبب المهانة التي عرَّضتُه لها أمام الموظَّفين، تسيطر على التَّسامح النَّفعيِّ عندَ الآخر، فيُقدِم إذَّاك على إيذائي.

-II-
ضحكةُ ديدا

محطَّماً تماماً، اتَّخذتُ لي ملجأً تحت تنانير ديدا الدَّاخليَّة، داخلَ البلاهةِ الخامدةِ والخاملةِ والصَّمَّاء لِفتاها جينجيه، حيث بدا واضحاً، ليس لها فحسب، بل للجميع، أنَّه إذا كان لا بدَّ من عزو الفعل الذي قمتُ به إلى الجنون، فإنَّه ينبغي النَّظر إليه على أنَّه جنونٌ من جهةِ جينجيه، أي أنَّه بالأحرى نزوةٌ وجيزةٌ وسريعة الزَّوال من نزواتِ فتىً أحمقَ، لا يصدرُ عنه أيُّ أذىً على الإطلاق.

وفيما كانت تنهالُ تقريعاً وتوبيخاً عليه، على فتاها جينجيه، شعرتُ بمعدتي تتمزَّق من إحساسي بمهانةٍ لا أستطيع وصفَها، ثمَّ ما لبث جسدي أن انفجرَ برشقاتٍ من الضَّحك، كنتُ عاجزاً عن كبحها نظراً إلى السِّيماء التي كان لا بدَّ لي من أن أحافظ عليها، والتي لا تمتُّ إلى وخز الضَّمير بصِلة، كان الله في عوني! بل على العكس، سيماء فتىً عنيدٍ بائسٍ، لا يريد أن يستسلم أبداً، حتَّى وإن كان يعرف حقَّ المعرفة أنَّه تمادى كثيراً في غيِّه. وكان ثمَّة، في الوقت نفسه، ذلك الخوف الذي فجأةً، وقد تفلَّتَ من عِقاله، أطلَّ من تينك العينَيْن، واندفع من ذلك الفم في صرخاتٍ رهيبةٍ مُترَعَةٍ بيأسٍ شنيعٍ انبعث من عذابي السِّرِّيِّ، والذي من المخجل الإقرارُ به.

بلى، من المخجل الإقرار به؛ من المخجل الإقرار به لأنَّه جزءٌ من روحيَ

وحدي ذلك العذاب الخارج عن أيِّ شكلٍ يمكن أن أختلقه أو أدَّعيه لنفسي في ما وراءَ هذا الشَّكلِ، على سبيل المثال، الحقيقيِّ والملموس في شخصي، والذي كانت زوجتي ديدا قد منحتْه لفتاها جينجيه الواقف هناك أمامَها، والذي لم أكُنْهُ أنا؛ وبالتَّالي لم يعد بإمكاني أن أقولَ من أنا، ولا ممَّن أو من أين، خارجَ ذلك الفتى، جاء ذلك العذابُ الفظيعُ الذي كان يعصرُ حلقي، ويكتم أنفاسي.

في أثناء ذلك، فيما كنتُ مكبَّلاً بذلك العذاب، وجدتُني منسلخاً تماماً عن نفسي، حدَّ أنَّني مثلَ أعمى سلَّمتُ جسدي باليد إلى الآخرين، فكان في مقدور كلِّ واحدٍ منهم أن يأخذ، من بين جميع أولئك الغرباء المتلازمين تلازماً لا انفكاك فيه، والمحمولين في داخلي، الفردَ الذي كُنتُه بالنِّسبة إليه، وأن يسلخَ جلدَه إذا أراد؛ أو يقبِّلَه إذا أراد؛ أو حتَّى أن يمضي به ليحتجزه في مستشفىً للمجانين.

- هنا، يا جينجيه. اجلسْ هنا. ها هنا، ها هنا. انظر جيِّداً في عينَيَّ. لمَ لا؟ لمَ لا تريد أن تنظر إليَّ؟

آهِ، أيُّ غوايةٍ تلك، أنْ آخذَ وجهها بين يَدَيَّ، وأرغمَها على التَّحديق في هاويةِ عينَيْن مختلفَتَيْن تماماً عن تينك العينَيْن اللتَيْن أرادتْ منِّي أن أنظر بهما إليها!

كانت هناك أمامي؛ أمسكَتْ بيدِها شَعري، وجلسَتْ على ركبتَيَّ، فشعرتُ بوزن جسدِها.

مَنْ كانت؟

لم يكن عندَها أدنى شكٍّ في أنَّني كنتُ أعلمُ مَنْ تكون.

وقد كنتُ، طيلةَ الوقتِ، مذعوراً من عينَيْها اللتَيْن كانتا تنظران إليَّ بتبسُّمٍ واستيقان؛ من يَدَيْها البضَّتَيْن اللتَيْن كانتا تلمسانني متيقِّنَتَيْن من أنَّني كنتُ مثلما كانت تانك العينان تريانني؛ من كلِّ ذلك الجسد الذي كان يُثقلُ على ركبتيَّ، مطمئنّاً في استسلامه لي، ودون أن تشكَّ هي، ولو من بعيدٍ، في أنَّها لم تكن في واقع الأمر تُسلِّم جسدَها ذاك لي أنا، وأنَّني، فيما كنتُ أضمُّه بين ذراعَيَّ، لم أكن أضمُّ من خلال ذلك الجسد امرأةً تنتمي كُلِّيّاً إليَّ، بل امرأةً غريبةً كنتُ غيرَ قادرٍ أن أشرحَ لها بأيِّ أسلوبٍ من الأساليب مَنْ تكون، ذلك أنَّها كانت بالنِّسبة إليَّ لا أكثر ولا أقلّ ممَّا كنتُ أراه وألمسه هنا - هذه المرأة - بهذا الشَّعر - وهاتَيْن العينَيْن - وهذا الفم الذي كنتُ بنيران حبِّي أقبِّله، فيما كانت هي تقبِّل فمي بنيرانٍ مغايرةٍ تماماً لنيراني، نيرانٍ بعيدةٍ عن نيراني بُعداً لا حدود له، كما لو أنَّ كلَّ شيءٍ بالنِّسبة إليها، الجنسَ، الطَّبيعةَ، الصُّوَرَ، ومعنى الأشياء، الأفكارَ والمشاعرَ التي شكَّلتْ معاً روحَها، الذِّكريات، الميول، وذلك التَّلامسَ نفسَه بين وجنتي الخشنة ووجنتها النَّاعمة، كلَّ شيءٍ، كلَّ شيءٍ، كان مغايراً لما هو عليه بالنِّسبة إليَّ؛ غريبَيْن كنَّا، متعانقَيْن ها هنا - في قلب الذُّعرِ - غريبَيْن، لا بالنِّسبة إلى بعضنا البعض فحسب، بل كلٌّ بالنِّسبة إلى نفسِه، في ذلك الجسد الذي كان الآخرُ يضمُّه.

ذعرٌ، أعلمُ أنَّك لم تختبرْه يوماً؛ ذلك أنَّكَ كنتَ دائماً تضمُّ بين ذراعَيْكَ عالمكَ فحسب في جسدِ امرأتكَ، دون أن يعتريكَ أدنى شكٍّ في أنَّها كانت في الوقتِ نفسِه تضمُّ عالَمَها في جسدِكَ، والذي هو عالَمٌ آخرُ، ليس في مُكْنتِكَ دخولُه. ومع ذلك يكفي، لكي تشعر بذلك الذُّعر، أن تفكِّر للحظةٍ واحدةٍ - ماذا غساني أقول؟!- بترَّهةٍ أيّاً تكن، بشيءٍ يروق لكَ ولا يروق لها: لونٍ، طعمٍ على اللسان، وجهةِ نظرٍ في هذا الشَّيء أو ذاك؛

وما إن تفعل ذلك حتَّى تكتشف، أقلُّه سطحيّاً، أنَّ ثمَّة أشياء من قبيلِ الاختلاف في الأذواق، وفي المشاعر أو الآراء، لا تراها عيناها فيكَ حتَّى وأنتَ تنظر إليها، مثلما هو شأنُكَ، فالأشياء التي تراها عيناكَ فيها، والعالَم والحياة وحقيقة الأشياء كما هي بالنِّسبة إليكَ، وكما تلمسها أنتَ، لا وجودَ لها بطبيعةِ الحالِ بالنِّسبة إليها، هي التي ترى وتلمس حقيقةً أخرى في تلك الأشياء نفسِها، وفيكَ أنتَ، وفي نفسِها هي، ولن يكون في مقدورِكَ تفسير ذلك، فالحقيقة بالنِّسبة إليها هي تلك الحقيقة فحسب، ولا يمكنها تصوُّرُ أنَّها قد تكون شيئاً آخرَ بالنِّسبة إليكَ.

لقد كلَّفني الكثيرَ التَّظاهرُ بخلافِ الكراهيةِ الباردة التي كانت تزداد شيئاً فشيئاً تجمُّداً في روحي، وأنا أرى أنَّ ديدا في المحصِّلة، ومهما تكن الجهود التي كانت تبذلها لتصنعَ وجهاً صارماً، كانت لا تني تضحك من تلك الدُّعابة الفظَّة التي انغمسَ فيها فتاها جينجيه، حيث بدا واضحاً أنَّها لم تقف لحظةً لتفكِّرَ في أنَّه ليس من الممكن أن يفهم جميعُ النَّاس، مثلها، أنَّ جُلَّ ما أراد القيام به كان تدبيرَ مقلبٍ لأحدهم، لا أكثر.

- ولكنْ، هلَّا فكَّرتَ قليلاً أين تكمن الفكاهة في ذلك! إخلاؤهما تحت المطر؛ وأن تكون هناك لتشهدَ ذلك بنفسِكَ، مثيراً سخطَ الجميع، أيُّها الأحمق! لقد كانوا على وشك أن يقتلوكَ!

هكذا كانت تقول لي، وقد أدارتْ وجهها لتخفي ضحكةً أثارَها ما رأتْه من تجهُّمي، وبطبيعة الحال، فإنَّ هذا التَّجهُّم في ملامح فتاها جينجيه، كما لو أنَّها كانت تراه هناك أمامَها وهي تتخيَّله شاهداً على الإخلاء وسط سخط الجميع، بدا لها محضَ اغتياظٍ، لا شيء سوى اغتياظِ مُضحِكٍ اعترى فتاها "الأحمق" بسبب إخفاق مقلبه وعدمِ تقديرِهِ حقَّ قَدْره.

- ما الذي كنتَ تتوقَّعه على أيَّة حال؟ أكنتَ تظنُّ أنَّ تنمُّرَ ذلك المجنون سيُضحِكهم وأنتَ ترمي بأسماله البالية في الشَّارع تحت المطر؟ وأنَّه في الوقت نفسه - هلَّا نظرتَ إليه، بربِّكَ!- سيظلُّ قادراً طوال الوقت على إبقاء انذهالِه بتلك الهبة طيَّ الكتمان! آه، أخشى أنَّ السَّيِّدَ فيربو، بعدَ كلِّ شيءٍ، مُحِقٌّ في رأيه! إنَّه أمرٌ يستوجبُ اللجوء إلى مستشفى المجانين؛ لعبةٌ جدُّ دنيئة، ستدفع ثمنها غالياً. هيَّا اخرجْ، اخرجْ! هاكَ بيبي، خذها إلى الخارج لبعض الوقت.

رأيتُ مِقوَدَ الكلبةِ الأحمرَ يوضَعُ في يدي؛ ثمَّ رأيتُ زوجتي تنحني، بتلك الليونةِ التي تنحني بها النِّساءُ على أشيائهنَّ الخاصَّة، لكي تعدِّلَ برفقٍ وضْعَ الكمامِ على خطم بيبي الصَّغير، فيما بقيتُ أنا واقفاً هناك كالأبله.

- ماذا تفعل؟ ألن تذهب؟

- سأذهب...

ما إن سمعتُ البابَ يوصَدُ من خلفي، حتَّى اتَّكأتُ إلى حائطِ المُسْتَراح وقد اعترتْني رغبةٌ في أن أجلسَ على أوَّل درجةٍ ولا أنهض بعد ذلك أبداً.

-III-
متحدِّثاً مع بيبي

ووجدتُني في الشَّارع أمشي حذاءَ الحيطان، لا أعرف كيف ولا أين أنظر، فيما لزمتْ تلك الكلبةُ السَّيرَ خلفي، بصورةٍ بدا لي معها أنَّها تفعل ذلك عن عمدٍ لتُريني أنَّه، مثلما لم أرغب أنا في الخروج معها، كذلك هي أيضاً لم تكن راغبةً في الخروج معي، فكنتُ مضطرّاً بين فينةٍ وأخرى إلى سحبها كلَّما أخرجتْ براثنها وامتنعتْ عن السَّير، ما لَمْ تثرْ ثائرتي وأشُدَّها شدَّةً عنيفة، مُجازِفاً بكَسْرِ مِقودِها الأحمر.

أردتُ الاختباء على بُعْدِ مسافةٍ قصيرةٍ من المنزل، في كنيفِ أرضٍ بيعتْ لأجل منزلٍ شُرِعَ ببنائه هناك، منزلٍ كبيرٍ لا أستطيع أن أصف كم كان سيبدو قبيحاً في نظر القاطنين من حولِه. كان جزءٌ من الأرض قد حُفِرَ لإنشاء أعمدة الأساس؛ ولكنَّ أكمات التُّراب لم تكن قد نُقِلَتْ من أماكنها؛ بينما تناثرت هنا وهناك بين الحشائش الكثيفة أحجارُ البناء التي بدت قديمةً ومتفتِّتةً قبل البدء باستخدامها.

جلستُ على إحدى هاتيك الحجارة، ورحتُ أتأمَّلُ حائطَ المنزل المجاور الذي بدا باسقاً، ناصعَ البياض، ومحفوراً في زرقةِ السَّماء. ولأنَّه تُرِكَ هكذا، من دون نافذةٍ، مصقولاً وأبيضَ، فإنَّ ذلك الحائط، تحتَ الشَّمس المسلَّطةِ عليه، كان يُعمي النَّاظرَ إليه. خفضتُ عينَيَّ إلى ظلال الحشائش الموحِشة التي كانت ترسل رائحةً غنيَّةً ودافئة في قلب صمتٍ

ثقيلٍ لم يكن يكسره سوى أزيزِ حشراتٍ صغيرة. ذبابةٌ سوداء كبيرة أحنقها وجودي، فراحت تطنُّ من فوقي؛ وكنتُ أنظرُ إلى بيبي التي أقعتْ أمامي وقد نصبتْ أذنيها، يائسةً وحائرة، كما لو لتسألني ما الذي جاء بنا إلى هنا، إلى مكانٍ منزوٍ لا يطرقه أحد، وعدا عن ذلك... - آه، بلى، في الليل، إذا ما مرَّ أحدٌ ما من هنا...-

- بلى، يا بيبي،- قلتُ لها.- هذهِ العفونةُ... أشمُّ رائحتها. ولكنْ، أتعلمين؟ إنَّها بالنِّسبة إليَّ أقلُّ ما يمكن أن يأتيني من البشر. مصدرُها الجسد. أمَّا تلك التي تفوحُ من حاجات الرُّوح، فأسوأ، يا بيبي. إنَّني لأحسدكِ حقَّاً، ذلك أنَّه من المستحيل أن يكون لكِ مثل تلك الرَّائحة.

سحبتُها نحوي من قائمَتَيْهَا الأماميَّتَيْن، وواصلتُ الحديث معها على ذلك النَّحو.

- أتعلمين لماذا جئتُ لأختبئ هنا؟ آهِ، يا بيبي، لأنَّ النَّاس ينظرون إليَّ. إنَّها إحدى الرَّذائل التي يملكها البشر، وليس في مقدوركِ شفاؤهم منها. الشَّيء الوحيد الذي ينبغي لنا القيام به هو أن نعمل جميعاً على علاج أنفسنا من رذيلةِ أن نُخرِجَ في نزهةٍ، إلى الشَّارع، جسداً ليس إلَّا موضوعاً مسخَّراً للتَّحديق فيه. آه، بيبي، بيبي، ماذا سأفعل؟ لم أعد أطيق رؤيةَ نفسي عرضةً للتَّحديق، ولا حتَّى من قِبلكِ. لا أحد يشكُّ في ما يراه، وكلٌّ يمشي وسطَ الأشياء، متيقِّناً من أنَّها تبدو للآخرين كما هي عليه بالنِّسبة إليه؛ فهل خطرَ في مخيِّلتكِ للحظةٍ إذا كان ثمَّة مَنْ يفكِّر في أنَّكم أنتم أيضاً موجودون، يا معشر الحيوانات الذين تحدِّقون في النَّاس والأشياء بتلك العيون الصَّامتة؟ ومَنْ يدري كيف ترونهم، أو كيف يبدون لكم؟ لقد فقدتُ، فقدتُ إلى الأبد، حقيقتي وحقيقةَ الأشياء كلِّها، فقدتُها في

عيون الآخرين، يا بيبي! ما إن ألمسها، حتَّى تختفي. ذلك أنَّني أفترض أنَّ الحقيقة التي يسبغها الآخرون عليَّ، والتي لا أعرفها، ولا يمكن أبداً أن أعرفها، كائنةٌ تحت لمستي نفسِها. وهكذا يحصلُ، - أترين؟- أنَّني أنا، هذا الذي يتحدَّث إليكِ الآن، هذا الذي يُبقي قائمتَيْكِ الأماميَّتَيْن مرفوعَتَيْن على هذا النَّحو عن الأرض، هكذا يحصل أنَّ الكلمات التي أقولها لكِ، لا أدري، لا أدري على الإطلاق، يا بيبي، مَنْ يقولها لكِ.

في تلك اللحظة قامت البهيمة المسكينة بقفزةٍ مفاجِئةٍ، في محاولةٍ لتحرير قائمَتَيْها من قبضتَيَّ. ومن دون أن أتمهَّلَ للتَّفكير فيما إذا كانت تلك القفزة ناجمةً عن خوفها ممَّا قلتُه أم لا، ولئلَّا أؤذي قائمَتَيْهَا، أخليتُ سبيلَها، فانطلقتْ في الحالِ نابحةً في إثر هرٍّ أبيض لَمَحَتْهُ بين الحشائش في الجانب الآخر من الكنيف: لولا أنَّ المقوَدَ الأحمرَ المجَرجَرَ بين قوائمها، فيما هي تعدو، عَلِقَ فجأةً في جَنْبةٍ شوكيَّةٍ يابسة، فبعث رجَّةً قويَّةً في جسدِها، وجعلها ترتدُّ إلى الخلف، وتتدحرجُ وكأنَّها كرةٌ من الصُّوف. مرتجفةً من الغضب انتصبتْ على قوائمها الأربع من جديد، وظلَّتْ واقفةً هناك، لا تعرف أين يمكن أن تجدَ مَنْفَذاً لهياجها الذي تقطَّعتْ حبالُه: راحتْ تنظر هنا، وهناك: أصبح الهرُّ أثراً بعد عين.

عَطَسَتْ.

كان من الممكن أن أضحك، من الطَّريقة التي راحت تركض بها أوَّلاً، ثمَّ من تشقلبها الارتداديِّ ثانياً، وأخيراً من رؤيتها واقفةً هناك على ذلك النَّحو؛ ولكنَّني بدلاً من ذلك ألقيتُ رأسي إلى الوراء، وصحتُ مُستدعياً إيَّاها. أقبلتْ عليَّ بخفَّةٍ ورشاقة، وكأنَّها تتراقصُ على قوائمها النَّحيلة؛ وعندما أصبحتْ أمامي، رفعتْ قائمَتَيْهَا الأماميَّتَيْن لتضعهما على إحدى

ركبَتَيَّ، كما لو كانت تسألُني استئنافَ المحادثةِ التي بقيتْ عالقةً في منتصفها، والتي بخلاف ما كنتُ أظنُّ كانت تروق لها. آه بلى، لأنَّني فيما كنتُ أحادثها، كنتُ أحكُّ رأسَها خلفَ الأذنَيْن.

- لا، لا، هذا يكفي، يا بيبي- قلتُ لها. دعينا نغمض أعيننا بدلاً من ذلك.

وأخذتُ رأسَها بين يَدَيَّ؛ ولكنَّ البهيمةَ الصَّغيرةَ نازعَتْ لتُخلِّصَ نفسَها، فتركتُها وشأنها.

بعد قليلٍ من ذلك، وفيما هي مستلقيةٌ عندَ قَدَمَيَّ، وخطمُها الصَّغيرُ ممدودٌ على قائمَتَيْهَا الأماميَّتَيْن، سمعتُها تتنفَّس بشدَّة، وكأنَّها نالتْ ما يكفي من الإعياء والضَّجر، أو كأنَّ الحِمْلَ كان جدُّ ثقيلاً حتَّى على حياةِ كلبةٍ صغيرةٍ، جميلةٍ، ومُدلَّلة.

-IV-
نظرةُ الآخرين

- لماذا، عندما يفكِّرُ المرءُ في قَتْلِ نفسِه، يتصوَّرُ نفسَه ميّتاً، لا من وجهة نظره هو، وإنَّما من وجهة نظر الآخرين؟

منتفخاً ومُزرَقّاً، كجثَّةِ غريقٍ، طفا عذابي إلى السَّطح مع هذا السُّؤال، بعد أن بقيتُ غارقاً لأكثر من ساعةٍ في تأمُّلاتي، هناك في ذلك الكنيف، مفكِّراً فيما إذا كان الوقت قد حان لإنهاء الأمر، لا رغبةً في تخليص نفسي من ذلك العذاب، بقدر ما هي رغبةٌ في أن أعدَّ مفاجأةً سارَّةً لمشاعر الحسد التي كان كثيرٌ من النَّاس يحملونها لي، أو في أن أقدِّمَ دليلاً على الحماقة التي كان كثيرٌ منهم أيضاً ينسبونها إليَّ.

فإذاً، من بين الصُّوَر المختلفة لموتيَ العنيف، أيُّ الصُّور يمكن أن أتخيَّل أنَّها ستنهض فجأةً، وسطَ ذُعرِ وذهولِ الجميع، في ذهن زوجتي، وذهنِ كوانتورتْسو، وذهنِ فيربو، وفي أذهانِ العديدِ العديدِ من معارفي الآخرين؟ مُرغِماً نفسي على الإجابة عن هذا السُّؤال، شعرتُ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى بضياعي، لأنَّني لم أستطع إلَّا أن أقرَّ، لنقل الحقيقة، بأنَّه لم يكن ثمَّة في عينيَّ أيُّ صورةٍ لي عن نفسي، أيُّ صورةٍ قد تمكِّنني من أن أوضِّحَ بطريقةٍ أو بأخرى كيف كنتُ أنظرُ إلى نفسي بمعزلٍ عن نظرةِ الآخرين، سواءٌ بالنِّسبة إلى جسدي نفسه أو إلى أيِّ شيءٍ آخر أتخيَّلُ أنَّه يمكن للآخرين أن يرونني عليه؛ والخلاصةُ أنَّ عينَيَّ، في حدِّ ذاتهما، وبمعزلٍ عن نظرةِ الآخرين، لم تعودا قادرَتَيْن على معرفةِ حقيقةِ ما تُبصِران.

سَرَتْ عِبرَ عموديَ الفقريِّ قشعريرةُ ذكرى بعيدة: كنتُ حينها يافعاً، يومَ اكتشفتُ فجأةً، فيما كنتُ أتسكَّعُ في أنحاء الرِّيف مستغرقاً في أفكاري، أنَّني أضعتُ طريقي، وبتُّ خارجَ أيِّ أثرٍ، في قلب عزلةٍ شاسعةٍ تبهرها شمسٌ كئيبة؛ تذكَّرتُ الخوف الذي استولى عليَّ، وأنَّني لم أجد له حينذاك تفسيراً. كان هذا: خوفاً من شيءٍ طفقَ، من لحظةٍ إلى أخرى، يتكشَّف لي وحدي، خارجَ نطاق رؤيةِ الآخرين.

ألا يحدث دائماً، حين نكتشفُ شيئاً لم يرَه الآخرون قطُّ على ما نعتقد، أن نُهرعَ لاستدعاء شخصٍ ما، كي يأتي في الحال، ويرى معنا ما رأيناه؟

- يا إلهي، ما هذا؟

عندما لا تُسعِفنا نظرةُ الآخرين بطريقةٍ ما في بناء حقيقةِ ما نرى، فإنَّ عيوننا لن تعود قادرةً على الإحاطةِ بكُنهِ ما ترى؛ وعيُنا بأكملِه يتلاشى، لأنَّ هذا الذي نحسبه الشَّيءَ الأكثر عمقاً فينا والتصاقاً بنا، أقصد وعينا، إنَّما يعني ببساطةٍ "الآخرين القابعين فينا"؛ ونحن وحدنا ليس في مقدورنا الإحاطة بكنهِ شيء.

قفزتُ على قَدَمَيَّ، هَلِعاً. لقد عرفتُ، عرفتُ حقيقةَ عزلتي؛ ولكنَّني الآن فحسب أدركتُ ولمستُ بحقٍّ جانبَها المرعب الذي كان يُجابهني في كلِّ شيءٍ أراه، حتَّى في يدِي، إذا أنا رفعتُها ونظرتُ إليها. ذلك أنَّ ما يراه الآخرون ليس ولا يمكن أن يكون الشَّيءَ نفسَه الذي تراه عيوننا إلَّا على سبيلِ وَهْمٍ لم يعد من الممكن لي أن أصدِّقه. وهكذا، في ضَياعيَ الكامل، وقد بدا لي أنَّني أرى رعبيَ نفسَه يطلُّ من عينَي الكلبة التي نهضتْ هي الأخرى فجأةً وراحتْ تنظر إليَّ، ما كان منِّي إلَّا أن ركلتُها لكي أُقصي من أمامِ

وجهي ذلك الرُّعبَ؛ ولكنْ، في الحال، ما إن سمعتُ أنينها البهائميَّ الذي يُمزِّق القلوب، حتَّى أخذتُ رأسَها بين يَدَيَّ بحركةٍ يائسة، ورحتُ أصرخ:

- إنَّني أفقد عقلي! إنَّني أفقد عقلي!

لا أعلم كيف وقعَ الأمر، ولكنْ، في تلك الحركة اليائسة رأيتُ نفسي من جديد، وما كان من الدُّموع التي كانت على وشك أن تنفجرَ خارجةً من صدري آنذاك إلَّا أن تحوَّلتْ فجأةً إلى فرقعةِ قهقهاتٍ، وناديتُ تلك المسكينةَ ببيبي التي صيَّرتُها نصف عرجاء أن تأتي إليَّ بينما رحتُ أنا نفسي أعرجُ على سبيل السُّخرية، وأقولُ لها، وقد وقعتُ بالكامل فريسةً لمرحٍ هوسيٍّ مُخيف، إنَّني كنتُ ألهو، ألهو، وإنَّني أريدُ الاسترسال في لهوي. عطسَتِ البهيمةُ الصَّغيرة، كما لو أنَّها تقول لي:

- أرفض! أرفض!

- آه، حقًّا؟ ترفضين، يا بيبي، ترفضين؟

ثمَّ رحتُ أعطسُ أنا أيضاً بدوري مُقلِّداً إيَّاها، مردِّداً عندَ كلِّ عطسةٍ:

- أرفض! أرفض!

-V-
اللعبة المُبهجة

ركلتُها؟ أنا؟ تلك البهيمة المسكينة.

لا! لا! ليس أنا! إنَّه ذلك الفتى القرويُّ الضَّالُّ مَنْ فعلَ ذلك، مدفوعاً بخوفٍ غريبٍ اجتاحَ كيانَه بأكمله، خوفٍ من كلِّ شيءٍ ومن لا شيء: ذلك اللاشيء الذي كان من الممكن أن يتحوَّل بصورةٍ غير متوقَّعة إلى شيءٍ ما لن يراه أحدٌ سواه.

ولكنْ، هنا في المدينة، في هذه اللحظة، في هذا الشَّارع، لم يعد ثمَّة ما يثير الخوف. يا لِلهول! كلٌّ منَّا مستكنٌّ داخلَ أوهامه عن الآخَر، حدَّ أنَّه متيقِّنٌ من أنَّ الآخرين كلَّهم مخطئون إذا هم أنكروا أن يكون كلٌّ منهم مختلفاً عمَّا يراه الآخرون فيه.

ووددتُ لو أصرخ في وجوههم جميعاً:

- بل هو كذلك! هلمُّوا هلمُّوا! فلنلعب بعد، فلنلعب!

وكم رغبتُ أيضاً في أن ألوِّح لِمَنْ كان بالصُّدفة واقفاً ينظر من وراء زجاجِ نافذةٍ من النَّوافذ. هلمَّ! هلمَّ! حتَّى ولو اقتضى الأمرُ أن تفتحَ تلك النَّافذة، وتقفز منها.

- يا لها من لعبةٍ مُبهِجة! ومَنْ يعلم، يا سيِّدي العزيز، يا سيِّدتي العزيزة،

أيَّ مفاجآتٍ سارَّةٍ ستصادفون إذا ما استطعتُم، بعد أن يكون قد طُوِّحَ بكم خارجَ كلِّ وَهْمٍ من الأوهام التي تمتلكونها عن أنفسكم، أن تعودوا لهُنيهةٍ من مَوَاتِكم، لتشاهدوا في أوهام الآخرين الذين ما يزالون على قيد الحياة ذلك العالمَ الذي كنتم تتخيَّلون أنَّكم كنتم تعيشون فيه! هلمُّوا! هلمُّوا!

البليَّةُ تكمنُ في أنَّني كنتُ، كرجلٍ ما يزال على قيد الحياة، مُرغَماً على مشاهدة هذه اللعبة وسط الآخرين الذين ما يزالون على قيد الحياة: وإن كنتُ غير قادرٍ على فَهْمِ ذلك. واستحالة الفَهْم هذه، بالرَّغم من معرفتي التَّامَّة بأنَّ ما أريد فَهْمه موجودٌ هناك في عيون الآخرين، كانت تُحنق مزاجي المغرزَّ بمرحٍ هَوَسِيٍّ بالغةً به حدَّ الغضب الوحشيِّ.

تلك الرَّكلة التي صوَّبتُها منذ قليلٍ نحوَ البهيمةِ المسكينة لمجرَّد أنَّها حدَّقتْ في وجهي، أشعرُ الآن، فليغفر ليَ الله، برغبةٍ عارمةٍ في أن أُصوِّبها نحو البشريَّةِ جمعاء.

-VI-
ضربٌ وطرحٌ

حين عدتُ إلى المنزل، وجدتُ كوانتورثسو هناك، مستغرقاً في محادثةٍ جدِّيَّةٍ مع زوجتي ديدا.

هناك كانا، في حشمتهما المطمئنَّة، جالسَيْن في الإيوان الصَّغير نصف المضاء؛ هوَ ظلٌّ بدينٌ أسود، غائصٌ في الأريكة الخضراء؛ هيَ بيضاء نحيلة في ثوبها المزدحمِ بالشَّرائط والثَّنِيَّات، والذي انساحتْ ثلاثةُ أرباعه، لتفترشَ جوانبَ الكَنَبة، مع خيطِ شمسٍ على رقبتِها. كانا بالتَّأكيد يتحدَّثان عنِّي، لأنَّهما ما إن رأياني مُقبلاً حتَّى هتفا في الحال معاً:

- أوه، هو ذا هنا!

وبما أنَّ مَنْ رآني مُقبلاً كانا اثنَيْن، فقد اعترتْني رغبةٌ في أن ألتفتَ بحثاً عن الآخَر الذي أقبلَ معي، وأنا أعلم جيِّداً أنَّ "ڤيتانْجِلو العزيزَ" على قلب كوانتورثسو صديقِ الوالدِ كان هو أيضاً قابعاً فيَّ، تماماً كحال "جينجيه" فتى زوجتي ديدا، وأنَّني بكُلِّيَّتي لم أكن في نظر كوانتورثسو أحداً آخرَ سوى فتاه "ڤيتانْجِلو العزيز" مثلما لم أكن في نظر ديدا أحداً آخرَ سوى فتاها "جينجيه". كان ثمَّة، إذاً، اثنان، لا في نظرهما، وإنَّما في نظري وحدي فحسب، أنا الذي كنتُ أعلمُ علمَ اليقين أنَّني بالنِّسبة إلى ذينك الاثنَيْن كنتُ واحداً لذاك وواحداً آخر لتلك؛ الأمر الذي لم يعني بالنِّسبة إليَّ زيادةً، بل إنقاصاً، بقدر ما كان يعني، ضمناً، أنَّني في نظرهما كنتُ لا أحد.

في نظرهما فحسب؟ لا، فالشَّيء نفسه كان ينطبق عليَّ، على عزلةِ روحي التي في تلك اللحظة، ومن دون أيِّ اتِّساقٍ واضحٍ، كنهتْ سرَّ الخوفِ النَّابع من رؤية جسدي في حدِّ ذاته كجسدٍ لِلَّاأحد، في قلب ذلك الواقع المختلفِ والجامحِ الذي كان يسبغه عليَّ ذانك الاثنان في آنٍ واحد.

سألتْني زوجتي، إذْ رأتْني ألتفت:

- عمَّنْ تبحث؟

سارعتُ في الرَّدِّ، مبتسماً:

- آه، لا أحد، يا عزيزتي، لا أحد. ها نحن جميعاً هنا!

لم يفهما، بطبيعةِ الحال، ما قصدتُه بذلك "اللَّا أحد" الذي كنتُ أبحث عنه إلى جانبي؛ وظنَّا أيضاً أنَّني بقولي "ها نحن" كنتُ أشير إليهما، متيقِّنَيْن تماماً من أنَّنا هناك، في ذلك الإيوان، كنَّا حينذاك ثلاثةً فقط لا تسعة؛ أو بالأحرى ثمانية، نظراً إلى أنَّني، بالنِّسبة إلى نفسي، لم أعد أحداً تُعقَدُ عليه الآمال.

وأعني بذلك:

١. ديدا، كما هي في نظر نفسِها؛

٢. ديدا، كما هي في نظري؛

٣. ديدا، كما هي في نظر كوانتورتْسو؛

٤. كوانتورتْسو، كما هو في نظر نفسِه؛

٥. كوانتورتْسو، كما هو في نظر ديدا؛

٦. كوانتورتْسو، كما هو في نظري؛

٧. جينجيه، فتى ديدا الأثير؛

٨. ڤيتانْجِلو، العزيز على قلب كوانتورتْسو.

أيُّ محادثةٍ عذبةٍ كان يُعَدُّ لها هناك، في ذلك الإيوان الصَّغير، بين ثمانيةٍ كانوا يحسبون أنفسَهم ثلاثة!

-VII-
ولكنَّني طيلة الوقت كنت أقولُ لنفسي

(آهِ، يا إلهي، ألم يشعرا آنذاك بأنَّ الثِّقة بالنَّفس لديهما بدأتْ تضمحلُّ، إذْ رأى كلٌّ منهما نفسَه مُحَدَّقاً فيه بعينَيَّ اللتَيْن لا تعرفان كنهَ ما تريان؟

قفْ لحظةً لتنظرَ إلى شخصٍ يؤدِّي عملاً جدُّ واضحاً واعتياديَّاً من أعمال الحياة؛ حدِّق فيه بطريقةٍ تبعث في نفسِه الشَّكَّ بأنَّ ما يفعله ليس واضحاً لنا، وقد لا يكون واضحاً له هو أيضاً: يكفي أن تفعل ذلك، لترى كيف أنَّ تلك الثِّقة بالنَّفس لن تلبث أن تغيمَ وتتداعى. لا شيء يشوِّشُ ويُربكُ أكثر من عينَيْن فارغَتَيْن تقولان إنَّهما لا تريانا، أو لا تريان ما نراه.

- لمَ تُحدِّق فيَّ هكذا؟

ولا أحد يخطر له أن يفكِّر في أنَّ تلك هي الطَّريقة التي يتحتَّم علينا جميعاً أن نُحدِّق دائماً بها، كلٌّ بعينَيْن مُترعَتَيْن بالخوفِ من عزلةٍ لا مفرَّ منها).

-VIII-
في الصَّميم

لقد بدأ كوانتورتْسو، بالفعل، يشعرُ بالقلق، من اللحظة التي قابلتْ فيها عيناه عينَيَّ؛ وراحَ يضربُ بلا هدفٍ في حديثه؛ رافعاً من وقتٍ إلى آخر، وبصورةٍ لاإراديَّةٍ، يدَه، كما لو ليقول:

- "لا، مهلاً".

ولكنَّني لم أتأخَّر في اكتشاف خطئي.

لقد تاهَ على ذلك النَّحو في حديثه، لا لأنَّ نظرتي خلخلَتْ ثقته بنفسه، بل لأنَّه حَسِبَ أنَّه قرأ في عينَيَّ أنَّني استوعبتُ بالفعلِ الهدفَ الخفيَّ الذي لأجله جاء لزيارتي، ألا وهو: إيثاق يَدَيَّ وقَدَمَيَّ، بالاتِّفاق مع فيربو، على أساس أنَّه لم يعد قادراً على البقاء مديراً للمصرف، إذا كنتُ أنوي منحَ نفسيَ حقَّ القيامِ بمثل تلك الأفعال اللامتوقَّعة والجائرة، والتي لا هو ولا فيربو سيكونان قادرَيْن على النُّهوض بأعباء تبعاتها.

مُستيقِناً من هذا، آنذاك، وجدتُني أكثر عزماً على إرباكه، ولكنْ، ليس باستعجالٍ كما فعلتُ في تلك المرَّة حين رحتُ أهذرُ وأومئ كالمجنون أمامَه وأمامَ فيربو، بل بأسلوبٍ مُعاكس. استهوتْني فكرةُ أن أرى على أيَّةِ حالٍ سيمضي، بعدما جاءَ عاقدَ العزمِ على غايتِه. استهواءٌ ربَّما أوحتْ بهِ إليَّ رباطةُ جأشه العدائيَّة. أردتُ أن أبرهنَ لنفسي مرَّةً أخرى، مع أنَّني

لم أعد في حاجةٍ إلى فِعلِ ذلك، كيف أنَّ أمراً في غاية التَّفاهة كان كافياً لتقويض ذلك العزم: كلمةً كنتُ لِأقولها، النَّبرةَ التي كنتُ لأنطق تلك الكلمة بها،- بصورةٍ تؤدِّي إلى بلبلتِهِ، وإلى جعلِه يعدل عن رأيه، ومع الرَّأي، بالضَّرورة، عن تلك الحقيقةِ المكينةِ مثلما كان يحسُّها في داخله، ويراها ويلمسها خارجَ نفسِه.

ما إن قال لي إنَّ فيربو، على وجه الخصوص، كان غير قادرٍ على الإخلادِ إلى الرَّاحة بسبب ما فعلتُه، حتَّى رسمتُ على شَفَتَيَّ ابتسامةً بلهاء، لكي أثيرَ غضبَه، وسألتُه:

- إلى الآن؟

لقد غضبَ بالفِعل:

- إلى الآن؟ ألا تعلم ما الذي فعلتَه، يا عزيزي؟! لقد تركتَ كلَّ تلك الوثائق التي في الخزانة المكتبيَّة في حالٍ من الفوضى، سيلزمه معها شهران على الأقلِّ لكي يعيدَها إلى تصنيفها السَّابق.

أظهرتُ حينذاك ملامحَ جدِّيَّةً للغاية، فيما تحوَّلتُ إلى ديدا قائلاً:

- أترين، يا عزيزتي؟ وأنتِ التي ظننتِها مجرَّدَ مزحة.

نظرتْ إليَّ ديدا في الحالِ، وقد أخذت منها الحيرة كلَّ مأخذ؛ ثمَّ نظرتْ إلى كوانتورتْسو؛ ثمَّ عادت فنظرتْ إليَّ من جديد؛ وفي نهاية المطاف، سألتْ بتوجُّسٍ:

- ولكنْ، في المحصِّلة، ما الذي فعلتَه؟

أومأتُ لها بيدي أن تنتظر. ثمَّ، بجدِّيَّةٍ أكبر التفتُّ إلى كوانتورتْسو، وقلتُ له:

- إذاً، تقول إنَّ السَّيِّد فيربو وجدَ تلك الفوضى في الخزانة المكتبيَّة، أليس كذلك؟ فلماذا لا تحاول أن تسألني الآن عمَّا وجدتُه أنا هناك؟

في تلك اللحظة، بدأ كوانتورتْسو يختلجُ في الأريكة وطَرَفَ جفناه عشرين مرَّةً تقريباً، كما لو في محاولةٍ غريزيَّةٍ للتَّغلُّب على الحيرة التي وقعَ فيها، لا بسبب سؤالي في حدِّ ذاته، بقدر ما كان بسبب نبرة الشَّكِّ التي نطقتُ بها ذلك السُّؤال.

- ما الذي... ما الذي وجدتَه؟- تلعثمَ.

عاجلتُه بالرَّدِّ، مُرفِقاً كلماتي بإشارةٍ من يَدِي:

- حفنةٌ من الغبار: بقَدْرِ هذا!

حدَّقا أحدهما في عينَي الآخر بانشداهٍ؛ ذلك أنَّ نبرةَ صوتي أقصتْ أيَّ اعتقادٍ بأنَّني على سبيلِ البلاهةِ قلتُ ذلك الشَّيءَ الأبلهَ في حدِّ ذاته: ومن قلبِ حيرتِه، ردَّدَ كوانتورتْسو:

- حفنةٌ من الغبار؟ ماذا يعني هذا؟

- أوه، حسناً! هذا يعني أنَّ كلَّ تلك الوثائق قد تُرِكَتْ راقدةً هناك طوالَ تلك السَّنوات! إنَّها حفنةٌ كاملة، كما أقول لكَ، حفنةٌ كاملةٌ من الغبار. وفوق ذلك، منزلٌ غير مؤجَّرٍ هنا، وآخر هناك يعلم الله منذ متى لم يُستوفَ إيجارُه!

كان كوانتورتْسو على ما بدا - وهو شيءٌ لم أكن أتوقَّعه - أكثر انشداهاً هذه المرَّة من أيٍّ وقتٍ مضى:

- آه،- قالَ،- وأخذتَ أنتَ على عاتقكَ مسألة إيقاظ تلك المنازل: بتقديمها هبةً؟

- لا، يا عزيزي،- صحتُ على الفور في وجهه، مُلهباً حماستي قليلاً، على نحوٍ مُصطنَع، لا أُنكر ذلك، ولكنَّه لا يخلو من بعض الجدِّيَّة.- لا، يا عزيزي! إنَّما فعلتُ ذلك لأريكم أنَّكم مخطئون جدَّاً تجاهي، أنتَ، وفيربو، والآخرين جميعاً! أهذر، وأهذر، أتفوَّه بالحماقات، أبدو شارداً؛ ولكنْ، أتعلم أنَّ ذلك ليس صحيحاً؟ ذلك أنَّني أراقب كلَّ شيءٍ في الحقيقة، أراقب كلَّ شيء!

هذه المرَّة، وكما توقَّعتُ، حاولَ كوانتورتْسو القيام بردٍّ فعلٍ، فصاحَ:

- ولكنْ، ماذا كنتَ تراقب؟ إنَّه لَمِنْ دواعي سروري أن أعرف! كنتَ تراقب غبارَ الخزانةِ المكتبيَّة، ليس إلَّا!

- ويَدَيَّ أيضاً،- أضفتُ على الفور، لا أدري لماذا، رافعاً إيَّاهما أمام وجهي: بنبرةِ صوتٍ بعثتْ فيَّ أنا نفسي قشعريرةً مفاجئةً، إذْ رأيتُني، بعين الذِّهن، واقفاً في تلك الغرفة الصَّغيرة، حيث توجدُ الخزانة المكتبيَّة، وأنا أرفع يَدَيَّ لأسرق تلك الوثيقة من نفسي، بعد أن استحضرتُ هناك في الدَّاخل صورةَ يَدَي والدي، البيضاوَيْن، والمكتنزتَيْن، والمثقلَتَيْن بالخواتم، والمكسوَّتَيْن بشعرٍ أحمرَ على الوجه العلويِّ للأصابع.

لم آتِ إلى المصرف،- واصلتُ حديثي، وقد شعرتُ فجأةً بالإعياء والغثيان، وسط حيرتهما الآخذةِ بالتَّفاقم،- لم آتِ إلى المصرف إلَّا عندما

استدعيتُموني لأوقِّع؛ ومع ذلك أودُّ أن ألفتَ انتباهكم إلى أنَّه لا حاجةَ لي بالقدوم إلى المصرف لكي أُحيط علماً بكلِّ ما يجري هناك.

نظرتُ إلى كوانتورتْسو بمؤخِّر عيني، فبدا لي شاحباً تماماً. (أوه، ولكنْ، حذارِ، إنَّني أتحدَّث دائماً عن كوانتورتْسو الذي يخصُّني أنا؛ فربَّما لم يكن كوانتورتْسو الذي يخصُّ ديدا شاحباً على الإطلاق، أو ربَّما كانت ستعزو ذلك، إذا بدا لها شاحباً مثلما بدا لي، إلى السُّخط، لا إلى الخوف الذي أستطيع أن أُقسم أنَّه استولى على كوانتورتْسو الذي يخصُّني.) ومهما يكن من أمرٍ، فإنَّه رفعَ يَدَيْه إلى صدره بحركةٍ غريزيَّةٍ، فيما جحظتْ عيناه وهو يسألني:

- آه، لديكَ جواسيسكَ، إذاً؟ إنَّكَ لا تثق بنا، إذاً؟

- ليس الأمرُ أنَّني لا أثق بكما، ليس كذلك؛ وليس لديَّ جواسيس،- سارعتُ إلى طمأنتِه. إنَّني أراقبُ من الخارج تبعاتِ أعمالكما؛ وحسبي ذلك. ولكنْ، أجبني: أتسيران، أنتَ وفيربو، على طريقة والدي ونهجه في إدارتكما للصَّفقات؟

- نقطةً نقطة!

- لا أشكُّ في ذلك. ولكنْ، من جانبكما، فأنتما مَحميَّان للموقعِ الذي تشغلانه: الأوَّلُ كمديرٍ، والآخر كمستشارٍ قانونيٍّ. والدي، للأسف، لم يعد موجوداً. أريد أن أعرف مَنْ المسؤول أمامَ النَّاس عمَّا يقوم به المصرف؟

- ماذا تعني، مَنْ المسؤول؟- قال كوانتورتْسو. - نحن طبعاً، نحن! ولأنَّنا نحن المسؤولان، نريد أن نتأكَّد من أنَّكَ لن تتدخَّل مرَّةً أخرى في هذه الشُّؤون، بالإقدام على بعض الأفعال اللامدروسة، لئلَّا أقول أكثر من ذلك!

نفيتُ ذلك بإصبعي أوَّلاً؛ ثمَّ قلتُ بهدوءٍ:

- هذا ليس صحيحاً. ليس في حال كنتُما تسيران نقطةً نقطةً على طريقةِ والدي ونهجه. إنَّه أنا، على أيَّة حال، مَنْ عليكما أن تكونا مسؤولَيْن أمامَه متى خرجتُما عن ذلك النَّهج، وأنا مَنْ يملك الحقَّ في سؤالكما ومحاسبتكما. أمَّا الآن، فإنَّني أسألكَ: مَنْ المسؤول أمامَ النَّاس؟ إنَّه أنا، أنا الذي أوقِّع لكما الأوراق: أنا! أنا! وفوق ذلك عليَّ أن أُراعي هذا: أنَّكما تريدان أن أُوقِّع على كلِّ ما تقومان به، بينما تُنكران عليَّ مصادقتكما على شيءٍ واحدٍ أفعله.

لا بدَّ أنَّ الخوف أخذ منه كلَّ مأخذ، لأنَّني في تلك اللحظة رأيته يطفرُ ثلاث طفراتٍ خِفافٍ على الأريكة، صائحاً:

- أوه، جميل! جميل! جميل! ولكنَّ سببَ ذلك ببساطةٍ هو أنَّ ما نقوم به نحن لا يعدو كونَه من قبيل المعاملات العاديَّة للمصرف! في حين أنَّ ما تقوم به أنتَ، معذرةً، ولكنْ، أنتَ مَنْ يُجبرني على قول ذلك، لا يقوم به إلَّا رجلٌ مجنونٌ! مجنون!

قفزتُ على قَدَمَيَّ؛ وصوَّبتُ سبَّابتي نحوَ صدره، مثلَ سلاح.

- أوَتظنُّني مجنوناً؟

- أوه، لا!- قال، وقد امتُقِعَ وجهُه على الفور تحتَ وعيدِ تلك الإصبع.

- لا، أليس كذلك؟- صحتُ في وجهه مُسمِّراً إيَّاه بنظرةٍ منِّي.- إذاً يمكن القولُ إنَّ تلك المسألة الصَّغيرة التي بيننا قد سوِّيَت على أيَّةِ حال!

آنذاك، وكما لو أنَّه تُرِكَ معلَّقاً في الهواء، راحَ كوانتورتْسو يترنَّح في

مكانه؛ لا لأنَّ الشَّكَّ في أنَّني ربمَّا أكون مجنوناً حقَّاً قد انبعث في تلك اللحظة مجدَّداً في داخله، لا؛ ولكنْ لأنَّه، حين لم يفهم سبب إصراري على تسوية الخلاف حول إذا ما كنتُ مجنوناً أم لا، ولتخوُّفه، وهو في تلك الحالة من عدم اليقين، من فخٍّ يُنصَب له مِن قِبَلي، بدأ يتندَّم شيئاً فشيئاً على قوله لا، ثمَّ مع نصف ابتسامةٍ على وجهه حاولَ التَّراجع عن ذلك:

- لا، مهلاً... ولكنْ، عليك أن تُقرَّ...

يا لِلرَّوعة! آه، يا لِلرَّوعة التي كانت تنفجر بها الأمور! كان واضحاً عند تلك المرحلة أنَّ ديدا، التي ما برحت تنظر بتجهُّمٍ تارةً إليَّ، وتارةً إليه، أصبحتْ لا تعرف ماذا تظنُّ به، ولا ماذا تظنُّ بي. إنَّ فورتي تلك، وسؤاليَ المباغتَ ذاك، كانا بالنِّسبة إليها - وذلك أمرٌ مفهومٌ - فورةَ فتاها جينجيه وسؤالَه؛ ولَمَّا كانا كذلك، فإنَّ الأمر برمَّته بدا لها غير قابلٍ للفَهْم، إلَّا إذا كان كوانتورتْسو الحاضر هناك والسَّيِّد فيربو قد اقترفا ذنباً كبيراً لدرجة تحويل فتاها جينجيه حينذاك، أوه، يا إلهي، إلى شخصٍ يستحيل عليها تماماً تمييزُه، وذلك أمامَ حيرةِ كوانتورتْسو الآنيَّة. تلك الفورة، أقول، وذلك السُّؤال، كان لهما الأثر في جعلها تشكُّ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى في حصافةِ عقلِ صديقها المحترم، كوانتورتْسو. وقد انعكس بوضوحٍ في بريقِ عينَيْها ذلك الشَّكُّ في كوانتورتْسو، حينما التفتَ هذا إليها أيضاً، مع تلك الابتسامة النَّاقصة في محاولته التَّراجع عمَّا قاله، فرأتْه غارقاً في حيرته أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، وكأنَّه أدرك فجأةً أنَّه يفتقر من جانبه إلى ذلك اليقين الرَّاسخ الذي كان يعتقد، حتَّى تلك اللحظة، أنَّ في إمكانه الرُّكون إليه.

انفجرتُ ضاحكاً؛ ولكنْ، لا هو ولا هي عرفا سببَ ذلك. شيءٌ ما كان يُغريني بأن أهزَّهما، صارخاً في وجهَيْهما: "أتريان؟ أتريان؟ كيف يمكنكما

إذاً أن تكونا على تلك الدَّرجة من اليقين، إذا كان أدنى انطباعٍ كافياً، في أيَّة لحظة، لجعلكما تشكَّان في نفسَيْكما، وفي الآخرين؟"

- فلننسَ ذلك!- أنهيتُ الحديثَ مع حركةٍ تُعبِّرُ عن السُّخط، لكي أُلمِحَ لهما إلى أنَّ أيَّ رأيٍ قد يُكوَّن عنِّي، أو عن سلامة عقلي، لم يعد له، أقلُّه في الوقت الرَّاهن، أدنى أهمِّيَّة.- أجبني. لقد رأيتُ في المصرف عدداً من الموازين، صغيرةٍ وكبيرة. إنَّكم تستخدمونها لوزن العقود على ما أظنُّ، أليس كذلك؟ ولكنْ، أنتَ، قلْ لي شيئاً، نعم، أنتَ، أنتَ، قل لي: هل وزنْتَ مرَّةً داخلَ ضميركَ، بموازين الآخرين، ما تُسمِّيه أنتَ بالمعاملاتِ العاديَّةِ للمصرف؟

عندَ ذلك السُّؤال، نظر كوانتورتْسو مرَّةً أخرى من حوله، وكأنَّه شعرَ بأنَّ أحداً آخر، بالإضافةِ إليَّ، يرمي به غدراً خارجَ الطَّريق.

- داخلَ ضميري؟ كيف هذا؟

- أتظنُّ أنَّ لا علاقة لضميركَ بهذا؟- رَدَدْتُ عليه سؤالَه في الحال.- آه، أفهم ذلك! وربَّما كنتَ تظنُّ أنَّ ضميري أيضاً لا علاقة له، بالنَّظر إلى أنَّني تركتُه لكما في المصرف كلَّ تلك السَّنوات، لكي تُديراه، جنباً إلى جنبٍ مع بقيَّة الميراث، وفقاً لطريقة والدي ونهجه.

- ولكنَّ المصرف...- حاولَ كوانتورتْسو أن يعترض.

فاندفعتُ من جديد:

- المصرف... المصرف... ذلك هو كلُّ ما تستطيع التَّفكير فيه، المصرف. أمَّا أنا، خارجَ المصرف، فعليَّ أن أسمع الآخرين يَدْعُونني مُرابياً!

عندَ هذه العبارة التي لم تكن بالحسبان، قفز كوانتورتْسو بدوره على قَدَمَيْه، كما لو أنَّني نطقتُ بأكثر كلمات التَّجديف هولاً أو بأكثر الحماقات قُبحاً؛ وهتف رافعاً ذراعَيْه، وهو يبحث عن مخرَجٍ له: "أوه، تباركَ الله!" وردَّد مرَّةً أخرى: "أوه، تباركَ الله" متراجعاً إلى الوراء، ورأسه بين يَدَيْه بينما عيناه تُحدِّقان في زوجتي ديدا، وكأنَّه يقول لها: "أتسمعين هذا؟ أتسمعين هذه الحماقات الصِّبيانيَّة؟ وأنا الذي أتيتُ مُتصوِّراً أنَّ لديه شيئاً جدِّيّاً يقوله لي!". هزَّني من ذراعَيَّ، ليُوقِظني ربمَّا من حالةِ الذُّهول التي انتابتْني غريزيّاً بدوري ما إن رأيتُ حركته المسرحيَّة الانفعاليَّة، وصرخَ في وجهي:

- ولكنْ، أتنطلق حقّاً من اعتقادٍ جادٍّ في ما تقوله؟ اغربْ عنِّي، بالله عليكَ! اغربْ عنِّي!

وعلى سبيل الانتقام أشار بإصبعه، كبرهانٍ، إلى زوجتي التي كانت تضحك، - وآه كم ضحكتْ، ضحكتْ حتَّى كادت خاصرتاها تنفجران،- وذلك بلا شكٍّ بسبب ما قلتُه للتَّوِّ، ولكنْ، ربمَّا كان أيضاً بسبب تأثير كلماتي في كوانتورتْسو، ناهيك عن حالة الذُّهول التي انتابتْني بعدَ ذلك والتي بلا شكٍّ أنعشتْ آخرَ الأمر في داخلها الصُّورةَ الأشدَّ ائتلاقاً لِفتاها جينجيه وحماقتِهِ الأثيرةِ والمعهودة.

ومهما يكن من أمرٍ، فإنَّني شعرتُ على صوتِ قهقهتها بطعنةٍ مُباغِتةٍ تخترقني، الأمر الذي لم أكن لأتوقَّعَ أبداً أن يحدث لي في مثل تلك اللحظة، بالنَّظر إلى الحالة الذِّهنيَّة التي بها أثرتُ من ناحيةِ هذه المحادثة، ومن ناحيةٍ أخرى تركتُها تنجرف بي بعيداً: لقد طُعِنتُ في نقطةٍ حيَّةٍ في صميم كينونتي، نقطةٍ لم أدرِ ما هي، ولا أين تكون. كان يبدو لي واضحاً حتَّى ذلك الحين في وجود ذينك الاثنَيْن أنَّني، أنا كأنا، لم أكن موجوداً، وبدلاً

منِّي كان ثمَّة "جينجيه" فتى تلك و" ڤيتانْجِلو" صديق ذلك؛ واللذَيْن لم أستطع يوماً أن أشعر بأنَّني حيٌّ من خلالهما.

هكذا، خارجَ كلِّ صورةٍ قد أبدو فيها لنفسي حيَّاً، كأيِّ شخصٍ حتَّى في نظر نفسي، وخارجَ كلِّ صورةٍ عنِّي قد أتخيَّلُها في عيون الآخرين؛ فإنَّ "نقطةً حيَّةً" في أعمقِ أعماق كينونتي قد شعرَتْ بأنَّها طُعِنتْ، طعنةً أفقدتْني نورَ عينَيَّ.

- توقَّفي عن الضَّحك!- صرختُ في وجه زوجتي التي نظرتْ إليَّ (ومَنْ يعلم أيَّ سحنةٍ رأتْ حينذاك على وجهي) بصوتٍ أصابها بالخرَسِ فجأةً، وأفقدَها كلَّ أساريرها.

- وأنتَ، أصغِ جيِّداً لما سأقوله لكَ،- أضفتُ على الفور، ملتفتاً إلى كوانتورتْسو.- أريدُ إغلاق المصرف نهائيَّاً بحلولِ هذا المساء.

- إغلاق المصرف؟ ما الذي تقوله؟

- إغلاق! إغلاق!- ألححتُ مُستعلياً عليه.- أريده مغلقاً بحلول هذا المساء. أنا هو المالك هنا، أليس كذلك؟

- لا، يا عزيزي! عن أيِّ مالكٍ تتحدَّث؟!- انتفضَ.- إنَّك لستَ وحدَك المالك هنا، لستَ وحدكَ المالك بأيِّ حالٍ من الأحوال.

- ومَنْ هُمُ الآخرون؟ أنتَ؟ السَّيِّد فيربو؟

- إنَّه حموك طبعاً، وكثيرون غيرُه!

- ولكنَّ المصرف لا يحمل سوى اسمي.

- لا، إنَّه يحمل اسم أبيكَ الذي أسَّسَه!

- حسناً إذاً، أريدُ إزالةَ الاسم!

- إزالةَ الاسم؟! ذلك مستحيل!

- أوه، فكِّرْ قليلاً. ألستُ المالكَ لاسمي؟ ولاسمِ والدي؟

- لا، لأنَّ ذلك الاسمَ جزءٌ من ميثاق تأسيس المصرف؛ إنَّه اسمُ المصرف الذي هو صنيعةُ والدكَ، بقَدْر ما أنتَ صنيعته! وهو يحمل اسمَه بنفسِ الحقِّ الذي تحمله أنتَ به!

- آه، هكذا إذاً.

- هكذا، هكذا!

- وماذا عن الأموال؟ الأموال التي أودَعَها والدي في المصرف، والتي هي أمواله الخاصَّة؟ أللمصرف أم لي أنا ترك والدي تلك الأموال؟

- لك، ولكنَّها تُوَظَّفُ في العمليَّات المصرفيَّة.

- ولنفترض أنَّني لم أعد راغباً في ذلك؟ لنفترض أنَّني أريد أن أسحبها لأوظِّفها في مكانٍ آخر، بالطَّريقة التي أراها مناسبة، أليس لديَّ الحقُّ في ذلك؟

- ولكنَّك ستُدمِّرُ المصرفَ إذا فعلتَ ذلك!

- وأيَّ فرقٍ سيُحدِثه ذلك لي في رأيكَ؟ لا أريد أن أسمع المزيد عن هذا الموضوع، أقول لكَ!

- ولكنَّه سيُحدِث فرقاً للآخرين، اسمحْ لي أن أقول! إنَّكَ تُدمِّرُ مصالحَ الآخرين، مصالحكَ، مصالح زوجتكَ، ومصالحَ حميكَ!

- لا شيء من هذا القبيل على الإطلاق! يمكن للآخرين أن يفعلوا ما يحلو لهم: يمكنهم الإبقاءُ على أموالهم هناك؛ أمَّا أنا، فسأسحب أموالي.

- تريد تصفيةَ الشِّركةِ المصرفيَّةِ إذاً؟

- لا أعرف شيئاً عن هذه الأمور! أعرف ما أريد فحسب، "ما أريد" أتفهم؟ أريدُ سحبَ أموالي، وهذا كلُّ ما في الأمر!

أرى الآنَ جيِّداً أنَّ تلك المشاحنات العنيفة، المتواترة بين أخذٍ ورَدٍّ، ليست سوى مباريات ملاكمةٍ حقيقيَّةٍ بين إرادَتَيْن متعاكسَتَيْن، كلٌّ منهما في المقابل تسعى إلى إنهاء الأخرى بالضَّربة القاضية، تسديداً، وصَدَّاً، ورَدَّاً للَّكمات، وهي على يقينٍ من أنَّ لكمةً مُحكَمة التَّسديد ستكون قادرةً على طرح الأخرى أرضاً؛ هكذا إلى أن تصبح كلٌّ منهما، إثْرَ المقاومة الصُّلبة لكلِّ لكمةٍ من اللكمات المناوئة، مقتنعةً أكثر فأكثر بعدم جدوى الإصرار بما أنَّ الخصمَ لن يتنازل. غير أنَّ أكثر الصُّور إثارةً للسُّخرية هي تلك التي رسمتْها القبضاتُ الحقيقيَّةُ المصاحِبة لتلك الكلماتِ الغاضبةِ، أو بالأحرى لذلك الصُّراخِ، وهي تُرفَعُ غريزيَّاً لتبلغَ خطمَ الخصم ولكنْ من دون أن تلمسَه، ومعها تلك الأسنانُ التي تصرُّ والأنوفُ التي تتجعَّد والحواجبُ التي تتقطَّبُ والجسدُ الذي يرتجفُ بأكمله.

مع تلك القذائف الثَّلاث مِن "أريد"، "أريد"، "أريد"، لا بدَّ أنَّني سحقتُ المقاومةَ التي أبداها كوانتورتسو. فلقد رأيتُه يضمُّ يدَيه إلى بعضهما وكأنَّه يصلِّي:

- ولكنْ، أيمكن لأحدٍ أن يعرف على الأقلِّ لماذا؟ لماذا هكذا بين عشيَّةٍ وضحاها؟

شعرتُ، إذْ رأيتُه في ذلك الموقف، بما يشبه الدُّوار. ففجأةً أدركتُ أنَّه من المستحيل لي أن أشرحَ في تلك اللحظة بالذَّات له ولزوجتي، وقد وقفا مُتحيِّرَين من كلماتي، هو مُتضرِّعاً وهي واجفةً ومتوجِّسة، الدَّوافعَ الكامنةَ وراءَ قراريَ المتصلِّب الذي كان حِملاً ثقيلاً على الجميع. تلك الدَّوافع، التي كنتُ أشعرُ بها في تلك اللحظة متواشجةً ورقيقةً ومتلوِّيةً من آلام تأمُّلاتي الطَّويلة، لم تعد واضحةً حتَّى لي أنا نفسي، بعدما طوَّحتْ بي فورةُ الغضب في قلب ذلك الثَّبات المريع لضياءٍ كئيبٍ غشيَتني بروقُه وحدي من هول ما تكشَّفَ لي: في حين لم يكن ثمَّة شيءٌ سوى الظَّلام مخيِّماً على جميع أولئك الآخرين الذين مضوا في عيشهم عُمْياً ومطمئنِّين داخلَ الكمالِ المعتادِ لمشاعرهم. في الوقتِ نفسِه، أدركتُ أنَّني ما إن أرفعَ الحجابَ قليلاً عن واحدٍ منِّي فقط، حتَّى أبدوَ لذينك الاثنَيْن مجنوناً على نحوٍ لا يمكن التَّجاوز عنه: فعلى سبيل المثال، حتَّى بضعِ لحظاتٍ خلتْ، لم أكن قد رأيتُ نفسي قطُّ مثلما رآني على الدَّوام هذان الاثنان، أي كرجلٍ يواصلُ العيش مطمئنّاً ورخيَّ البالِ على العائدات الرِّبَويَّة لذلك المصرف، من دون أن يجد نفسَه مرغَماً على الإعتراف صراحةً بتلك الحقيقة. حين ألمحتُ في وجودهما بالكادِ إلى ذلك، بدا الأمرُ له ولها محضَ حيلةٍ ساذجةٍ ومتكلِّفةٍ استنهضَتْ في الأوَّل تلك الحركة المسرحيَّة الانفعاليَّة، وفي الأخرى تلك القهقهة التي بلا نهاية. فكيف لي، إذاً، أن أقول لهما إنَّه على هذه "السَّذاجةِ" بالضَّبط، على هذه "السَّذاجةِ" التي لم تُصدِّقها عيونهما، قد شيَّدتُ ثِقلَ قراريَ كلَّه؟ أحسبوا أنَّني كنتُ على الدَّوام مُرابياً، على الدَّوام، حتَّى من قبل أن أولَد؟ ألم

أرَ نفسي على الطَّريق الرَّئيسة للجنون منبرياً للقيام بفِعلٍ لا بدَّ وأنَّه بدا في عيون الجميع مُناقِضاً لي وغيرَ منسجمٍ معي؟ ألم أفعل ذلك مُخرِجاً رغبتي منِّي، كما لو كنتُ أخرجُ منديلاً من جيبي؟ ألم أُدرك أنا نفسي أنَّه من الممكن للسَّيِّد ڤيتانْجِلو موسكاردا المرابي أن يُجَنَّ، بينما لا يمكن له بأيِّ شكلٍّ من الأشكال أن يُدمِّرَ نفسَه؟

ولكنْ، مهما يكن مِن أمرٍ، فهذه هي، هذه هي بالضَّبط "النُّقطة الحيَّة" التي طُعِنَتْ في أعماقي، طعنةً أعمتْني وأفقدتْني في اللحظةِ إيَّاها إدراكي بأكمله: مُرابٍ، لا. ذلك المرابي الذي لم أكنْه يوماً قبل تلك اللحظة في نظر نفسي، بتُّ أرفض من تلك اللحظة أن أكونه في نظر الآخرين، حتَّى وإن عنى ذلك دمارَ كلِّ الأشياء التي تشكِّلُ معاً معنى حياتي. شعورٌ واحدٌ، في نهاية المطاف، كان قد تُرِكَ لي، مُدعَّماً على نحوٍ جيِّدٍ بقوَّة الإرادة التي منحتْني إيَّاها (بالرَّغم من أنَّني حتَّى تلك اللحظة لم أعِ ذلك إلَّا بشيءٍ من الجزعِ والرِّيبة) تلك الصَّلابةُ المكينةُ نفسُها، صلابةُ الآخرين الصَّمَّاء والموصدَةُ على نفسِها مثلَ حَجَر. حيث إنَّه كان كافياً أن تستغلَّ زوجتي ذهوليَ المفاجئ، وتندفع نحوي لتأمرَ فتاها جينجيه بأن يُنهي مرَّةً وإلى الأبد تلك المسرحيَّة الاستبداديَّة السَّخيفة التي فرضَ أداءَها على نفسِه، أقول، كان كافياً أن أراها تقبلُ عليَّ، قائلةً ما قالتْه، ويداها على وجهها، لكي أفقدَ مرَّةً أخرى نورَ عينَيَّ وأقبضَ على معصميها هازَّاً إيَّاها ودافعاً بها إلى الوراء لتسقطَ جالسةً على الكَنَبة:

- فلتنهي أنتِ ذلك، أنتِ وفتاكِ جينجيه الذي ليس أنا، ليس أنا، ليس أنا! لا أريد أن أسمع كلمةً أخرى عن هذه الدُّمية المتحرِّكة! أريدُ ما أريد؛ وما أريدُه سيكون!

التفتُّ إلى كوانتورتْسو.

- أفهمتَ؟

وغادرتُ الإيوانَ هائجاً.

الكتاب السَّادس

-I-
وجهاً لوجه

بعد فترةٍ وجيزةٍ من ذلك، حبيساً في غرفتي كحيوانٍ برِّيٍّ في قفص، رحتُ أنفخ غضباً من ذلك العنف الذي (لأوَّلِ مرَّةٍ) استخدمتُه مع زوجتي. لم أستطع أن أنتزعَ من عينَيَّ طيفَها الرَّقيقَ الرَّافلَ بالبياض وهو يتصدَّع تحتَ قبضتَيَّ القابضَتَيْن على معصمَيْهَا، إذْ رججتُها ودفعتُ بها إلى الوراء لتسقط جالسةً على الكَنَبة.

آهِ، ما أرقَّها كانت، مع كلِّ تلك الشَّرائط والثَّنِيَّات حولَ ثوبها الأبيض كالثَّلج، وهي تتلقَّى صدمةَ عنفي البهائميَّة!

محطَّمَةً آنذاك، كمثلِ دميةٍ هشَّةٍ، وقد رُمِيَتْ باهتياجٍ مفرطٍ على تلك الكَنَبة، أدركتُ فجأةً أنَّني لن أكون قادراً أبداً على ضمِّ أجزائها المتفرِّقة من جديد. أدركتُ أنَّ حياتي بأسرها، تلك التي حتَّى تلك اللحظة كنتُ قد أمضيتُها معها، والتي كانت بدورِها مجرَّدَ لعبةٍ في يد تلك الدُّمية: أدركتُ أنَّها تحطَّمتْ، وانتهتْ، ربَّما إلى الأبد.

كان رعبي من ذلك العنف ما يزال يرتعش بقوَّةٍ في يَدَيَّ المرتعدَتَيْن. ولكنْ، ما لبثتُ أن تفطَّنتُ إلى أنَّ ذلك الرُّعبَ لم يكن بسبب العنف الذي مارستُه بقدرِ ما كان بسبب الاندفاعة العمياء لذلك الشُّعور، ولتلك الرَّغبة اللذَيْن انبجسا في أعماقي، وانتهيا بي إلى منحيَ جسداً: جسداً بهائميَّاً أثارَ الرُّعبَ وألبسَ يَدَيَّ لَبوسَ الوحشيَّة.

كنتُ أتحوَّلُ إلى "واحدٍ".

أنا.

أنا الذي رغبتُ في تلك اللحظة أن أكون هكذا.

أنا الذي شعرتُ في تلك اللحظة أنَّني هكذا.

وأخيراً!

لم أعد ذلك المرابي (لقد نلتُ ما يكفي من ذلك المصرف): كما لم أعد جينجيه (كفاني ما نلته من تلك الدُّمية المتحرِّكة).

ولكنَّ قلبي بقيَ يضجُّ في صدري. لقد قطعَ أنفاسي. فتحتُ وأغلقتُ يديَّ، غارزاً أظفاري في لحمي. وبالكاد منتبهاً إلى ذلك، رحتُ أخمشُ راحةَ يدٍ بأظفار الأخرى، وأنا ما أزال أذرع الغرفةَ جيئةً وذهاباً، قارضاً نفسي كحصانٍ لن يؤذيه عضُّ نفسِه. كنتُ أهذي.

"ولكنْ، أنا، واحدٌ، مَنْ؟ مَنْ؟"

أحقَّاً لم تعدْ لي عينان أرى بهما نفسي كواحدٍ حتَّى في نظر نفسي؟ العيون، عيون الآخرين كلِّهم كنتُ ما أزال أراها منصبَّةً عليَّ، حتَّى وإن لم أستطع بأيَّة حالٍ من الأحوال أن أعرف كيف كانوا ينظرون إليَّ آنذاك، وأنا مسلوبٌ بتلك الرَّغبة الجديدة التي انبجستْ فيَّ، ما دمتُ أنا نفسي لم أكن قد عرفتُ بعد ماذا أمثِّلُ لنفسي.

لم أكن جينجيه.

بل آخرَ.

هذا هو بالضَّبط ما رغبتُ فيه.

ولكنْ، أيُّ آخرَ كنتُ أمتلك في داخلي، إنْ لم يكن هذا العذابَ الذي كان يُريني نفسي لا أحدَ ومِائةَ ألف؟

ربَّما كانت رغبتي الجديدة هذه، وشعوريَ الجديد هذا، يندفعان اندفاعتهما العمياء من قلب الجرح الذي تلقَّيتُه في تلك النُّقطة الحيَّةِ والمجهولةِ في داخلي، إلَّا أنَّهما سرعان ما كانا يهويان، يهويان تحت الثَّبات المريع لذلك الضِّياء الكئيب الذي غشيَتني بروقُه من هول ما تكشَّفَ لي.

ومع ذلك كنتُ أبحث، عبرَ تجميع أجزائي المتفرِّقة، عن أيِّ إلماعٍ إلى شيءٍ ما من شأنه، مع قليلٍ من دماء ذلك الجرح وقليلٍ من ذلك الشُّعور المُمزَّق المُضنَى، أن يمكِّنني من إقامة الهيكل المضعضَعِ لذلك القليل الذي بقي لي من إرادتي: أوه، رجلاً ضئيلاً هزيلاً بائساً كنتُ، دائمَ الارتياع من عيون الآخرين؛ مع حقيبةٍ صغيرةٍ في يده ملأى بالمالِ المحصَّلِ من تصفيةِ الشِّركة المصرفيَّة. وهو يتساءل: كيف سأتمكَّن من التَّصرُّف في ذلك المال الآن؟ أتُراني كسبتُه من عملي؟ أتُراني سحبتُه من المصرف لكيلا يعود عليَّ بمزيدٍ من الرِّبا؟ وهل كان ذلك كافياً لتطهيره من الوصمة الكامنة في مصدره الأوَّل؟ ماذا بعدئذٍ؟ أأرمي بها بعيداً؟ كيف لي أن أحيا من دونها؟ أيُّ الأعمال كنتُ قادراً على القيام بها؟ وديدا؟

هي أيضاً - وذلك ما شعرتُ به آنذاك، بعد أن رحلتْ من المنزل - هي أيضاً كانت نقطةً حيَّةً في أعماقي. لقد أحببتُها، على الرَّغم من العذاب الذي حلَّ بي من وعيي الكامل بأنَّني لم أكن، في جسدي نفسِه، أنتمي إلى نفسي بصفتي موضوعاً لحبِّها. ومع ذلك، فكلُّ تلك العذوبة التي كانت

تغشى ذلك الجسد من حبِّها، كنتُ أتذوَّقها، في شهوةِ العناق العمياء؛ حتَّى وإن اشتهيتُ في بعض الأحيان خنقَها كلَّما رأيت بين شَفَتَيْهَا الرَّطبَتَيْن والمرتعشَتَيْن، من رغبةٍ في الابتسام أو توقٍ إلى التَّنهُّد، ذلك الاسمَ الغبيَّ "جينجيه" مرتجفاً هناك.

-II-
في الخواء

دَهِشاً كنتُ من ذلك الهمود الحائر المخيِّم على كلِّ قطعةٍ من أثاث الإيوان، إذْ دخلتُه مرَّةً أخرى كالمجتذَبِ بالصَّمتِ الواقعِ هناك: تلك الكَنَبة التي كانت جالسةً عليها؛ تلك الأريكة التي كان غائصاً فيها كوانتورتْسو؛ تلك المنضدة الصَّغيرة المَطليَّة بورنيشٍ برَّاقٍ والمزخرفةِ بلون الذَّهب؛ والكراسيُّ الأخرى والسَّتائر، أعطتْني كلُّها شعوراً رهيباً بالخواء جعلني ألتفتُ عنها لأنظر إلى خادمَيَّ، دييغو ونينا، اللذَيْن أعلماني بأنَّ سيِّدتهما قد غادرت مع السَّيِّد كوانتورتْسو آمرةً إيَّاهما بحزمِ متاعها كلِّه في صناديق كبيرة، وإرسالها إلى منزل والدها؛ وكانا آنذاك واقفَيْن يُحملقان فيَّ بذهولٍ بادٍ في الفمَيْن الفاغرَيْن، وفي العيون الخاوية.

مرآهما ألهبَ غضبي. صرختُ:

- حسنٌ جدَّاً، نفِّذا ما أُمِرتُما به.

أقلُّه أنَّ أمراً يتعيَّن القيام به كان يُعَدُّ، في ذلك الخواء، شيئاً ما بالنِّسبة إلى الآخرين. ولقد كان شيئاً ما بالنِّسبة إليَّ أيضاً، لأنَّه خلَّصني في تلك اللحظة من ذينك الاثنَيْن.

حين صرتُ وحدي، شعرتُ فجأةً وعلى نحوٍ غريبٍ ببعض الانشراح الممزوجِ بالفرح، وفكَّرتُ: "إنَّني حُرٌّ! لقد رحلَتْ!"؛ ولكنْ، لم يبدُ لي ذلك دقيقاً. انطباعٌ فائقُ الغرابة تولَّد عندي بأنَّها لم ترحلْ إلَّا لكي تضع صحَّةَ

اكتشافي على المحكِّ، ذلك الاكتشاف الذي كان يُشكِّل بالنِّسبة إليَّ أهمِّيَّةً جدُّ كبيرةً وحاسمة، حدَّ أنَّ كلَّ شيءٍ آخر بالمقارنة معه لم يكن ليمتلك أيَّ أهمِّيَّةٍ إلَّا إذا كانت ثانويَّةً ونسبيَّة: حتَّى وإن جعلني أخسر زوجتي؛ بل وبالضَّبط بسبب هذا.

"انظرْ ما إذا كان صحيحاً أم لا!"

غير أنَّ المحكَّ في حدِّ ذاته كان فظيعاً. كلُّ ما عدا ذلك - آهِ، بلى، سُحقاً!- كلُّ ما عدا ذلك كان من الممكن أن يبدو سخيفاً: رحيلُها هكذا بلا تعطيلٍ أو تأخيرٍ مع كوانتورْسو، وانتفاضتي على تلك الغباوة، غباوةِ أولئك الذين كانوا يحسبونني مُرابياً.

ولكنْ، بأيِّ ثمن؟ أتُراني انتهيتُ إلى هذا المصير؟ أن أكون غير قادرٍ على أخذ أيِّ شيءٍ على محمل الجدِّ؟ وتلك الطَّعنة التي تلقَّيتها قبل قليلٍ، أهي ما فجَّرَ فيَّ ذلك العنف؟

حسناً. ولكنْ، أين كان موضعُ الجرح؟ فيَّ؟

إذا لمستُ نفسي، إذا قرصتُ يديَّ، كنتُ أقول "أنا"، نعم، ولكنْ، لمَنْ كنتُ أقول ذلك؟ ولأجل مَنْ؟ لقد كنتُ وحيداً. وحيداً، وسطَ العالَم بأسرِه. وحيداً، حتَّى لنفسي. وفي لحظةِ القشعريرة، تلك التي كانت ترجِّفُ آنذاك بُصيلاتِ شَعري، كنهتُ الأبديَّةَ وجليدَ تلك العزلةِ اللانهائيَّة.

لِمَنْ كنتُ أقول "أنا"؟ ما معنى أن أقولَ "أنا"، إذا كانت تلك الكلمة تحمل في نظر الآخرين معنىً وقيمةً لا يمكن بأيَّة حالٍ من الأحوال أن تحملهما في نظري؟ ما معنى ذلك، وأنا الذي، بعيداً عن الآخرين، ما إن توهَّمتُ نفسي واحداً حتَّى سقطتُ في رعب ذلك الخواء وتلك العزلة؟

-III-
متمادياً في المجازفة

صبيحةَ اليوم التَّالي، جاء والد زوجتي لرؤيتي.

أودُّ أن أتحدَّث أوَّلاً (ولكنَّني لن أتحدَّث) عن الحدِّ الذي حملتْني إليه مخيِّلتي، إذْ أمضيتُ أكثرَ آناءِ الليل أهذي، في محاولةٍ مُهتاجةٍ لاستخلاص عواقب ذلك الموقف الذي وضعتُ نفسي فيه، لا أمامَ الآخرين فحسب، بل وأمامَ نفسي.

انتزعتُ نفسي، والكَمَدُ ينهشني، من إغفاءةٍ قصيرةٍ وثقيلة، مع إحساسٍ بالثِّقَل العدائيِّ لكلِّ الأشياء، حتَّى للماء المجموع في جوف راحَتَيَّ، وأنا أغتسل، وللمناشف التي جفَّفتُ بها بعد ذلك نفسي. ثمَّ ما لبثتُ أن شعرتُ فجأةً، عندما أُعلِمتُ بالزِّيارة، بأنَّني أتخفَّف من حِملي إثرَ صحوةٍ فوريَّةٍ لتلك النَّزوةِ الجذلى التي، لحسن الحظِّ، اجتاحتْ روحي في تلك اللحظةِ كمثل ريحٍ مِنعام.

أرسلتُ المناشفَ في الجوِّ، وقلتُ لِنينا:

- حسناً حسناً. دعيه يستريح في الإيوان، وأخبريه أنَّني سأكون هناك في الحال.

تأمَّلتُ وجهي في مرآة الصُّوان بثقةٍ فائقةٍ بالنَّفس، حتَّى إنَّني غمزتُ بإحدى عينَيَّ لأومئ إلى ذلك الموسكاردا هناك بأنَّنا نحن الاثنَيْن يفهمُ

أحدُنا الآخر طيلةَ الوقتِ وبشكلٍ رائع. والحقَّ أقولُ، سرعان ما غمزَ هو أيضاً، مؤكِّداً ذلك التَّواطؤَ في الفَهْم.

(ستقولون لي، أعلمُ، إنَّ ذلك يرجع إلى حقيقةِ أنَّ موسكاردا الذي في المرآة هو أنا؛ وبقولكم هذا ستُثبتون لي مرَّةً أخرى أنَّكم لا تفهمون شيئاً. فهو ليس أنا، أستطيع أن أؤكِّد لكم ذلك. فذلك يتَّضحُ من حقيقةِ أنَّني، بعدَ هُنيهةٍ من ذلك، وقبل أن أخرج، ما إن التفتُّ قليلاً برأسي، لألقي عليه نظرةً في تلك المرآة، حتَّى تحوَّل إلى شخصٍ آخر، حتَّى بالنِّسبة إليَّ، مع تلك الابتسامة الشَّيطانيَّة في عينَيْه الحادَّتَيْن والبرَّاقتَيْن. لَسَوف يُرعبكم ذلك، أمَّا أنا، فلا؛ ذلك أنَّني عرفتُه؛ وقد لوَّحتُ له بيدي. والحقَّ أقول، هو أيضاً لوَّح لي بيدِه).

كلُّ هذا ليس سوى التَّوطئة. الملهاةُ ستبدأ لاحقاً في الإيوان مع والدِ زوجتي.

أبطالُها أربعة؟

لا.

سترون كم من الموسكاردات على اختلاف مشاربهم وأهوائهم، وكلُّهم مختلفٌ عمَّا كنتُه، رحتُ أروِّح عن نفسي بتفريخهم ذلك الصَّباح.

-IV-
طبيبٌ؟ مُحامٍ؟ أستاذٌ جامعيٌّ؟ مُلحَقٌ دبلوماسيٌّ؟

لا شكَّ أنَّ والد زوجتي كان هو الباعثَ على تلك الصَّحوة غير المَرجوَّة لتلك النَّزوة الفجائيَّة الجذلى، وذلك ربمَّا (والله أعلم) بسبب تلك الصُّورة المُهينة التي كنتُ حتَّى ذلك الوقت قد أسبغتُها عليه، بأنَّه رجلٌ غبيٌّ دائم الرِّضا عن نفسه.

كان مفرطاً في تهندُمِه، لا في لباسِه فحسب، بل وأيضاً في تصفيف شَعره وشاربَيْه حتَّى آخر شعرة. كان فائق الشُّقرة، ذا مظهرٍ، لن أقولَ إنَّه مبتذَلٌ، وإنَّما شائعٌ في كلِّ الأحوال؛ والأرجح أنَّه وفَّر على نفسه عناءَ كلِّ تلك العناية بمظهره، بما أنَّ الملابس المتقنةَ الصُّنع التي عليه ليست من صنعه، بل من صنع الخيَّاط الذي خاطَها. كذلك حالُ رأسِه المسوَّاةِ بعناية، ويَدَيْه المشذَّبَتَيْن والمصقولَتَيْن، التي بدلاً من أن تكون من لحمٍ حيٍّ متَّصلٍ بتلك الياقة وبذينك الكُمَّيْن، أقول، كان من الممكن بدلاً من ذلك أن تُعرَضَ مقطوعةً، مع عدم الإخلالِ بها، كتحفٍ شمعيَّةٍ على واجهات مُصفِّفِ شَعرٍ وصانعِ قفَّازات. سماعُه يتحدَّث، رؤيتُه يُغمِض نصفَ إغماضةٍ عينَيْه المطليَّتَيْن بأزرقَ سماويٍّ، مطوِّباً بابتسامةٍ خالدةٍ كلَّ كلمةٍ تخرج من بين شَفَتَيْه اللتَيْن بلون المرجان؛ ثمَّ رؤيتُه يفتح عينَيْه من جديدٍ، فيما جفنُ العين اليمنى لصيقٌ في مكانه لا يكاد يُرفَع قيدَ شعرة، كأنَّ صاحبَه عاجزٌ

عن أن يجتثَّ نفسَه على الفور من المذاق الفخم لذلك الرِّضا الباطنيِّ الذي لم يكن أحدٌ يتصوَّرُ وجودَه في داخله؛- أقولُ، كلُّ ذلك لا يمكن إلَّا أن يُولِّدَ انطباعاً فائق الغرابة، لكلِّ ذلك التَّكلُّف الذي فيه. أكرِّر: دمية خيَّاطٍ، ورأسٌ في واجهةِ حلَّاق.

آنذاك، بينما كنتُ أتوقَّع أن ألقاه على تلك الصُّورة، لم تفعلْ دهشتي من رؤيته أمامي مضطرباً ومُهتاجاً كُلِّيَّاً سوى أن حرَّكتْ في داخلي فجأةً الرَّغبةَ في تجربةِ ذلك الشُّعور اللذيذ الذي يعتري المرءَ عندما يجازف بالتَّقدُّمِ، مبتسماً وأعزلَ، نحوَ عدوٍّ مسلَّحٍ يتوعَّده، بعد أن أنذرَه هذا بألَّا يتحرَّك خطوةً واحدة.

النَّزوة الفجائيَّة التي تأجَّجتْ فيَّ من جديد، تركتْ على شَفَتَيَّ ابتسامةَ تحدٍّ، وعلى جبيني مسحةَ سَهوٍ تأهُّباً للمباراة التي كانت على وشك البَدء، مباراةٍ في غاية الخطورة، في ضوء المصالح الجسيمة التي كانت على المحكِّ، مصالحِ هذا الرَّجل ومصالحِ كثيرين غيره: مصير المصرف؛ مصير عائلتي: كان عليَّ أن أحظى بأدلَّةٍ أخرى على ذلك الأمر الرَّهيب الذي كنتُ أعرفه بالفعل، أيْ كان عليَّ أن أبدو لا محالةَ مجنوناً، مرَّةً أخرى وأكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى، في سياق الحديث الذي كنت أتهيَّأ لخوضِه، منحدِراً بالسُّرعة القصوى على امتداد الجُرف الشَّاهق لتلك السَّذاجة غير المعقولةِ والبعيدةِ الاحتمال التي أذهلتْ كوانتورتْسو وجعلتْ زوجتي ترتمي من الضَّحك.

وفي الحقيقة، حتَّى بالنِّسبة إليَّ آنذاك، إذا ما نظرتُ بعمقٍ إلى الأمور، فإنَّ نقطة الضَّمير التي كنتُ أجهدُ للتشبُّث بها لم تعد قادرةً على الاستمرار كعذرٍ صالحٍ للاستخدام. أمن الممكن أنَّني شعرتُ حقَّاً بتبكيت الضَّمير

على الرِّبَويَّة التي لم يكن في نيَّتي أبداً أن أمارسَها؟ صحيحٌ أنَّني، على سبيل الشَّكليَّات، كنتُ أوقِّع على وثائق المصرف. لقد عشتُ حتَّى تلك اللحظة على أرباح ذلك المصرف من دون أن أتوقَّف لحظةً للتَّفكير في ذلك. أمَّا في تلك اللحظة، وقد فهمتُ أخيراً كلَّ شيء، فقد أردتُ سحبَ أموالي من ذلك المصرف، وأن أنبري في الحال بعد ذلك، بغيةَ وضع نفسي على المسار الصَّحيح، للتَّخلُّص منها من خلال تأسيس بعض المشاريع الخيريَّة أو شيء من هذا القبيل.

- وَيحك! وتظنُّ أنَّ كلَّ هذا لا شيء؟ يا إلهي، أصحيحٌ إذاً ما يُقال؟

- وما الذي يُقال؟

- إنَّك جُننتَ، هذا ما يُقال! وماذا عن ابنتي؟ إلى أيِّ مآلٍ ستنتهي؟ كيف تظنُّ أنَّكَ ستعيش؟ على ماذا؟

- آه، هذا مربط الفَرَس: إنَّها مسألةٌ مهمَّةٌ كما يبدو لي. مسألةٌ ينبغي أن أدرسها مَليَّاً.

- هل ستُدمِّر نفسكَ إلى الأبد؟ لماذا وكلُّ إنسانٍ، منذ بدء الخليقة، لديه ما يُنجزه؟

- عظيمٌ. فإذاً من الآن فصاعداً، أنا أيضاً لديَّ ما أُنجزه.

- ولكنْ، كيف ستُنجز شيئاً إذا كنتَ سترمي بعيداً الأموالَ التي جمعها والدُك بكدِّ سنواتٍ طِوال؟

- لقد أمضيتُ ستَّ سنواتٍ في الجامعة.

- آه! وهل تأمل العودةَ إلى الجامعة؟

- ربَّما.

قامَ بحركةٍ بدتْ وكأنَّها تأهُّبٌ للنُّهوض. كبحْتُه سائلاً إيَّاه:

- عذراً: يستغرق الأمرُ بعض الوقت لتصفية الشِّركة المصرفيَّة كُلِّيَّاً، أليس كذلك؟

نهضَ غاضباً، ملوِّحاً بذراعَيْه في الهواء.

- عن أيِّ تصفيةٍ تتحدَّث؟! تصفية! تصفية! تصفية!

- إن كنتَ غير مهتمٍّ بالإصغاء إلى ما أودُّ قولَه...

اندفعَ كالزَّوبعة.

- ما تودُّ قولَه؟! إنَّكَ تهذي!

- إنَّني هادئ الأعصاب تماماً،- أبديتُ هذه الملاحظة له.- ما وددتُ قولَه هو أنَّني قطعتُ شوطاً جيِّداً في العديد من المقرَّرات الدِّراسيَّة، ثمَّ انقطعتُ عنها.

حملقَ فيَّ مبهوتاً.

- مقرَّراتٌ دراسيَّة؟ ماذا تقصد؟

- أنَّني ربَّما أحصل، وفي فترةٍ قصيرةٍ، على شهادةٍ في الطِّبِّ، على سبيل المثال، أو على شهادة دكتوراه في الأدب والفلسفة.

- أنتَ؟

- لا تُصدِّق ذلك؟ إنَّها الحقيقة. لقد بدأتُ دراسةَ الطِّبِّ أيضاً. درستُه ثلاث سنواتٍ. ولقد أحببتُه. اسألْ، اسألْ ديدا كيف تفضِّلُ أن ترى فتاها جينجيه. طبيباً أم أستاذاً جامعيَّاً. إنَّني طلق اللِّسان: يمكنني أيضاً، إذا أحببتُ، أن أُصبحَ محامياً.

اهتزَّ بعنفٍ.

- أرى أنَّكَ لم تهتمّ يوماً بعملِ أيِّ شيءٍ على الإطلاق!

- هذا صحيحٌ إلى حدٍّ ما. ولكنْ ليسَ لِطَيشٍ، كما تظنُّ. بل على العكس، لقد أوغلتُ في التَّعمُّق. وصدِّقني، لن تنجحَ أبداً في أيِّ شيءٍ إن أنتَ تعمَّقتَ كثيراً فيه. يحدث أن تكتشف بعض الأشياء! ولكنْ، أستطيع أن أؤكِّد لكَ أنَّني قادرٌ، سطحيَّاً، أن أصبحَ طبيباً، أو محامياً، أو حتَّى أستاذاً جامعيَّاً، إذا كانت ديدا تُفضِّل هذا. كلُّ ما عليَّ فعله هو أن أُكرِّس نفسي للأمر.

انقلبَ لونُه بنفسجيَّاً غامقاً من شدَّة ما قسا على نفسِه ليرغمها على الإصغاء إليَّ، وعند هذه النُّقطة اندفعَ خارجاً. أو، بتعبيرٍ أدقّ، انفجرَ خارجاً. ركضتُ في إثْره، صائحاً:

- ولكنْ، مهلاً، اسمعني قليلاً، هلَّا فكَّرتَ في الشَّعبيَّة التي سأنالها حين أهبُ أموالَ أبي! بل ربَّما انتُخِبْتُ عضواً في مجلس النُّوَّاب، فكِّرْ في هذا! ألا تروق لديدا، ولكَ أيضاً: فكرةُ الصِّهرِ النَّائب... ألا تراني لها؟ ألا تراني لها؟

ولكنَّه كان قد ولَّى هارباً، صارخاً عندَ كلِّ كلمةٍ من كلماتي:

- مجنون! مجنون! مجنون!

-٧-
أمَّا أنا فأقولُ، لمَ لا؟

كانت نبرتي، ولستُ أُنكرُ ذلك، نبرةَ هَزْلٍ بسبب تلك النَّزوة اللعينة التي اعترتْني. ولربمَّا بدوتُ فائق البلاهةِ في ما سُقتُهُ من حديثٍ: أدركُ ذلك. ولكنْ، في حين كان من الممكن لاقتراحاتي بشأن أن يصبحَ جينجيه طبيباً أو محامياً أو أستاذاً جامعيَّاً أو حتَّى عضواً في مجلس النُّوَّاب أن تجعلني أضحك، فإنَّه كان ما يزال في مُكنتِها، أشدِّدُ على ذلك، أن تفرضَ عليه، في أسوأ الأحوال، ذلك الاحترامَ والتَّقديرَ اللذَين يُظهرهما عادةً أهلُ الرِّيف لمثل هذه المِهَن النَّبيلة التي كثيراً ما يُزاولها حتَّى أولئك العاديُّون الأخلاءُ من المزايا الذين لن يكون من العسير عليَّ بتَّةً الدُّخولُ في منافسةٍ معهم.

ولكنَّ التَّفسيرَ يختلف تماماً، أعلمُ ذلك جيِّداً. المسألةُ هي أنَّ حمايَ أيضاً لم يكن يراني في أيٍّ من تلك المِهَن. إنَّما لأسبابٍ مختلفةٍ تماماً عن أسبابي.

لم يستطعْ، هوَ، أن يقبلَ بإقدامي على انتزاعِ صهره (ذلك الفتى جينجيه الذي كان يراه فيَّ، ولا أعرف على أيَّة صورة) من تلك الظُّروف التي كان قد عاش فيها هذا الأخير حتَّى ذلك الحين، أي من ذلك الاتِّساق القَرَقوزيِّ المريح الذي مِن طرفٍ والدُ زوجتي، ومن طرفٍ ثانٍ ابنته، ومن طرفٍ آخرَ جميعُ الشُّركاء في المصرف، دأبوا على إسباغهِ عليه.

كان عليَّ أن أتركه في مكانه، كما كان دائماً، تلك النُّسخة الطَّيِّبة والجامحة من جينجيه، ليواصل العيشَ من دون تفكيرٍ في تلك الممارسات الرِّبَويَّة للمصرف، والتي لم يكن هو مَنْ يتولَّى أمرها.

وأقسمُ أنَّني كنتُ سأتركه في مكانه، لكيلا أقضَّ مضجعَ دميتي الصَّغيرة المسكينة، تلك التي كان حبُّها لا يُقدَّر بثمنٍ عندي، ولكيلا أُثقِلَ على كثيرٍ من النَّاس الطَّيِّبين الذين لم يتمنُّوا لي يوماً سوى الخير، لو أنَّني، بِتَرْكِهِ للآخرين هناك، كنتُ سأتمكَّن من تلقاء نفسي من المضيِّ إلى أيِّ مكانٍ آخر بجسدٍ آخر واسمٍ آخر.

-VI-
خنقُ الضَّحكات

كنتُ أدركُ، علاوةً على ذلك، أنَّني بوَضْعِ نفسي في ظلِّ ظروفِ حياةٍ جديدة، وبظهوري غداً للآخرين في مظهر طبيبٍ، لِنقلْ، أو محامٍ أو أستاذٍ جامعيٍّ،- أقول، كنتُ أدركُ أنَّني حتَّى بذلك لن أجدَ نفسي أبداً كواحدٍ فردٍ لا ثانيَ له، لا في نظر الجميع ولا في نظرِ نفسي على حدٍّ سواءَ، بلى، حتَّى وإن تزيَّيتُ بزيِّ إحدى تلك المِهَن، وأدَّيتُ دورَها على أكمل وجه.

الرُّعبُ من أن أُحبَسَ في سجنِ شكلٍ، أيّاً يكن، كان يستولي عليَّ، ويمتصُّني.

ومع ذلك، فإنَّ تلك الاقتراحات التي قدَّمتُها ساخراً من والد زوجتي، هي نفسها تلك التي قدَّمتُها جدِّيّاً لنفسي آناءَ اللَّيل، خانقاً الضَّحكات التي كانت تدفعني إليها الصُّورُ الذِّهنيَّة لذلك المحامي أو الطَّبيب أو الأستاذ الجامعيِّ الذي قد أكونه. حاصلُ القولِ، لقد فكَّرتُ في أنَّني قد أقبل وأعمل، إذا ما اقتضت الضَّرورة، بأيٍّ من تلك المِهَن، أو بأيَّةِ مهنةٍ أخرى غيرها قد تفرضها عليَّ ديدا، بعد عودتها إليَّ كما كنتُ أرغب، لكي أقدِّمَ أفضلَ ما أستطيع خدمةً لحياتها الجديدة مع جينجيه جديد.

ولكنْ، من ذلك الاندفاع الهائج الذي ولَّى به والدُ زوجتي هارباً كان يمكنني أن أبرهن على أنَّه، حتَّى بالنِّسبة إلى ديدا، لن يستطيع أيُّ جينجيه جديد أن يُولَدَ من القديم. فهذا الأخير كان يُريها بوضوحٍ أنَّه ليس سوى

مجنونٍ مَيؤوسٍ منه، ما دام هكذا، لأجل لا شيء، يريدُ أن يتخلَّص بين عشيَّةٍ وضحاها من تلك الحياة التي كان يعيشها، حتَّى ذلك الحين، بسعادة.

مجنوناً حقَّاً كنتُ سأكون إذا ما توقَّعتُ أنَّ دميةً مثل تلك كانت ستمضي معي في جنوني، هكذا *لأجل* لا شيء.

الكتاب السَّابع

-I-

مُضاعفات

تلقَّيتُ صبيحةَ اليوم التَّالي بطاقةً صغيرةً، تسلَّمتُها باليد، تدعوني إلى المجيء حالاً إلى منزل آنَّا روزا، صديقة زوجتي، التي ذكرتُها على عُجالةٍ مرَّةً أو مرَّتَيْن في مستهلِّ هذا السَّرد.

انعقدتْ ظنوني آنذاك على أنَّ شخصاً ما سيسعى إلى التَّدخُّل في محاولةٍ لتسوية الخلاف بيني وبين زوجتي؛ ولكنَّ ذلك الشَّخص كان ينبغي، في تصوُّراتي، أن يأتي من طرفِ والدِ زوجتي وشركائي الآخرين في المصرف، وليس مباشرةً من طرفِ زوجتي؛ لا سيَّما وأنَّني كنتُ أرى أنَّ العقبة الوحيدة التي ينبغي إزالتها هي عقدي النِّيَّة على تصفية الشِّركة المصرفيَّة. فبيني وبين زوجتي لم يحدثْ، في واقع الأمر، أيُّ شيء. كلُّ ما عليَّ فعلُه هو أن أؤكِّدَ لآنَّا روزا أنَّني نادمٌ بصدقٍ على خشونتي مع ديدا، على هَزِّها ودَفْعها إلى الوراء لتسقطَ جالسةً على كَنَبة الإيوان،- وما إن أفعل ذلك حتَّى تتمَّ المصالحة بدون أيِّ تأخير.

ولكنْ، أنْ تأخذ آنَّا روزا على عاتقها عبءَ إقناعي بالعدول عن نيَّتي، جاعلةً من ذلك شرطاً لعودةِ زوجتي إلى المنزل، لم يبدُ لي بأيِّ شكلٍ من الأشكال افتراضاً جديراً بالقبول.

كنتُ قد علمتُ من ديدا أنَّ صديقتها رفضتْ العديد ممَّا يُسَمُّونه عروضَ زواجٍ مُجزية من مبدأ ازدرائها للمال، جالبةً على نفسها لومَ كلِّ

العقلاءِ، وكذلك لومَ ديدا التي بزواجها منِّي (أقصدُ، مِن ابن رجلٍ مُرابٍ) تركتْ بالتَّأكيد لدى صديقاتها انطباعاً بأنَّها فعلتْ ذلك لأنَّه كان في نهاية الأمر عرضَ زواجٍ "مُجزياً".

ومِن ثَمَّ، عندما يتعلَّق الأمر بإنقاذ ذلك "العرض"، فإنَّ آنَّا روزا لم تكن هي المحامي الأنسب لمثل تلك القضيَّة.

العكسُ هو ما كان ينبغي مِن بابِ أَوْلَى أن أفترضه: أنَّ ديدا هرعت إليها تطلبُ مساعدتها في إخباري بأنَّ والدَها، بالاتِّفاق مع شركائي الآخرين، كان يحتجزها في منزله، ويمنعها من العودة إليَّ ما لَم أنكفئ عن نيَّتي على تصفية الشِّركة المصرفيَّة. ولكنْ، من معرفتي الجيِّدة بزوجتي، فإنَّ هذا الاستنتاج أيضاً لم يكن جديراً بالقبول.

ذهبتُ إذاً إلى ذلك الموعد، ينهشني الفضول. لم أفلِح مُطلَقاً في تخمين السَّبب.

-II-
إشارةٌ أولى

كانت معرفتي بآنّا روزا سطحيَّة. كنتُ قد رأيتُها عدَّة مرَّاتٍ في منزلي، ولكنْ، بما أنَّني حافظت دائماً على مسافةٍ بيني وبين صديقات زوجتي، عن عفويَّةٍ أكثر ممَّا عن عمدٍ، فإنَّ الكلمات التي تبادلتُها معها كانت قليلةً جدَّاً. تلك الابتسامة الباهتة التي كنتُ ألمحها صدفةً على شَفَتَيْهَا وهي تلقي نظرةً خاطفةً عليَّ، كان يبدو لي بوضوحٍ أنَّها مستوحاةٌ حتماً من تلك الصُّورة السَّخيفة عنِّي التي خلقها في ذهنها جينجيه فتى زوجتي ديدا، ولذلك لم تنبع في داخلي أيُّ رغبةٍ قد تشدُّني إلى الحديث معها.

لم أزرْها في منزلها قطُّ.

يتيمةَ الأبِ والأمِّ، عاشت مع عمَّةٍ مُسِنَّةٍ من عمَّاتها في ذلك المنزل الذي بدا مسحوقاً إزاءَ الأسوارِ الفائقةِ العُلو للدَّير الكبير: أسوارِ قلعةٍ قديمةٍ كنتَ تلمحُ خلالَ نوافذها المشبَّكة بالحديد المقوَّس وجوهَ حفنةٍ من الرَّاهبات الهَرِمات اللاتي نُسِينَ هناك وهي تطلُّ على الغروب. إحدى أولئك الرَّاهبات، أقلُّهنَّ هرماً، كانت عمَّةً، هي أيضاً، لآنّا روزا؛ وكانت، كما يُقال، نصفَ مجنونة. ولكنَّ الأمرَ لا يتطلَّبُ الكثير لتدفعَ بامرأةٍ إلى الجنون، حين تُحتجَزُ في دَير. علمتُ من زوجتي، التي درستْ ثلاثَ سنواتٍ في دير سان ڤينتْشِنزو، أنَّ كلَّ الرَّاهبات، الهرِمات منهنَّ والفتيَّات، كنَّ نصفَ مجنوناتٍ بطريقةٍ أو بأخرى.

لم أجد آنَّا روزا في المنزل. الخادمُ العجوز التي تناولت البطاقة من يدي أخبرتْني، وهي تُحدِّثني بشكلٍ غامضٍ مِن صِيرِ الباب دون أن تفتحَه، أنَّ سيِّدتها الشَّابَّة كانت في الدَّير، عندَ عمَّتها الرَّاهبة، وأنَّه يمكنني الذَّهاب إلى هناك، لألتقي بها، طالباً من الرَّاهبة المكلَّفة بأمور الزُّوَّار أن تقودني إلى ردهةِ الأخت تْشِلستينا.

كلُّ ذلك الغموض أوقعني في حيرة. بادئَ الأمر، وقبلَ أن يتفاقم فضولي، أمسكتُ نفسي عن الذَّهاب. شعرتُ، بقدرِ ما مكَّنتني حيرتي، بالحاجة قبل كلِّ شيءٍ إلى التَّأمُّل مليَّاً في غرابةِ أن يُقيَّض لي موعدٌ هناك في الدَّير، في ردهةِ إحدى الرَّاهبات.

بدا لي آنذاك أنَّ كلَّ صلةٍ بين تعاستي الزَّوجيَّة التَّفِهة وبين تلك الدَّعوة قد قُطِعَتْ، وسرعان ما اعتراني قلقٌ من أن يطرأ إشكالٌ غير متوقَّعٍ ويجرَّ على حياتي عواقبَ لا يعلمها إلَّا الله.

وكما يعلم الجميع في ريكْبيري، كنتُ على وشك أن يُساقَ بي إلى حتفي. ولكنْ، أودُّ هنا أن أكرِّرَ ما قلتُه للقضاة، لكي أمحوَ مرَّةً وإلى الأبد من عقول الجميع الشَّكَّ في أنَّ إفادتي قُدِّمتْ بهدف إنقاذ آنَّا روزا وتبرئتها من أيِّ ذنب. لم يكن ثمَّة أيُّ ذنبٍ من جانبها. اللَّومُ كلُّه يقع عليَّ، أو بالأحرى على ما شكَّلَ حتَّى ذلك الحين جوهرَ أفكاري المعذَّبة، بما أنَّ تلك المغامرة الفجائيَّة وغير المتوقَّعة التي تركتُ نفسي، دونما رغبةٍ تقريباً، تنقاد إليها بغيةَ القيام بتجربةٍ أخيرةٍ يائسة، كانت تقودُ إلى مثل تلك النِّهاية.

-III-
مُسدَّسٌ بين الزُّهور

عبرَ دربٍ جانبيَّةٍ زلِقةٍ وموحشةٍ من دروب البلدةِ القديمةِ من ريكْيبري، تلك الدُّروب التي تفغمُ في النَّهار الأنوفَ برائحة القمامةِ المتعفِّنة، سلكتُ طريقي صُعُداً نحوَ الدَّير.

حين نعتاد على العيش بطريقةٍ معيَّنة، فإنَّ المضيَّ إلى مكانٍ غريبٍ وصامتٍ يكون مصحوباً لدينا بقلقٍ لا يُوصَف، مع توهُّمنا أنَّ ثمَّة شيئاً ما يكتنفه الغموض، قابعاً هناك، غموضٌ محكومٌ على أرواحنا أن تبقى بعيدةً عنه؛ ذلك أنَّنا نظنُّ أنَّه، إذا ما أمكننا الدُّخول إلى هناك، فإنَّ حياتنا ستتفتَّحُ ربمَّا في أحاسيس جديدةٍ لا يعلمها إلَّا الله، وسنشعرُ مِن ثمَّ بأنَّنا نعيش في عالمٍ آخرَ مختلف.

ذلك الدَّير، الذي كان في الماضي قلعةً إقطاعيَّةً لعائلة كيارامونتهْ، ببوَّابته الواطئة التي لم يبقَ فيها موضعٌ لم ينخره السُّوس، وفنائه الفسيح مع حوضِ ماءٍ في وسطه، وأدراجِه الرَّحيبة المتآكلة والمُعتِمة والمرجِّعةِ الصَّدى، كأنَّها الكهوفُ بصَقْعَتِها، ورواقِه العريض والطَّويل مع كلِّ تلك الأبواب على جانبيه والطُّوبِ الأحمرِ لبلاطِ الأرضيَّةِ المتداعي، والذي يتوهَّجُ تحت ضوء النَّافذةِ الفرنسيَّة(*) المشرعةِ في نهاية الرُّواق على صمتِ السَّماء،- ذلك الدَّيرُ، كم من مُجرياتِ الحياة وتقلُّبات أحوالها ضمَّ إليه،

(*) تمتدُّ النَّافذة الزُّجاجيَّة ذات الطِّراز الفرنسي حتَّى مستوى الأرضيَّة، وقد تُسمَّى أيضاً بالباب الفرنسيِّ، لأنَّها تعمل كنافذة وباب عندما تكون مطلَّةً على شرفة؛ (م).

وشهدَ أفولَها؟ والآن، في الاحتضار البطيء لتلك الحفنة من الرَّاهبات اللَّائي يطفنَ في أرجائه كأرواحٍ هائمة، بدا وكأنَّه لم يعد يعي كنهَ نفسِه. كلُّ شيءٍ هناك في الدَّاخل بدا نسياً منسيَّاً، في قلب الانتظار الطَّويل لموتٍ تتحيَّنه أولئك الرَّاهبات الأخيرات المتبقِّيات، واحدةً تلوَ الأخرى؛ وقد أصبحَتْ طيَّ النِّسيان الغايةُ التي لأجلها تحوَّلَ ذلك الصَّرحُ الذي بُنيَ في البدءِ قلعةً بارونيَّةً إلى ديرٍ بقيَ جاثماً هناك لقرونٍ وقرون.

فتحتْ لي راهبةٌ واحداً من تلك الأبواب الممتدَّة على طول الرُّواق، وقادتْني إلى ردهةٍ صغيرة. كان جرسٌ حزينٌ قد قُرِعَ في الأسفل قبلَ صعودنا، ربَّما لاستدعاء الأخت تْشِلستينا.

كانت الرَّدهة مظلمةً، حدَّ أنَّني لم أتمكَّن في البدء من تمييز شيءٍ عدا المُشَرَّبيَّة في خلفيَّةِ المشهد، مرئيَّةً بالكادِ في الضَّوء الطَّفيفِ الذي دخلَ عندما فُتِحَ الباب. بقيتُ واقفاً أنتظر؛ ولا أعلم كم من الوقتِ كنتُ سأبقى على تلك الحال، لولا أنَّ صوتاً واهناً تناهى إلى سمعي من وراء المُشَرَّبيَّة يدعوني إلى الجلوس، مُضيفاً أنَّه عمَّا قليلٍ ستصعدُ آنَّا روزا إليَّ من حديقةِ الدَّير.

لن أحاولَ أن أصف الانطباعَ الذي تركه في نفسي ذلك الصَّوتُ غير المتوقَّع الذي تناهى في العتمةِ إلى سمعي من وراء المُشَرَّبيَّة. صعقتْني في تلك العتمةِ الشَّمسُ نفسُها التي لا بدَّ وأنَّها كانت مشرقةً في حديقةِ الدَّير. لم أكن أعرف أين تقع تلك الحديقة، ولكنْ، لم يكن عندي شكٌّ في أنَّها كانت فائقة الاخضرار؛ ثمَّ فجأةً، في قلب كلِّ ذلك الاخضرار، فيضانٌ من الضَّوء تكشَّفَ لي عن هيئةِ آنَّا روزا، كما لم أرها يوماً من قبل، وجسدُها كلُّه يرتعشُ خُبثاً وإغواءً. لم تكن سوى وميض برقٍ. ثمَّ عادَ الظَّلام. أو لعلَّه

لم يكن ظلاماً، لأنَّه أمكنني حينذاك تمييزُ المُشَرَّبيَّة، ومنضدةٍ صغيرةٍ وكرسيَّيْن أمامَها. كان الصَّمت يلفُّ المُشَرَّبيَّة. بحثتُ عن الصَّوتِ الذي كلَّمَني، الخافتِ، لكنِ الغضِّ، كأنَّ به ميعةَ الشَّباب. لم يكن ثمَّة أحدٌ هناك. ومع ذلك، لا بدَّ وأنَّه كان صوتَ امرأةٍ مُسِنَّة.

آنَّا روزا، ذلك الصَّوت، تلك الرَّدهة، الشَّمسُ في ذلك الظَّلام، خُضرةُ الحديقة: كأنَّ دُوَاراً أخذَ برأسي.

بعد ذلك بقليلٍ، فتحتْ آنَّا روزا البابَ بعُجالةٍ، ودَعَتني لأخرجَ من الرَّدهةِ إلى الرُّواق. كان الدَّم مشتعلاً في وجهها، وشعرُها مُبعثَراً، وعيناها مشعَّتَيْن، فيما حُلَّتْ عندَ الصَّدر أزرارُ قميصها الصُّوفيِّ الأبيض، كأنَّما مِن وَغرةِ الحَرِّ، وقد احتوشتْ بين ذراعَيْها الكثيرَ من الأزهار وغصناً طويلاً من اللَّبلاب، التفَّ من فوق إحدى كتفَيْها إلى وراءِ ظهرِها، ليتمايل على طولِ قامتها هناك. مُستدرِجةً إيَّاي إلى اللِّحاق بها، هرعَتْ إلى نهاية الرُّواق، ورفعَتْ رجلَها لتصعدَ الدَّرجَ الصَّغيرَ أسفلَ النَّافذة الفرنسيَّة؛ ولكنْ لعلَّها، وهي تفعل ذلك، رفعَتْ يداً لتحمي بها بعضَ أزهارها من السُّقوط، فأسقطتْ من يدها الأخرى حقيبتها النِّسائيَّة، ودوَّى في الحال صوتُ طلقةٍ ناريَّةٍ ما لبثتْ أن تلتْه صرخةٌ حادَّةٌ تردَّدَ صداها على امتداد الرُّواق بأكمله.

بالكاد أدركْتُ في الوقتِ المناسبِ آنَّا روزا التي مالتْ إلى الوراء لتسقطَ بين ذراعَيَّ. غارقاً في حيرتي، وقبلَ أن أتمكَّن من إدراك ما حدث، رأيتُ مِن حولي سبعَ راهباتٍ مُسِنَّات يُسقسِقنَ مذعورات. كُنَّ قد هرعن إلى الرُّواق على صوتِ الطَّلقة، وإذْ رأين آنَّا روزا جريحةً بين ذراعَيَّ، استولى عليهنَّ ذعرٌ آخرُ لم أتمكَّن أوَّلَ الأمرِ من إدراك كُنهه، فقد بدا لي ضرباً

من المستحيل آنذاك ألَّا يكنَّ أسيراتٍ لنفسِ القلق الذي أسرَني والذي دفعني إلى الصِّياح فيهنَّ بصوتٍ مزمهرٍ طالباً منهنَّ إيجادَ سريرٍ لتمديدِ المرأة الجريحةِ عليه. فكان جوابهنَّ أنَّ نيافته، نيافة الأُسْقُف، كان على وشك الوصول في أيَّة لحظة. من جانبها، راحت آنَّا روزا تصرخُ فيَّ وهي بين ذراعيَّ: "المسدَّس! المسدَّس!"، مناشِدةً إيَّاي أن أُعيد لها المسدَّس الصَّغير الذي كان في حقيبةِ يدِها، لأنَّه كان تذكاراً من والدها.

اتَّضحَ لي في الحال أنَّ مسدَّساً كان موجوداً في الحقيبة التي ما إن سقطَتْ من يدها حتَّى خرجت إحدى طلقاته، لتصيبَ قَدَمَها؛ في حين بقيَ غامضاً السَّببُ الذي لأجله كانت تحملُ ذلك المسدَّس معها، وبالتَّحديد في تلك الصَّبيحةِ التي دعتْني فيها إلى لقائها في الدَّير. بدا لي الأمرُ فائق الغرابة؛ ولكنْ، في الوقتِ نفسِه، لم يخطر في ذهني ولا حتَّى من بعيدٍ أنَّها كانت تحمله لأجلي.

ذاهلاً أكثر ممَّا في أيِّ وقتٍ مضى، ومُدركاً أنَّ أحداً لن يقدِّمَ لي يدَ العون لإسعاف الجريحة، حملتُها على ذراعَيَّ إلى خارج الدَّير، نزولاً إلى بيتها عبرَ الدَّرب الجانبيَّةِ الزَّلِقةِ والموحِشة.

حدثَ، بعد قليلٍ من ذلك، أن صعدْتُ ثانيةً إلى الدَّير، لأجلبَ من الرُّواق، أسفلَ النَّافذة الفرنسيَّة، المسدَّسَ الذي كان سيُستخدَمُ ضدِّي بعدَ حين.

-IV-
التَّفسير

خبرُ ذلك الحادث الغريب الذي وقعَ في الدَّير الكبير، وكيف أنَّني خرجتُ مُسرِعاً حاملاً آنَّا روزا الجريحة على ذراعَيَّ، انتشرَ كالبرقِ في أرجاء ريكْبيري، وما هي إلَّا أن سيقَ حجَّةً لبعض المبالغات الخبيثة التي لسخافتها بدتْ لي أوَّلَ الأمرِ مثيرةً للضَّحك. بعيداً كنتُ عن تصوُّرِ أنَّها قد لا تبدو مقاربةً للواقع فحسب، بل ومُؤهَّلةً لأن يؤخذَ بها كحقيقةٍ مُطلَقة؛ وليس مِن قِبَلِ أولئك الذين من مصلحتهم إضرامُ النَّار وإبقاؤها مُشتعلةً فحسب، بل وحتَّى مِن قِبَلِ تلك التي حملتها جريحةً على ذراعَيَّ.

تلك هي بالضَّبط الطَّريقة التي سارت عليها الأمور.

ذلك أنَّ جينجيه، يا سادة يا كِرام، جينجيه فتى زوجتي ديدا الفائقَ الغباء، كان يُضمرُ، من دون أن أعلم أيَّ شيءٍ عن ذلك، شعوراً لاهباً حيالَ آنَّا روزا. كانت ديدا هي مَنْ وضعَ تلك الفكرة في رأسه؛ كانت ديدا هي مَنْ فطُنَ إلى الأمر. لم تبحْ يوماً لجينجيه بشيءٍ عن ذلك؛ ولكنَّها أفضَتْ به، عبرَ ابتسامةٍ، إلى صديقتها، لِتُسِرَّ خاطرها، وربَّما أيضاً لكي تفسِّرَ لها ماذا كان دافعُه إلى اجتنابها عندما كانت تأتي لزيارتها: إنَّه الخوف من الوقوعِ في حبِّها.

لا أشعر بأنَّني أمتلك أيَّ حقٍّ في إنكار هذا الشُّعور الذي كان يُضمره جينجيه حيالَ آنَّا روزا. أكثر ما يمكنني القيام به هو القول بأنَّ ذلك لم يكن

صحيحاً بالنِّسبة إليَّ؛ ولكنْ، حتَّى هذا لم يكن دقيقاً، بالنَّظر إلى حقيقةِ أنَّني لم أتجشَّم يوماً عناءَ التَّيقُّن ممَّا إذا كان بُغضاً أم حُبَّاً ذلك الشُّعورُ الذي كان يعتريني حيالَ صديقةِ زوجتي تلك.

أظنُّ أنَّني أثبتُّ بما فيه الكفاية أنَّ حقيقةَ جينجيه لا تخصُّني أنا، بل تخصُّ زوجتي ديدا التي أسبغتْ تلك الحقيقة عليه.

فإذا كانت ديدا، مِن ثَمَّ، قد نسبتْ إلى جينجيه ذلك الميلَ السِّرِّيَّ، فإنَّه لن يُشكِّلَ فرقاً إذا كان الأمرُ غير صحيحٍ بالنِّسبة إليَّ: فهو في النِّهاية كان صحيحاً جدَّاً بالنِّسبة إلى ديدا التي وجدت فيه تفسيراً لإيقائي دائماً على مسافةٍ بيني وبين آنَّا روزا؛ كما كان صحيحاً جدَّاً أيضاً بالنِّسبة إلى آنَّا التي فسَّرت تلك النَّظرات الهاربة التي كنتُ أرمقها بها من وقتٍ إلى آخر على أنَّها نظراتٌ تُضمِرُ أكثر بكثيرٍ ممَّا كانت تظنُّ؛ وبالتَّالي فأنا لم أكن في نظرها ذلك الفتى اللطيف والأبله جينجيه الذي كانت زوجتي ديدا تتخيَّله، بل كنتُ جينجيه آخر أكثر تعاسةً يرزح جسديَّاً تحت عذاباتٍ لا توصَف جرَّها عليه إفراطُ زوجته في تقديرها له وكلفِها به.

لأنَّ ذلك، إذا ما فكَّرنا مليَّاً في الأمر، هو أقلُّ ما يمكن أن يترتَّب عن الحقائق غير المتوقَّعة التي ينسبها الآخرون إلينا. وقد اعتدنا، لسطحيَّتنا، أن نصفها بأنَّها افتراضاتٌ كاذبة، أو أحكامٌ خاطئة، أو صفاتٌ لا مسوِّغَ لها. ولكنْ، كلُّ ما يمكن تخيُّله عنَّا هو محتملٌ واقعاً، حتَّى وإن لم يبدُ صحيحاً في نظرنا. وإذْ لا يبدو صحيحاً في نظرنا، فذلك يُضحِك الآخرين. إنَّه صحيحٌ في نظرهم. جدُّ صحيحٌ، لدرجةٍ قد يحدث معها، إذا أنتم لم تتشبَّثوا بقوَّةٍ بتلك الحقيقة التي مُنِحتْ نيابةً عنكم لكم، أنْ يدفعكم الآخرون إلى الإقرار بأنَّ الحقيقة التي يمنحونها لكم أكثرُ صدقاً من تلك التي تمنحونها لأنفسكم. لا أحدَ يمتلك، انطلاقاً من خبرته، حقَّ الكلام عن هذا أكثر منِّي.

وجدْتُني، إذاً، من دون أن أعلم أيَّ شيءٍ عن ذلك، مُتيَّماً بحبِّ آنَّا روزا، ومِن ثَمَّ، لهذا السَّبب، متورِّطاً في حادث إطلاق النَّار في الدَّير، وهو ما لم أكن لأتخيَّله أبداً، أبداً.

ساهراً على راحةِ آنَّا روزا، بعد أن حملتُها بذراعَيَّ إلى البيت، ووضعتُها في سريرها، وهرعتُ لأجلبَ لها طبيباً، وممرِّضةً، وقدَّمتُ لها ما استطعتُ من إسعافاتٍ أوَّليَّة، شعرتُ فجأةً، أنا الآخرُ، أنَّه ليس ممكناً فحسب، بل ومؤكَّداً أيضاً، ما تخيَّلَتْه هذه المرأة عنِّي كنتيجةٍ لإسراراتِ ديدا إليها؛ أقصدُ إسراراتِها بمشاعري نحوَها. كنتُ على وشكِ أن أحصلَ من فمها، وأنا جالسٌ عندَ قَدَمِ السَّرير في حميميَّةِ غرفتِها الورديَّةِ المشوبةِ برائحةٍ طبِّيَّةٍ تنقبضُ لها النَّفسُ، على كلِّ التَّفسيرات. وقبلَ كلِّ شيءٍ، على تفسيرٍ لذلك المسدَّس في حقيبتها، والذي كان سببَ الحادثة.

ضحكتْ من كلِّ قلبها من فكرةِ أنَّ أحداً يمكن أن يتخيَّلَ أنَّها كانت تحمل ذلك المسدَّس لأجلي أنا في ضربها ذلك الموعدَ لي داخلَ الدَّير الكبير!

كان المسدَّسُ الصَّغيرُ شيئاً اعتادت أن تحمله معها دائماً، في حقيبةِ يدِها، مُذْ عثرتْ عليه في جيب صدريَّةٍ من صدريَّاتِ والدِها الذي توفِّيَ فجأةً قبلَ ستِّ سنوات. ولأنَّه كان صغيراً جدَّاً، مع مقبضٍ مصنوعٍ من عِرْق اللؤلؤ، وبرَّاقاً في كلِّ نقطةٍ منه، فقد خالتْه حليةً أكثر ما يقرِّبها من النَّفس هو ما يحتضنه ذلك التَّجانسُ اللطيفُ من قدرةٍ على القتل. وأكثر من مرَّةٍ، كما أفضَتْ لي، في لحظاتٍ لم تكن نادرةً بأيَّةِ حال، عندما كان العالَم بأسره يبدو لها، من جرَّاء بعض المخاوف الرُّوحيَّةِ الغريبة، خاوياً بشكلٍ مرعب،- أقول، أكثر من مرَّةٍ حاولتْ أن تجرِّبَه، لاهيةً به، مختبرةً

بأصابعها لذَّةَ لمسِ البريق المصقولِ للفولاذِ ولِعرق اللؤلؤ. أمَّا في تلك اللحظة، إذْ قُيِّض لذلك المسدَّس، بدلاً من أن تكون قد صوَّبَتْه هي عن عمدٍ إلى قلبها أو صدغها، أن يجرحَها بالصُّدفةِ في قَدَمِها، وفوق ذلك - كما كانت تخشى - مع خطرِ أنْ يتركها مشلولةً مدى الحياة، فإنَّها تشعرُ بسبب ذلك بكَدَرٍ غريب. كانت تشعر بأنَّه استولى عليها وتملَّكَها، وبأنَّه لا ينبغي له بعد الآن أن يمتلك مثل تلك السُّلطة عليها. كانت تنظر إليه كشيءٍ خبيثٍ، في تلك اللحظة. أخرجَتْه من درجِ الصُّوان المحاذي لرأس السَّرير، وحدَّقتْ فيه قائلةً:

- خبيث!

لكنْ، ذلك الموعد هناك في الدَّير الكبير، في رَدهةِ عمَّتها الرَّاهبة، ما تفسيرُه؟ وماذا عن الرَّاهبات السَّبع اللَّائي بدلاً من التَّفكير فيها عندما جُرِحَتْ، رحنَ يُحدِّثنني، كَمَن انتابته الهواجس، عن مَقدَمِ نيافةِ هذا الأُسْقُف أو ذاك؟

كنتُ سأحصل على تفسيرٍ لتلك الأحجيَّة، أيضاً.

كانت تعرف أنَّ نيافة الأب بارْتانَّا، أُسْقُف ريكْيبري، سيقوم في ذلك الصَّباح، كما هو عهده في كلِّ شهر، بزيارةٍ إلى راهبات الدَّير الكبير المسنَّات. وبالنِّسبة إلى الرَّاهبات، فقد كانت تلك الزِّيارة بمنزلةِ تبشيرٍ بمملكة السَّماء: أنْ يُجازفنَ، مِن ثَمَّ، بإفسادها لأجل تلك الحادثة كان بالنِّسبة إليهنَّ مثارَ ذُعرٍ عظيم. وقد أرسلَتْ إليَّ تدعوني للصُّعود إلى الدَّير، لرغبتها في أن أتحدَّث دونما إبطاءٍ، وفي تلك الصَّبيحة نفسِها، مع الأُسْقُف.

- أنا، مع الأُسْقُف؟ لماذا؟

لكي أُسْكِتَ في الوقت المناسب ما كان يُحاك ضدِّي.

لقد أرادوا، في حقيقةِ الأمر، الحَجْرَ عليَّ، مدَّعين أنَّني فاسدُ العقل. أخبرتْها ديدا بأنَّهم انتهوا فعلاً من جمعِ وترتيب جميع الأدلَّة القانونيَّة التي لدى فيربو، وكوانتورتْسو، ولدى والدها ولديها هي نفسها، ليُبرهنوا على ما بعقلي من فسادٍ صارخ. كثيرون كانوا مستعدِّين للإدلاء بشهادتهم، بمَنْ فيهم ذلك المدعوُّ تورولَّا الذي وقفتُ إلى جانبه ضدَّ فيربو وجميع موظَّفي المصرف؛ وبمَنْ فيهم ماركو دِي دِيُّو الذي وهبتُه بيتاً.

- ولكنَّه سيخسره،- لم أستطع منع نفسي عن الإدلاء إلى آنَّا روزا بتلك الملاحظة.- إذا ما أثبتوا أنَّني فاسدُ العقل، فإنَّ وثيقة الهبة ستكون لاغيةً وباطلة!

انفجرت آنَّا روزا ضاحكةً في وجهي من تلك الملاحظة السَّاذجة. فلقد وعدوا ماركو دِي دِيُّو بأنَّه لن يخسرَ البيتَ إذا هوَ فعل ما يريدون، وشهدَ ضدِّي. والأكثر من ذلك، أنَّه كان قادراً على الإدلاء بشهادته بكلِّ ضميرٍ يقظٍ.

نظرتُ بحيرةٍ إلى آنَّا روزا وهي تضحك. تنبَّهتْ هي إلى ذلك، وأخذتْ تصيح:

- بلى، جنون! الأمرُ كلُّه محضُ جنون! محضُ جنون!

ليس هذا فحسب، بل إنَّها كانت مُلتذَّةً بذلك، ومؤيِّدةً له، وستكون أكثرَ تأييداً إذا ما كنتُ راغباً حقَّاً في المضيِّ بذلك الجنون إلى أقصاه: أي إلى حدِّ تدمير المصرف، وإبعادِ تلك المرأة التي كانت دائماً عدوَّاً لي عنِّي.

- ديدا؟

- ألا تصدِّق ذلك؟

- نعم، إنَّها عدوٌّ الآن.

- لا، بل كذلك كانت دائماً! دائماً!

وراحتْ تُخبرني كيف أنَّها كانت تحاول، منذ مدَّةٍ، أن تُفهِمَ زوجتي أنَّني لم أكن ذلك الأبله الذي كانت تتخيَّله؛ وأنَّها خاضتْ في سبيل ذلك محادثاتٍ مستفيضةً، وكابدَتْ مشاقَّ لا حصر لها، لكي تكبحَ مشاعرَ الازدراء التي بعثَها في نفسها تصلُّبُ تلك المرأة التي لم تكن تريد أن ترى في كلِّ أفعالي وكلماتي غيرَ بلاهةٍ لم تكن موجودةً في الأصل أو نوايا سيِّئةٍ لا يمكن سوى لذِهنٍ متعمِّدِ العدوانيَّة أن يراها فيها.

صُعِقْت. في ومضةٍ خاطفة، جعلتْني إسراراتُ آنَّا روزا أرى ديدا أخرى مغايرةً تماماً لتلك التي عهدْتُها، وفي نفس الوقت تضاهيها في واقعيَّتها، حدَّ أنَّني - في تلك اللحظة، وأكثر من أيِّ وقتٍ مضى - شعرتُ برُعبٍ مُطلَقٍ من هولِ ما تبدَّى لي. ديدا أخرى تتحدَّث عنِّي بما لم أكن لأتخيَّل أبداً أنَّ من الممكن أن تتلفَّظ به يوماً، مُناصِبةً جسدي نفسَه البغضَ والعداوة. وإذا بكلِّ الذِّكريات الحميمةِ التي تقاسمناها ممزَّقةٌ ومخونةٌ بشكلٍ مهينٍ لم أكن قادراً معه على استرجاعها ما لَم أتخطَّ بازدراءٍ عنصرَ السُّخرية المكنون فيها، والذي لم أتفطَّن له من قبل، وما لَم أتوقَّ الخزيَ الذي لم أجد نفسي، في أعمق أعماقي، مضطرَّاً إلى الشُّعور به من قبل. كان الأمر كما لو أنَّها غدراً، بعدما دفعتْني بكلِّ ثقةٍ إلى التَّعرِّي، فتحَتِ الباب على مصراعَيْه، جاعلةً منِّي عرضةً لسخريةِ أيِّ شخصٍ قد يرغب في

الدُّخول لرؤيتي هكذا عارياً ودونما سِترٍ أستترُ وراءه. زِدْ على ذلك تقييمها لعائلتي، وحكمها على طِباعي الأكثر عفويَّةً، بكلماتٍ لم أكن لأتوقَّعها منها أبداً. إنَّها، باختصار، ديدا أخرى؛ ديدا عدوانيَّةٌ بالفِعل.

ومع ذلك، إنَّني متيقِّنٌ تمامَ اليقين من أنَّها لم تكن تتصنَّع مع فتاها جينجيه في شيء: كانت، مع جينجيه، قادرةً على أن تكون منذورةً بالكامل له ومُخلِصة. أمَّا خارجَ الحياة التي استطاعتْ خوضها معه، فكانت تتحوَّلُ إلى أخرى: إلى تلك المرأة الأخرى التي كان يُلائمها أو يروق لها أن تكونها، أو تشعر حقَّاً بأنَّها هي، في نظر آنَّا روزا.

لكنْ، ممَّ أعجبُ؟ ألم أكن قادراً على أن أترك فتاها جينجيه من دون مساسٍ به، كما صاغتْه هي، وأصيرَ شخصاً آخر أصوغه بنفسي؟

كذلك كان شأني، مثلما هو شأن الجميع.

كان عليَّ ألَّا أُطلعَ آنَّا روزا على سرٍّ ما تبدَّى لي. فهي نفسُها مَن ابتلاني بذلك، إذ فتَّحَتْ عينيَّ، فجأةً ودونما تمهيدٍ، على ما كان خافياً عليَّ من شأن زوجتي. لم أكن لأتخيَّل أبداً أنَّ مثل ذلك الكشف سيكون قادراً على إحداث كلِّ ذلك القلق الذي أحدثه في روحها، إلى حدٍّ يجعلها ترتكب ذلك العمل المجنون الذي ارتكبَتْه.

ولكنَّني سأتحدَّث أوَّلاً عن زيارتي إلى نيافة الأُسْقُف، الخطوة التي حثَّتْني هي بإلحافٍ شديدٍ على القيام بها، كما لو كانت تحثُّني على أمرٍ لا يحتملُ أيَّ تسويف.

-V-

إلهُ الدَّاخل وإلهُ الخارج

أيَّامَ كنتُ أنزِّه بيبي، كلبةَ زوجتي، كانت كنائسُ ريكْييري مصدرَ يأسٍ لي.

كانت بيبي تصرُّ على دخولها، أيّاً كان الثَّمن.

عندما كنتُ أناديها لتعود، كانت تجلسُ على إستها، وترفعُ إحدى قائمَتَيْهَا الأماميَّتَيْن، وتهزُّها مُطلِقةً بعضَ العطسات، ثمَّ تقعي هناك مُحملقةً فيَّ وقد نصبَتْ إحدى أذنَيْها، وأرْخَتِ الأخرى، وكأنَّها لا تصدِّق أنَّ من الممكن - لا، ليس من الممكن - ألَّا يكون مسموحاً لكلبةٍ جميلةٍ مثلها بالدُّخول إلى الكنيسة. لا سيَّما وأنَّ أحداً لم يكن هناك!

- لا أحد؟ ماذا تعنين بلا أحد، يا بيبي؟- كنتُ أقولُ لها.- إنَّ أكثر المشاعر الإنسانيَّة سُمُوّاً تقبع هناك. أنتِ لا يمكنكِ فَهْمُ مثل هذه الأمور، لأنَّكِ لحسنِ حظِّكِ كلبةٌ، ولستِ بشراً. البشرُ - ألا ترين ذلك؟- في حاجةٍ إلى بناء بيوتٍ حتَّى لمشاعرهم. لا يكفيهم أن تبقى تلك المشاعر في داخلهم، في قلوبهم: يريدون رؤيتها في الخارج أيضاً، يريدون لمسَها؛ فيبنون لها البيوت.

أمَّا أنا، فكنتُ مقتنعاً على الدَّوام، حتَّى ذلك الحين، بالاحتفاظ بمشاعري تجاه الله في داخلي، على طريقتي. واحتراماً لما يملكه الآخرون

من مشاعر تجاهه، كنتُ أمنعُ بيبي على الدَّوام من دخول إحدى الكنائس؛ ولكنْ، أنا أيضاً لم أكن أدخلها. احتفظتُ بمشاعري تجاهه لنفسي، وحاولتُ أن أبرَّ بها وأنا واقفٌ على قَدَمَيَّ، بدلاً من الذَّهاب للرُّكوع في بيتٍ بناهُ الآخرون له.

تلك النُّقطة التي شعرتُ بها تُطعَنُ في صميم أعماقي عندما ضحكَتْ زوجتي لسماعي أقول إنَّه لم يعد يعنيني أن ينظر إليَّ الآخرون بصفتي مُرابي ريكْييري،- تلك النُّقطة هي من غير شكٍّ الله: إنَّه الله مَنْ شعرتُ به يُطعَن في داخلي؛ إلهُ الدَّاخل الذي لم يعد قادراً على تحمُّلِ نظرة الآخرين إليَّ في ريكْييري بصفتي ذلك المرابي.

ولكنْ، لو أنَّني ذهبتُ إلى كوانتورتْسو أو إلى فيربو وشركاء المصرف الآخرين لأخبرهم بشيءٍ من قبيل هذا، لكنتُ أعطيتُهم من غير شكٍّ دليلاً آخر على جنوني.

بدلاً من ذلك، كان على إله الدَّاخل، ذلك الإله الذي بدا من موقعه في داخلي مجنوناً في نظر الجميع، أن ينطلق بكلِّ ما أُوتيَ من مشاعر النَّدم ليزور إلهَ الخارج الفائق الحكمة، ويسأله العونَ والحِفظَ، إلهَ الخارج الذي له بيتُهُ الخاصُّ، وسَدَنَتُهُ الأكثر إيماناً وغيرةً، وسلطانُهُ الذي بحكمةٍ وعظمةٍ باهرَتَيْن أسَّسه في الأرضِ ليكون محبوباً ومرهوب الجانب.

هذا الإله، إله الدَّاخل، لم يكن ثمَّة مهلَكَةٌ في أن يجرؤ فيربو أو كوانتورتْسو على قَذْفه بتهمةِ الجنون.

-VI-
أُسْقُفٌ مُرهِق

مضيتُ، إذاً، إلى الأسقفيَّة، لأقابل نيافةَ الأُسْقُف بارْتانَّا.

يُقالُ في ريكْييري إنَّه انتُخِبَ أُسْقُفاً بناءً على طلبٍ وتكليفٍ مشبوهٍ من قِبَل بعض أساقفة روما النَّافذين. وحقيقةُ الأمر أنَّه، بالرَّغم من بقائه عدَّة سنين على رأس الأبرشيَّة، لم يُفلح بعد في تحبيب أحدٍ به، أو في كسب تعاطفِ أو ثقةِ أحد.

في ريكْييري، كان أهلُ البلدةِ معتادين على مظاهر البهرجة، وعلى الطَّبيعةِ البشوش والوديَّة، والكرم السَّخيِّ لسلفه الرَّاحل، نيافةِ الأُسْقُف ڤيڤالدي الرَّفيع المقام؛ ولذلك ما من أحدٍ إلَّا وشعر بقلبه يعتصره الألم حين رأى لأوَّل مرَّةٍ الهيكلَ المتلفِّعَ جيِّداً بردائه، هيكلَ الأُسْقُف الجديد، وهو يهبط سيراً على قَدَمَيْه من القصر الأسقفيِّ، يرافقه اثنان من معاونيه.

أُسْقُفٌ على قَدَمَيْه؟

مُذْ أناخَ قصرُ الأُسقفيَّة كقلعةٍ مُكربةٍ في أعالي المدينة، وجميعُ الأساقفة يهبطون دائماً في عربةٍ بهيَّةٍ، يجرُّها حصانان، مُزيَّنةٍ بتوشياتٍ حُمرٍ وذؤابات.

غير أنَّ نيافة الأُسْقُف بارْتانَّا كان قد قال، في لحظةِ تنصيبه نفسِها، إنَّ الأسقفيَّة ينبغي أن يُنظرَ إليها بصفتِها مُزاوَلةَ عملٍ، لا بصفتِها شرفاً

دنيويّاً. كما أنَّه أعفى من العملِ حُجَّاباً وطاهياً، حوذيّاً وخدَماً، وتخلّى عن العربة، مفتتِحاً عهدَه الاقتصاديَّ الأكثر تقشُّفاً، وكلُّ ذلك على الرَّغم من أنَّ أبرشيَّة ريكْييري كانت تُعَدُّ من بين الأكثر ثراءً في إيطاليا. وأمَّا في زياراته الأسقفيَّة الرَّعويَّة، تلك التي توانى فيها سلفُهُ إلى حدٍّ كبيرٍ بينما راعاها هو بأقصى قدرٍ من اليقظة في المواسم المتعارف عليها كنسيّاً، بالرَّغم من سوء أحوال الطُّرُقات ومن غياب وسائل النَّقل، فكان يستخدم عرباتٍ مستأجرةً أو حميراً وبغالاً.

كذلك علمتُ من آنّا روزا أنَّ جميع راهباتِ الأديرةِ الخمسةِ في المدينة، باستثناء راهبات الدَّير الكبير الهرِمات، كنَّ يمقتْنَه، لِما اتَّخذه ضدَّهنَّ من تدابيرَ عديمة الرَّحمة فورَ تنصيبه أُسْقُفاً، فقد نهاهنَّ عن تحضيرِ أو بيعِ الحلوى والعنبريِّ(*)، تلك الحلوى اللذيذة المصنوعة من العسلِ والعجين الأصليِّ والمزيَّنة بالشَّرائط وبخيوط الفضَّة، وذلك العنبري المنكَّه بالأنيسون والقرفة! ومَنَعهنَّ من أعمال التَّوشية والتَّطريز، بما في ذلك حلل وأثواب القساوسةِ، ولم يُبح لهنَّ سوى حياكة الجوارب؛ وفي الآخر، لم يعد مسموحاً بعد اليوم أن يكون لكلِّ واحدةٍ منهنَّ كاهن اعترافها الخاصُّ، وبات عليهنَّ بدلاً من ذلك أن يرجعن كلُّهنَّ، ومن غير تفريقٍ، إلى كاهن الطَّائفة المشترَك. وكان قد اتَّخذ تدابير أشدَّ فدْحاً في حقِّ كَهَنَةِ جميع الكنائس والمنتفعين منها فارضاً، باختصارٍ، على رجال الإكليروس بجميع رُتَبهم تقيُّداً صارماً بأدقِّ واجبٍ من الواجباتِ الكنسيَّة.

أُسْقُفٌ كمثل هذا لم يكن مُريحاً بالنِّسبة إلى جميع أولئك الذين يريدون وضعَ مشاعرهم تجاه الله خارجَ قلوبهم، مشيِّدين للرَّبِّ بيتاً من الخارج،

(*) مشروبٌ كحوليٌّ، يُصنع من الكرز أو العُنَّاب، ودَرَجَ تقديمه في أعياد الميلاد؛ (م).

بيتاً كلَّما عظمتْ حاجتهم إلى الغفران أمعنوا فيه تجميلاً وتنميقاً. ولكنَّه بالنِّسبة إليَّ كان أفضل ما يمكن أن أرجوه لنفسي. كان من شأن سلفه، نيافةِ الأُسْقُف ڤيڤالدي الرَّفيع المقام، المشمول بعين الرِّضا والمحبوب من قِبَل الجميع، أن يسعى بكلِّ السُّبُل والوسائل إلى تسوية كلِّ شيء، مُنقِذاً في آنٍ واحدٍ ضميري ومصرفي، بما يرضيني، ولكنْ أيضاً بما يرضي فيربو وكوانتورتْسو وجميع الآخرين.

بيدَ أنَّني كنتُ أشعر حينذاك بأنَّني لم أعد قادراً على تسوية الأمور، لا مع نفسي، ولا مع أيِّ أحدٍ آخر.

-VII-
مُحادثةٌ مع نيافتِه

استقبلني نيافة الأُسْقُف بارْتانًا في الرَّدهةِ الفسيحةِ المخصَّصَةِ للمحفوظات القديمة في القصر الأُسقفيِّ.

ما تزال عالقةً في منخريَّ رائحة تلك الرَّدهة بسقفِها الكئيب الذي غطَّى الغبارُ تصاويرَه الجصِّيَّة، لدرجةِ أنَّه لم يعد من الممكن تمييزها إلَّا بشقِّ الأنفس. كانت الجدران العالية بملاطها المُصفَرِّ مكتظَّةً بصُوَرٍ عتيقةٍ لأساقفةٍ سابقين، ملطَّخةٍ هي الأخرى بالغبار وبعضها بالعفنِ أيضاً، ومعلَّقةٍ هنا وهناك من دون ترتيبٍ معيَّن، فوقَ أصونةٍ وخزائنِ كُتُبٍ حائلةِ اللون ومُسوَّسة.

في أقصى الرَّدهة أُشرِعَتْ نافذتان كبيرتان، دفَّاتهما التي عكسَتْ ألواحُها الزُّجاجيَّة الحزنَ اللانهائيَّ لسماءٍ ملبَّدةٍ بالغيوم، كانت تصطفقُ دونما توقُّفٍ في الرِّياح الهوجاء التي هبَّتْ على حين غرَّة: رياحِ ريكْييري التي تأتي بالكربِ إلى كلِّ بيت. كان يبدو في بعض الأحيان أنَّ تلك الدَّفَّات سَتَهِنُ وتمتثلُ لا محالةَ أمامَ الهياجِ العوَّاءِ للرِّياح الجنوبيَّة الغربيَّة. تلك المحادثة بيني وبين نيافةِ الأُسْقُف، من أوَّلها إلى آخرها، كانت مصحوبةً بالرِّفقة المشؤومةِ لصَفْراتٍ حادَّةٍ ومتسعِّرة، وعُواءاتٍ طويلةٍ ومُنذِرةٍ ذَهَنَتْني مراراً وتكراراً عن كلماتِ نيافةِ الأُسْقُف وجعلتني إذَّاكَ أشعرُ، مع حيرةٍ يتعذَّرُ تحديدُها، وكما لم أشعر يوماً من قبل، بالخواء المرير للزَّمن والحياة.

أذكرُ أنَّني لمحتُ من إحدى تينك النَّافذَتَيْن الشُّرفةَ الصَّغيرةَ للمنزلِ القديمِ المقابل. على تلك الشُّرفة ظهرَ دون سابق إنذارٍ رجلٌ، لا بدَّ أنَّه خرجَ للتَّوِّ من سريره وقد تملَّكَتْه فكرةٌ مجنونةٌ بأن يجرِّبَ لذَّة الطَّيران.

هناك في قلب الرِّيح الهوجاء، وقف تاركاً إيَّاها تعصفُ حولَ جسده النَّاحلِ نحولاً تقشعرُّ له الأبدان، بدثارِ السَّرير: دثارٍ صوفيٍّ أحمر، متدلٍّ من فوق كتفَيْه، وممسوكٍ بإحكامٍ بذراعَيْه المتصالبَتَيْن. وكان يضحك، يضحك والدُّموع تبرقُ في عينَيْه الممسوسَتَيْن، فيما خصلات شعره الأحمر الطِّوال تخفق من كلِّ جانبٍ، كأنَّها ألسنة اللهب.

ذلك الظُّهور بهتَني حدَّ أنَّني، بعد فترةٍ زمنيَّةٍ معيَّنة، لم أستطع حبسَ نفسي عن لفتِ انتباهِ نيافةِ الأُسْقُف إليه بإيماءةٍ من يدي، قاطعاً بذلك خطبةً فائقة الأهمِّيَّة حول خوالج الضَّمير، خطبةً كان الأُسْقُف قد بدأها منذ بعض الوقت مع التذاذٍ واضحٍ ببلاغتِه.

التفتَ نيافة الأُسْقُف بالكادِ ليلقي نظرةً، ومع واحدةٍ من تلك الابتسامات التي تنوبُ ببراعةٍ منابَ التَّنهيدات، قال:

- آه، نعم: إنَّه مجنونٌ مسكينٌ يقطن هناك.

قالها بتلك النَّبرة التي تنمُّ عن اللامبالاة، كما لو كان يتحدَّث عن شيءٍ اعتادته عيناه منذ زمنٍ بعيد، ما أغراني بإدخال الرَّوع على قلبه، بأن أقول له: "لا، إنَّه لا يقطن هناك على الإطلاق. إنَّه هنا، يا نيافة الأُسْقُف. ذلك المجنون الذي يرغب في الطَّيران هو أنا". ولكنَّني أحجمتُ عن ذلك، ولم أقلْه. وبدلاً من ذلك، وبنفحةِ اللامبالاةِ نفسِها، سألتُه:

- أوَليسَ ثمَّة خطرٌ أنْ يرمي بنفسه من الشُّرفة؟

- لا، إنَّه على هذه الحال منذ سنين عديدة،- أجابني نيافتُه.- لا ضيرَ يصدرُ عنه، لا ضير.

عفويّاً حينذاك، ودون أيِّ إرادةٍ منِّي على الإطلاق، أفلتَ لساني قائلاً:

- مثلي أنا.

فلم يستطع نيافة الأُسْقُف إخفاءَ جفلتِه. غير أنَّني أبديتُ له في الحال طلعةً في غايةِ البشاشةِ والهدوء، ما لبثتْ أن أعادتْ الأمورَ إلى نِصابها. سارعتُ لأشرحَ له أنَّني قصدتُ أنَّ لا ضيرَ يصدرُ عنِّي أنا أيضاً في رأي السَّيِّد فيربو والسَّيِّد كوانتورتْسو، وفي رأي زوجتي وأبيها، وباختصارٍ، في رأي كلِّ أولئك الذين يرغبون في كَبْح جماحِ أفعالي.

استأنف نيافة الأُسْقُف، وقد عادَ إليه صفاءُ الذِّهن، خطبتَه التي سبقَ وبدأها حولَ خوالج الضَّمير، والتي كانت تبدو له الأكثر ملاءمةً لقضيَّتي، والطَّريقةَ الوحيدةَ التي يمكن أن يُظهِرَ من خلالها تفوُّقَ قوَّةِ وهيبةِ نفوذِه الرُّوحيِّ على نوايا ومكائد الذين أصبحوا أعداءً لي.

أكان عليَّ أن أوضِّحَ له أنَّ قضيَّتي لم تكن على الإطلاق قضيَّةَ ضميرٍ، كما كان يتصوَّر؟

لو أنَّني جازفتُ بقولِ ذلك له، لغدوتُ في الحال مجنوناً في عينَيْه أيضاً.

ذلك الإله في داخلي، الذي كان يريد سحبَ أموالي من المصرف، لئلَّا أُدعَى بعد اليومِ مُرابياً، كان إلهاً معادياً لكلِّ المباني.

وعلى النَّقيض، فإنَّ الإله الذي لجأتُ إليه ملتمساً العونَ والحِفظَ لم

يكن سوى ذلك الإله البنَّاء. بلى، وكان سيمدُّ لي يدَ العون، لكي أسحبَ أموالي، إنَّما شريطةَ أن أستخدمَه في بناء بيتٍ لشعورٍ آخر من تلك المشاعر الإنسانيَّة الأكثر سموّاً: أقصدُ به الإحسان.

نيافةُ الأُسْقُف، في ختامِ محادثتنا، سألني بنبرةٍ شعائريَّةٍ مهيبة إذا كان ذلك هو ما كنتُ أريدُ القيام به.

لم يكن ثمَّة بدٌّ من أن أقول له إنَّ ذلك هو ما أردتُه.

فما كان منه حينذاك إلَّا أن قرعَ جرساً فضِّيّاً صغيراً وقديماً، فاقدَ البريق وخافتَ الرَّنين كان يقف باستحياءٍ شديدٍ على الطَّاولة. ظهرَ بالباب شمَّاسٌ في مقتبلِ العمر، أشقرُ وشاحبٌ للغاية. أمرَه نيافة الأُسْقُف بأن يستدعيَ "الدُّون أنطونيو إسكليبيس"، أحدَ قسِّيسي الكاتدرائيَّة والمشرفَ على كلِّيَّةِ المنذورين لخدمةِ الدَّير، والذي كان جالساً في غرفةِ الانتظار. لقد كان الرَّجلَ الذي كنتُ في أمسِّ الحاجةِ إليه.

كنتُ أعرفُ هذا الكاهنَ بصيتِه أكثر ممَّا بشخصِه. كنتُ قد قصدتُه ذات مرَّةٍ بتكليفٍ من والدي، لأسلِّمه رسالةً في كُلِّيَّة المنذورين لخدمةِ الدَّير التي تنهضُ غيرَ بعيدٍ عن قصر الأُسْقُفيَّة، في أعلى نقطةٍ من المدينة، وهي صرحٌ شاسعٌ وقديمٌ جدّاً، مربَّعُ الشَّكل وقاتمٌ من الخارج، منخورٌ كُلِّيّاً بالزَّمنِ وتقلُّباتِ الطَّقس، ولكنْ، أبيضُ بالكامل، مُضاءٌ ومُهوَّى في الدَّاخل. هنا يستقبلون اليتامى البائسين والأولاد غير الشَّرعيِّين من جميع أنحاء المقاطعة، من سنِّ السَّادسة إلى الثَّامنة عشر، حيث يعلِّمونهم مختلف الفنون والحِرَف اليدويَّة. قواعدُ السُّلوك هنا جدُّ قاسيةٌ وصارمة، لدرجةِ أنَّ صلواتِ الفجرِ والمساء التي ينشدُها أولئك البائسون المنذورون للخدمة،

على أنغام الأرغن في كنيسةِ الكُلِّيَّة، تبدو لِمَنْ يسمعها من الوِهاد مُكربةً كأنَّها أنينُ السُّجناء.

بالحكم عليه من مظهره، ما كان المرءُ ليتخيَّلَ أنَّ الكاهن إسكليبيس يمتلك في نفسه الكثير من القوَّة والسُّلطة، ومن إرادةٍ صلبةٍ منقطعةِ النَّظير. كان كاهناً طويلَ القامةِ ناحلَ الجسم، يكاد يكون شفَّافاً، كما لو أنَّ كلَّ هواءِ وضوءِ الهضبةِ التي كان يعيش في عليائها لم يُذوِهِ فحسب، بل وخلخلَه أيضاً، مُضفياً على يَدَيْه نحولاً راجفاً حتَّى بالكادِ تُرَيان، فيما بدا جفناه فوق بريقِ عينَيْه الإهليلجيَّتَيْنِ أرقَّ من قشرةِ بصلة. راجفاً وشاحباً كان صوتُه أيضاً، وعلى شَفَتَيْه العريضَتَيْنِ والبيضاوَيْن، اللتَيْنِ كثيراً ما كان ينسلُّ من بينهما بضع قطراتٍ من اللعاب، طُبِعَتْ ابتسامةٌ خاوية.

ما إن دخلَ وأعلمَه نيافة الأُسْقُف بخوالج ضميري وبنواياي، حتَّى اندفعَ يُخاطبني باستعجالٍ كبيرٍ، وبثقةٍ عالية، مربِّتاً بيدِه على كتفي، ومتخطِّياً الرَّسميَّات:

- رائعٌ رائع، يا بُنيَّ! الآلامُ الكبيرةُ تشرَحُ صدري. اشكُرِ اللهَ عليها. وحدَها الآلامُ تخلِّصُك، يا بُنيَّ. علينا أن نكون قُساةً مع جميع أولئك الحمقى الذين لا يريدون أن يتألَّموا. أمَّا أنتَ، فمن حسن حظِّكَ أنَّ لديكَ الكثير الكثير لتتألَّم بسببه إذا ما فكَّرتَ في والدكَ الذي، يا لبؤسِه!، ارتكبَ الكثير من الشُّرور! فليكن التَّفكيرُ في والدكَ مُسُوحَ نُسْكِكَ! نعم، مُسُوحَ نُسْكِك! ودَعْ أمرَ محاربةِ السَّيِّد فيربو والسَّيِّد كوانتورتسو لي! يريدون وضعَ حدٍّ لِفعالِكَ إذاً؟ سأهتمُّ أنا بأمرهم، لا تقلقْ بشأن ذلك!

غادرتُ قصرَ الأُسْقُفيَّة مع يقينٍ بأنَّني انتصرتُ على أولئك الذين كانوا

يريدون وضعَ حدٍّ لِفعالي؛ ولكنَّ تلك اليقينيَّة وما انبثق عنها من التزاماتٍ تعاقدتُ عليها للتَّوِّ مع الأُسْقُف ومع إسكليبيس، رَمَتْني في بحرٍ لا نهاية له من عدمِ اليقين بشأنِ ما ستؤولُ إليه أحوالي، حين أُجَرَّدُ من كلِّ شيءٍ، وأصيرُ بلا مكانةٍ، وبلا عائلة.

-VIII-
مُنتظِراً

لم يعد لديَّ في ذلك الحين مَنْ أفكِّرُ فيه سوى آنَّا روزا التي تمنَّتْ منِّي أن أبقى إلى جانبها في فترةِ مرضها.

بقيَتْ مُلازِمةً سريرَها مع ضِمادةٍ حولَ قَدَمِها؛ وكانت قد قطعَتْ على نفسِها عهداً بأنَّها لن تنهضَ منه أبداً، إذا ما تحقَّقتْ مخاوفُ الأطبَّاء من أن تبقى مشلولةً.

الشُّحوبُ والوهنُ اللذان أورثتْها إيَّاهما فترةُ إعاقتها الطَّويلة أضفيا عليها سِحْرَاً جديداً مكانَ سِحْرِها القديم. بريقُ عينَيْها غدا أكثر عُمقاً، كاد يبدو زُحَليَّاً. أخبرتْني بأنَّها عاجزةٌ عن النَّوم. رائحةُ شعرِها الفاحمِ والكثيف، المجعَّد والمتقصِّف قليلاً، عندما كانت تراه في الصَّباح محلولاً ومبعثراً على الوسادة، كانت تخنقها. لولا نفورُها من ملامسةِ يَدَيْ مصفِّف الشَّعر لرأسِها لقصَّتْهُ منذ زمن. سألتْني، ذاتَ صباحٍ، إن كان في مُكنتي أن أقصَّهُ لها. ضحِكَتْ من ارتباكي في الرَّدِّ على هذا السُّؤال، ثمَّ ردَّتْ ثنيةَ المُلاءة المقلوبة على وجهها، وبقيتْ لفترةٍ طويلةٍ على تلك الحال، دافنةً وجهَها، وصامتة.

تحتَ مُلاءاتِ السَّرير، كانت تعذِّبُني بالتَّرغيبِ والصَّدِّ تكويناتُ جسدِها الذي لعذراءَ ناضجة. كنتُ أعلمُ مِن ديدا أنَّها في الخامسة والعشرين من عمرها. ولا ريبَ أنَّها، وهي مستلقيةٌ على ذلك النَّحو، وقد

دفنَتْ وجهها بالمُلاءة، كانت تفكِّرُ في أنَّه لا مناصَ لي من التَّحديق في خطوطِ جسدِها التي ارتسمتْ من تحت المُلاءات. كانت تتقصَّدُ إغوائي.

في دُغشةِ الغرفةِ الورديَّةِ الصَّغيرةِ والفوضويَّة، بدا الصَّمتُ مُدرِكاً تماماً لعدمِ جدوى التَّرقُّب بالنِّسبةِ إلى حياةٍ لم تستطع يوماً الرَّغباتُ اللحظيَّةُ لتلك المخلوقة الغريبة أن تحملَها على الإثمار، أو على التَّشكُّل بطريقةٍ أو بأخرى.

لقد حدَسْتُ فيها الهلعَ المطلَقَ من كلِّ ما من شأنه أن يُظهِرَ علامةً من علاماتِ الاستدامةِ أو الثَّبات. كلُّ ما كانت تفعلُه، كلُّ رغبةٍ كانت تنتابُها أو فكرةٍ كانت تخطرُ لها في لحظةٍ ما، كانت في اللحظةِ التي تليها تبدو بعيدةً عنها أشدَّ ما يكون البُعد؛ وإذا حدثَ وشعرَتْ بأنَّها ما تزال أسيرةَ شيءٍ مضى، فإنَّها كانت تستسلم لفوراتِ الغضب ولنوباتِ هياجٍ مجنونة، بل وحتَّى لاضطراباتٍ عاطفيَّةٍ تُطبقُ كُلِّيَّاً عليها.

جسدها وحده، كما بدا لي، كان يمنحها حبوراً لا يخيبُ أبداً، حتَّى عندما كانت في بعض الأحيان تُبدي أنَّها غير راضيةٍ عنه على الإطلاق، بل وحتَّى عندما كانت تُؤكِّد أنَّها تكرهه. فهي، مع ذلك، كانت تتفحَّصه باستمرارٍ في المرآة، في كلِّ جزءٍ منه أو مَلْمَح، مجرِّبةً كلَّ الوضعيَّات الممكن تصوُّرها، كلَّ التَّعابير التي كانت عيناها الحادَّتا البريق والتَّوقُّد، ومنخراها المرتعدان، وفمُها الأحمر المترفِّع، وفكُّها السُّفليُّ القابلُ لأداء أصعب الحركات، قادرةً على تمثيلها. ويرجع ذلك إلى الممثِّلة التي في داخلها؛ لا إلى اعتقادها بأنَّ تلك الأشياء لن تخدمها في الحياة إلَّا بوصفِها أُلْهُوَّةَ: أُلْهُوَّةَ غنجٍ وإغراءٍ لحظيَّة.

في صباح أحد الأيَّام، رأيتُها تمُحِّصُ وتتأمَّلُ مَليَّاً من خلال مرآةِ يدٍ صغيرةٍ، كانت تحتفظ بها في سريرها، ابتسامةً تقطرُ رقَّةً وحُنوَّاً، مع أنَّ عينَيْها طَوال ذلك الوقت كانتا تبرقان بخبثٍ صبيانيٍّ لعوب. أن أراها، بعد ذلك، تصنعُ لي تلك الابتسامة نفسَها؛ أن أرى تلك الابتسامة حيَّةً على شَفَتَيْهَا وكأنَّها وُلِدَتْ لتوِّها هناك، عفويَّاً، لأجلي،- كان من شأنه أن يثيرَ فيَّ اختلاجةَ تمرُّدٍ.

قلتُ لها إنيِّ لستُ مرآةً لها.

ولكنَّها لم تمتعض. عِوَضَ ذلك سألتْني إن كانت تلك الابتسامة، كما رأيتُها لتوِّي، هي نفس الابتسامة التي كانت تمحِّصُها وتتأمَّلها في مرآتها منذ قليل.

أجبتُها، وقد ضقتُ ذرعاً بذلك الإلحاح:

- وماذا تظنِّين أنَّني أعرف عن ذلك؟ أنا لستُ في أيِّ موقعٍ يسمح لي بأن أعرف كيف تنظرين إلى نفسكِ. كان الأحرى بكِ أن تجعلي أحداً يلتقط لكِ صورةً مع تلك الابتسامة.

- لديَّ واحدةً،- قالت لي.- لديَّ واحدةً كبيرة. إنَّها هناك، في دُرج تلك الخزانة. هلَّا تأتيني بها، من فضلكَ.

ذلك الدُّرجُ كان مليئاً بصورٍ فوتوغرافيَّةٍ لها. أرتْني الكثير منها، قديمةً وحديثة.

- كلُّها مَيْتةٌ،- قلتُ لها،

التفتتْ بوجهها مُجفِلةً لتنظرَ إليَّ:

- مَيْتة؟

- نعم، إنَّها مَيتةٌ بقدرِ ما تبدو حيَّةً.

- حتَّى هذه التي أبتسم فيها؟

- نعم. وهذه التي تبدين فيها مستغرقةً في الأفكار؛ وهذه التي تخفضين فيها عينيكِ.

- ولكنْ، كيف لها أن تكون مَيْتةً، إذا كنتُ أنا حيَّةً هنا؟

- آه، أنتِ نعم؛ لأنَّكِ لا ترين نفسكِ الآن. ولكنْ، عندما تكونين أمام مرآة، وفي اللحظة التي تنظرين فيها إلى نفسكِ، تكفِّين عن كونكِ حيَّة.

- ولماذا؟

- لأنَّه، لكي ترَي نفسكِ، عليكِ للحظةٍ أن تُوقِفي الحياةَ في داخلكِ. تماماً كما لو أنَّكِ أمامَ آلةِ تصويرٍ. فأنتِ تتَّخذين وضعاً ما. وأن تتَّخذي وضعاً هو كأن تنقلبي للحظةٍ تمثالاً. الحياةُ في حركةٍ مستمرَّةٍ، وليس في مُستطاعها أبداً أن ترى نفسَها.

- تريدُ القولَ إذاً إنَّني، ما دمتُ حيَّةً، لن أرى نفسي أبداً؟

- أبداً؛ لا كما أستطيع أنا أن أراكِ. ولكنَّني أرى صورةً لكِ هي مُلكٌ لي أنا، ومُلكٌ لي وحدي؛ وليست بالتَّأكيد مُلكاً لكِ. أمَّا تلك التي هي مُلكٌ لكِ، إذْ أنتِ حيَّةٌ، فبالكاد أمكنكِ أن تلمحيها لمحاً في لقطةٍ خاطفةٍ أو أخرى أُخِذَتْ لكِ. ويقيناً أنَّها شكَّلتْ لكِ مفاجأةً غير سارَّة. بل ولعلَّكِ بذلتِ مجهوداً كبيراً لتُميِّزي نفسكِ فيها، وأنتِ تؤدِّين حركةً مشوَّشةً من هذا القبيل.

- هذا صحيح.

- لا يمكنكِ أن تعرفي نفسكِ إلَّا عندما تتَّخذين وضعاً: عندما تكونين تمثالاً: ليس وأنتِ حيَّة. عندما يحيا المرءُ، فإنَّه يحيا ولا يرى نفسه. أن يرى نفسه هو أن يموت. إنَّكِ تنظرين إلى نفسكِ مَليَّاً في هذه المرآة، في كلِّ المرايا، لأنَّكِ لستِ حيَّةً؛ لأنَّكِ لا تعرفين، أو لا تستطيعين، أو لا تريدين أن تَحيَي. ترغبين أشدَّ الرَّغبة في معرفة نفسكِ، وفي الوقت نفسه، لا تحيَيْن.

- آه، لا شيء من هذا القبيل! حتَّى إنَّني لا أُفلحُ أبداً في البقاء للحظةٍ واحدةٍ ساكنةً.

- ولكنَّكِ تريدين أن ترَي نفسكِ على الدَّوام. في كلِّ فِعلٍ من أفعالِ حياتكِ. كما لو كانت أمامكِ، دائماً، صورةً عن نفسكِ، في كلِّ فِعلٍ، في كلِّ حركة. ولعلَّ هلعكِ ينبعُ من هذا. إنَّك لا تريدين للإحساس الذي في داخلكِ أن يكون أعمى. إنَّكِ ترغمينه على فَتْح عينَيْه، والنَّظر إلى نفسه في مرآةٍ تضعينها على الدَّوام أمامه. وذلك الإحساس، ما إن يرى نفسَه، حتَّى ينقلبَ جليداً في داخلك. لا يمكن للمرء أن يحيا أمام مرآة. عليه أن يحرص على ألَّا يرى نفسَه. لأنَّكِ مهما حاولتِ لن تكوني قادرةً على معرفةِ نفسكِ بالصُّورة التي يراكِ عليها الآخرون. ثمَّ ما جدوى أن يعرف المرءُ نفسَه لأجل نفسه فحسب؟ قد تبلغين حدَّاً لن تكوني قادرةً عنده أن تفهمي لماذا يجب أن تكون لكِ تلك الصُّورة التي تعطيها المرآة لكِ.

بقيتْ طويلاً تُحدِّقُ أمامها، هائمةً في أفكارها.

إنَّني على يقينٍ، بعد خطابي ذاك، وبعدما أخبرتُها بكلِّ ما عندي عن عذابات روحي، أنَّه قد انفتحتْ في تلك اللحظة أمامها، مثلما انفتحتْ

من قبلُ أمامي، على نحوٍ مرعبٍ وساطعٍ، تلك الرُّؤيا اللانهائيَّة لعزلتنا المتعذِّر علاجُها. هناك حيث لا كائن يتجلَّى إلَّا ليخلد إلى عزلته المرعبة. ولعلَّها أصبحت لا ترى سبباً يدعوها إلى حمل وجهها، بما أنَّه حتَّى هي لن تعودَ قادرةً في قلب تلك العزلة على رؤية نفسها حيَّة، فيما الآخرون من خارجٍ، أولئك الذين رموا بها في تلك العزلة، ما انفكُّوا يرونها، كلٌّ على هواه، وبنحوٍ لا تعلمه إلَّا السَّماء.

كلُّ زَهْوٍ يتهاوى.

أن ترى الأشياءَ بعينَيْن لا يمكن أن تعرفا كيف تراها في الوقت نفسِه عيون الآخرين.

أن تتكلَّم ولا يُفهَم قولُك.

لم يعد الأمرُ يستحقُّ أن يكون المرءُ شيئاً في نظر نفسِه.

ولم يعد أيُّ شيءٍ جليَّاً، بما أنَّه لا شيء بأيَّةِ حالٍ كان جليَّاً لنفسِه. كلُّ امرئٍ انطلاقاً من مصلحته يتصوَّرُ الأشياء على هذه الحالة أو تلك ويستأثر بها لكي يملأ كيفما كان خواءَ عزلتِه، ويُضفيَ، من يومٍ إلى آخر، نوعاً من الانسجام على حياته.

عندَ قَدَمِ السَّرير، بملامحَ مجهولةٍ لي، ومبهمةٍ لها، كنتُ واقفاً، غارقاً في عزلتها، وهي في عزلتي، وقد استلقت هناك أمامي على سريرها، بتينك العينَيْن الجامدَتَيْن والسَّحيقَتَيْن، شاحبةَ الوجه، متَّكئةً بمرفقها على الوسادة، ورأسُها المنفوشةُ الشَّعر مستندةٌ على كفِّها.

كانت تشعر بانجذابٍ لا يُقهَر نحو كلِّ ما كنتُ أقوله لها، وفي الوقتِ

نفسه بشيءٍ من الانقباض؛ بل وأحياناً بما يشبه الكراهية لي: استطعتُ أن أراها تشعُّ من عينَيْها، فيما كانت تتشرَّبُ كلماتي بإصغاءٍ في منتهى الشَّراهة.

كانت تريدُ مع ذلك أن أستمرَّ في الكلام، وأن أحدِّثها بكلِّ ما كان يخطر ببالي من صورٍ وأفكار. وكنتُ أتحدَّث من دون تفكيرٍ تقريباً؛ أو بالأحرى، كانت أفكاري تتحدَّث من تلقاء نفسها، وكأنَّها محمولةٌ بالحاجة إلى إرخاء توتُّرها المبرِّح.

- تقفين عندَ نافذةٍ؛ تنظرين إلى العالم؛ تعتقدين أنَّه تماماً كما يبدو لكِ. ترين النَّاس يمرُّون هناك في الشَّارع، ضؤلاء في مدى رؤيتكِ الرَّحيب، إذْ أنتِ مطلَّةٌ من علياء النَّافذة. تلك الرَّحابة لا مفرَّ لكِ من الإحساس بها في داخلكِ، لأنَّه إذا ما مرَّ صديقٌ الآن في الأسفل، عبرَ ذلك الشَّارع، واستطعتِ تمييزه، لَمَا بدا لكِ، وأنتِ تنظرين إليه من ذلك الارتفاع، أكبرَ من إصبعٍ من أصابعكِ. آه، ولكنْ، هل سيخطر ببالكِ أن تناديه وتسأليه: "هلَّا تقولُ لي شيئاً؛ كيف أبدو لكَ وأنا واقفةٌ هنا عندَ هذه النَّافذة؟". ذلك لن يخطرَ لكِ، لأنَّكِ لا تفكِّرين في تلك الصُّورة التي يرسمها في الوقتِ نفسه أولئك المارُّون في الشَّارع للنَّافذة ولكِ أنتِ الواقفة عندَها تنظرين. ما ينبغي لكِ فِعلُه هو أن تبذلي جهداً لتفصلي نفسَكِ عن الشُّروط التي تفرضينها على حقيقةِ الآخرين الذين يمرُّون في الأسفل، والذين قُيِّض لهم أن يعيشوا للحظةٍ داخلَ رؤيتكِ الرَّحيبة، بأنَّهم عابرو طريقٍ ضؤلاء. ولكنَّكِ لا تبذلين ذلك الجهد، لأنَّكِ لا تشكِّين أدنى شكٍّ في الصُّورة التي يرسمها أولئك لكِ ولنافذتك، كواحدةٍ بين كثيرات، ضئيلةٍ، وعاليةٍ جدَّاً، وأنتِ، ضئيلةٌ ضئيلة، تطلِّين منها مع تلك الذِّراع التي تلوِّح في الهواء.

رأتْ نفسَها، في الوصف الذي قدَّمتُه لها، ضئيلةً ضئيلة عندَ نافذةٍ عالية، وذراعها الصَّغيرة تلوِّح في الهواء، فضحكَتْ.

كان وميضٌ واختلاجاتٌ؛ ثمَّ سقطَ الصَّمتُ مرَّةً أخرى على الغرفة الصَّغيرة. بين الفينةِ والأخرى كانت تظهرُ، مثلَ ظلٍّ، العمَّةُ المسنَّة التي كانت آنَّا روزا تعيش معها: بدينةً، خاملةً، بعينَيْن باهتتَي الزُّرقة، فادحَتَي الاتِّساع، بهما حَوَلٌ مُريع. كانت تقف هُنيهةً على العتبة، في شبهِ ظلامِ الغرفةِ المائع، ويداها المنتفختان والشَّاحبتان مَرخيَّتان على بطنها، فتبدو كوحشٍ في متحفِ أحياءٍ مائيَّة، ومن دون أن تنبسَ بكلمةٍ، كانت تستديرُ وتنصرف.

مع تلك العمَّة لم تكن آنَّا روزا تتبادلُ إلَّا النَّزرَ من الكلمات على مدار اليوم بأكمله. كانت تعيش مع نفسِها ولنفسِها، تقرأ وتنسجُ الرُّؤى، ولكنَّها تبقى دوماً متضجِّرةً، ممَّا تقرأ مثلما من رؤاها نفسِها؛ تخرجُ لتتبضَّعَ أو لتلتقي بهذه الصَّديقة أو تلك؛ ولكنْ، جميعهنَّ كنَّ يبدونَ لها سخيفاتٍ وخاويات الرَّأس؛ تتلذَّذ بإثارةِ دهشتهنَّ؛ ثمَّ تعودُ إلى المنزل، وهي تشعر بالتَّعب والاشمئزاز من كلِّ شيء. بعض مشاعر التَّقزُّز العصيَّة على التَّذليل، التي يمكن للنَّاظر إليها أن يحدسها من إجفالةٍ في جسدها أو من ازورارِ مُباغتٍ بسبب تلميحٍ ما،- بعض تلك المشاعر ربمَّا أورثَتْها إيَّاها قراءاتُها في كُتُب الطِّبِّ التي كانت تجدها في مكتبة والدها الذي كان طبيباً. كانت تقول إنَّها لن تتَّخذ زوجاً أبداً.

لا أستطيع أن أخمِّنَ أيَّ فكرةٍ كوَّنَتْها عنِّي. لا ريب أنَّها كانت تنظر إليَّ باهتمامٍ يفوق العادة، إذْ بدوتُ لها في تلك الأيَّام مشوَّشاً شارداً في أفكاري وفي اللايقين من أيِّ شيء.

ذلك اللايقين الذي كان ينفرُ فيَّ من كلِّ لاجمٍ، من كلِّ مُعينٍ، والذي بدأ من تلك اللحظة فصاعداً، كما لو غريزيّاً، ينحسرُ عن كلِّ القوالب الوطيدة مثلما ينحسر البحرُ عن الشَّاطئ؛- ذلك اللايقين، الهاذرُ في عينَيَّ، كان يجذبها من غير شكٍّ، ولكنْ، في بعض الأحيان، حين كنتُ أنظر إليها، كان يتولَّد لديَّ انطباعٌ غريبٌ بأنَّها كانت تجد الأمر مسلِّياً بعض الشَّيء؛ ففي النِّهاية كان مَدعاةً إلى الضَّحك، إلى حدٍّ ما، أن يكون عندَ قَدَمِ سريرها رجلٌ في مثل تلك الحالة الذِّهنيَّة التي لا يتصوَّرها عقل، منفصِلٌ عن الواقع كُلِّيّاً، ولا يعلم كيف سيدبِّرُ أمورَ حياته غداً، عندما يصبحُ، بعدَ سحب أمواله من المصرف بمساعدة إسكليبيس، مجرَّداً ومحروماً من كلِّ شيء.

ذلك أنَّها كانت على يقينٍ تامٍّ من أنَّني ماضٍ في الأمرِ حتَّى بلوغِ خاتمتي المريرة، كما كان أيُّ مجنونٍ مثاليٍّ لِيفعل. ولكَم سلَّاها ذلك، بل ولكَم أخذها الزَّهوُ، كذلك، بأنَّها قد حدسَتْ مِن قبلُ، مِن أحاديثها مع زوجتي، أنَّني وإن لم أكن هكذا بالضَّبط، إلَّا أنَّني كنتُ على أيَّة حالٍ رجلاً غير عاديٍّ، مختلفاً عن الآخرين، يمكن للمرء أن يتوقَّع منه، في هذا اليوم أو ذاك، شيئاً خارجاً عن المألوف. ولأنَّها كانت ترغبُ في أن تُثبت للآخرين، ولا سيَّما لزوجتي، أنَّها كانت على حقٍّ في تفكيرها فيَّ على هذا النَّحو، فقد أرسلتْ تستدعيني على عجلٍ، لتُخبرني بالمكائد التي دبَّروها لي، ولتحثَّني على الذَّهاب للقاء الأُسْقُف. كانت في غاية الامتنان لي في تلك اللحظة، وهي تراني هناك عند قَدَم سريرها، واقفاً أنتظرُ بوداعةٍ ما هو آتٍ لا محالة، غيرَ عابئٍ بعد الآن بشيءٍ أو بأحد.

ومع ذلك، كانت هي مَنْ أضمرَ الرَّغبة في قَتْلي، وبالضَّبط عندما تحوَّلَتْ فجأةً من ذلك الشُّعور بالرِّضا الذي منحتُها إيَّاه، والذي جعلها تضحك قليلاً، إلى الشُّعور بشفقةٍ كبيرةٍ عليَّ، شفقةٍ ما هي إلَّا جوابٌ

على تلك الشَّفقة التي لا بدَّ وأنَّها قرأتها، كالمأخوذةِ، في عينَيَّ بينما كنتُ أنظر إليها كما لو من مسافةٍ لا نهاية لها ومن زمنٍ لا آخِرَ له.

لا أعلم بالضَّبط كيف حدث ذلك. ولكنَّه حدث عندما كنتُ، وأنا أنظر إليها من تلك المسافة، أقولُ لها كلماتٍ لم أعد أتذكَّرها، كلماتٍ لا بدَّ أنَّها لمستْ فيها رغبتي اللاعجة في بذلِ كلِّ نَفَسٍ من أنفاسي، وكلِّ ما كنتُ قادراً على أن أكُوْنَه، في سبيلِ أن أصبحَ واحداً، كما كانت تشتهيني هي أن أكون، ولا أحدَ، لا أحدَ على الإطلاق في نظر نفسي. أعلمُ أنَّها من سريرها مَدَّت لي ذراعَيْها؛ أعلمُ أنَّها جذبَتْني إليها؛ ولا أعلمُ سوى ذلك شيئاً.

من ذلك السَّرير، بعد لحظاتٍ، تدحرجتُ فاقدَ البصرِ، مُصاباً بجرحٍ قاتلٍ في صدري، بلى، مِن ذلك المسدَّس الصَّغير الذي كانت تحتفظ به تحت الوسادة.

لا بدَّ وأنَّها كانت صحيحةً الذَّرائعُ التي ساقتْها لتبرئة نفسها: أنَّ رعباً غريزيّاً ومُباغِتاً هو ما حملَها على قَتْلي، رعباً من ذلك الفِعل الذي شعرتْ بأنَّها كانت تُجَرُّ نحوَ الإقدام عليه تحت سطوةِ ذلك السِّحْر الغريب الكامن في كلِّ كلمةٍ كنتُ أقولها لها على مدار تلك الأيَّام.

الكتاب الثَّامن

-I-
القاضي يريدُ أن يأخذَ وقتَه

عادةً، لا تُعَدُّ العجلةُ عيباً يستوجبُ التَّوبيخَ فيما يخصُّ إجراءات القضاء العاديَّة.

غيرَ أنَّ القاضي المُكلَّف بسير الدَّعوى القضائيَّة ضدَّ آنَّا روزا، وهو رجلٌ مستقيمُ الطَّبع والسُّلوك، أراد أن يكون يقظ الضَّمير للغاية، وأن يبدِّدَ من الزَّمن شهوراً وشهوراً قبل أن يصبح جاهزاً لاستعراض الأدلَّة، وذلك، بالطَّبع، بعد أن جمعَت المحكمةُ القرائنَ، واستمعَت إلى الشُّهود.

وعلى أيَّة حالٍ، لم يكن من الممكن أن يحصلوا على أيِّ جوابٍ منِّي عندَ أوَّل استجوابٍ توجَّهوا به إليَّ فورَ نقلي من غرفةِ آنَّا روزا الصَّغيرة إلى المستشفى. عندما سمح لي الأطبَّاء أخيراً بفَتْح فمي، فإنَّ أوَّل إجابةٍ أعطيتُها أوقعتْني أنا، بدلاً من أن توقعَ القائمَ على استجوابي، في الحيرة.

هكذا كان: خاطفاً كالبرقِ داخلَ آنَّا روزا كان التَّحوُّلُ من تلك الشَّفقة التي دفعَتْها إلى مَدِّ ذراعَيْها لي من السَّرير إلى ذلك الحافز الغريزيِّ الذي اضطرَّها إلى اقتراف ذلك العمل العنيف ضدِّي، أنا الذي، إذْ أعمتْني لذَّة القربِ من دفء جسدها الفائق الإغواء، لم يُقَيَّضْ لي صدقاً أن أمتلك لا الوقتَ ولا الوسيلةَ لأدركَ كيف تمكَّنَتْ من إخراج المسدَّس الصَّغير من تحت وسادتها، لتطلق النَّارَ عليَّ. وهكذا، لأنَّه لم يبدُ لي أمراً جديراً بالقبول أنَّها، بعدما استدرجَتْني إليها، أرادتْ قَتْلي، فإنَّني بكلِّ صفاءِ وحُسنِ نيَّةٍ

أعطيتُ القائمَ على استجوابي ذلك التَّفسيرَ للقضيَّة الذي بدا لي أقوى احتمالاً من غيره، ألا وهو أنَّ جرحي، كشأن ذلك الجرح في قَدَمِها، كان غيرَ مقصودٍ، جرَّاءَ ذلك الصَّنيع الذي يستحقُّ التَّوبيخَ باعتراف الجميع، أعني دأبها على الاحتفاظ بذلك المسدَّس الصَّغير تحت وسادتها، ومِن ثَمَّ فممَّا لا شكَّ فيه أنَّني، في محاولتي إنهاضَ المرأة طريحة الفراش التي طلبت منِّي أن أساعدها على الجلوس في السَّرير، قد اصطدمتُ بذلك السِّلاح، وتسبَّبتُ في انطلاق الرَّصاصة.

بالنِّسبة إليَّ، فإنَّ الكذبة (وهي كذبةٌ مُحتَّمة) كانت تكمن في الجزء الأخير من جوابي فحسب؛ أمَّا بالنِّسبة إلى القائم على استجوابي فقد بدتْ من أوَّلها إلى آخِرها في منتهى الصَّفاقة، ما استوجبَ توجيه توبيخٍ حادِّ اللهجة لي. أعلمَني أنَّ المحكمة، ولحسن الحظِّ، كانت قد حصلت على اعترافٍ صريحٍ من المتَّهَمة. عندئذٍ، ولحاجةٍ لا فِكاكَ منها إلى إثباتِ صدقي، بدوتُ، مع ملامح الذُّهول، ساذجاً للغاية، إذْ أظهرتُ له منتهى الفضول لمعرفةِ الذَّرائع التي دفعَت المتَّهمة إلى اقتراف ذلك العمل العنيف ضدِّي.

الجوابُ على سؤالي هذا كان نخيراً مدوِّياً بلَّلَ رذاذُه كلَّ وجهي إلَّا قليلاً.

- آه، لم تكن تريدُ إذاً سوى مساعدتها على الجلوس في السَّرير؟

أُغمِيَ عليَّ.

لا بدَّ وأنَّ المحكمة كانت قد حصلتْ كذلك على شهادةٍ أوَّليَّةٍ من زوجتي التي باتت آنذاك، وأكثر من أيِّ وقتٍ مضى، قادرةً بالتَّأكيد مع

ذلك الدَّليل الملموس على أن تشهد بضميرٍ حيٍّ تماماً بأنَّ تتيُّمي بآنَّا روزا يعودُ إلى أمدٍ بعيد.

وهكذا فإنَّه لم يبقَ أمام المحكمة إلا أن تقتنع، من دون أن يساورها أدنى شكٍّ، بأنَّ آنَّا روزا حاولتْ قَتْلي دفاعاً عن نفسها أمامَ هجومي الوحشيِّ، بما أنَّ آنَّا روزا نفسَها لم تؤكِّد للقاضي، مع حلف اليمين، أنَّ مثل ذلك الهجوم في حقيقةِ الأمر لم يقع مِن قِبَلي مُطلَقاً، وأنَّ الأمر برمَّته يعود إلى وقوعها اللاإراديِّ في ذلك السِّحْرِ العجيبِ الذي مارسَتْه عليها آرائي الفائقة الغرابة في الحياة: سِحْرٍ أسلَمَتْ نفسَها له، ليجرفها بقوَّته العاتية نحو اقتراف ذلك العمل الجنوني.

ولَمَّا كان القاضي، ذلك الحيُّ الضَّمير، غير راضٍ بالخلاصةِ النِّهائيَّة التي استطاعت آنَّا روزا أن تُقدِّمها له فيما يتعلَّق بآرائي تلك، فقد رأى أنَّ من واجبه التماسَ قرائن أكثر دقَّةٍ واستقلاليَّة، وأرادَ المجيء شخصيَّاً للتَّحدُّث إليَّ.

-II-
الدِّثارُ الصُّوفيُّ الأخضر

كنتُ قد نُقِلتُ من المستشفى إلى بيتي على مِحَفَّة؛ وكنتُ ما أزالُ بعدُ في فترة نقاهتي عندما تركتُ السَّريرَ، ورحتُ أمضي تلك الأيَّام مسترخياً بغبطةٍ على كرسيٍّ وثيرٍ قربَ النَّافذة، مع دثارٍ صوفيٍّ أخضر على ساقَيَّ.

كنتُ أشعرُ بي هائماً، كالمخمور، في خواءٍ حالمٍ هادئٍ وعذب. كان الرَّبيع قد عاد، وكانت أوَّلُ خيوط الشَّمس الدَّافئة تمنحني خمولاً، لذَّتُهُ لا توصَف. كان بي شيءٌ من الخوف من أن تصفعني رقَّةُ الهواء الرَّائق والمنعش التي كانت تدخل من النَّافذة نصف المغلَقة، فكنتُ أقي نفسي منها؛ ولكنَّني كنتُ أرفعُ عينَيَّ، بين الفينة والأخرى، لأتأمَّلَ تلك الزُّرقة الفاقعة لسماءِ آذارَ، إذْ تعبرُها غيومٌ وهَّاجةٌ جذلى. ثمَّ كنتُ أنظرُ إلى يَدَيَّ اللتَيْن كانتا ما تزالان ترتعشان فاقدَتيَ الدَّم؛ كنتُ أُريحهما على فخذَيَّ، وبرؤوس أصابعي أداعبُ بلطفٍ الزَّغبَ الأخضر لذلك الدِّثار الصُّوفي. كنتُ أرى الرِّيف برمَّته: كما لو كان كلُّه محضَ امتدادٍ لا حدودَ له من الحنطة؛ وكنتُ أُلاطفه بعينيَّ مُلتذَّاً به، شاعراً حقَّاً بأنَّني مَرميٌّ هناك، في خضمِّ كلِّ تلك الحنطة، مع إحساسٍ بنأيٍ لا آخِرَ له غمرَني بالكرب، بكربٍ فائق العذوبة.

آه، ما أعذب أن تضيعَ هناك؛ أن تستلقي وتتلاشى، هناك على

العشب تحت صمت السَّماوات؛ أن تُترعَ نفسَكَ بكلِّ تلك الزُّرقة الخاوية، تاركاً زورقَ كلِّ فكرةٍ، كلِّ ذكرى، يغرق!

أكان من الممكن، أسألُ نفسي، أن يأتي ذلك القاضي في وقتٍ غير مناسبٍ أكثر من ذلك الوقت؟

يحزُّ في نفسي، إذْ أعيدُ التَّفكير في الأمر الآن، أن يكون قد خرجَ من منزلي في ذلك اليوم مع انطباعٍ بأنَّني كنتُ أريدُ أن أسخرَ به.

كان شبيهَ الخُلد، مع تينك اليَدَيْن الضَّئيلَتَيْن المرفوعَتَيْن دوماً بالقرب من فمه، وتينك العينَيْن الصَّغيرَتَيْن والرَّصاصيَّتَيْن، شِبه العَمياوَيْن والمُغمَضَتَيْن نصفَ إغماضة؛ قزماً ممسوخاً بكلِّ شخصِه الهزيل الرَّديء الملبَس، مع كتفٍ أعلى من الأخرى. في الشَّارع، كان يميل في مشيته، كما تفعل الكلاب، مع أنَّ الجميع كان يقول إنَّه، من النَّاحية الأخلاقيَّة، لم يكن ثمَّة أحدٌ يستطيع السَّير باستقامةٍ أكثر منه.

آرائي في الحياة؟

- آهِ، يا سيِّدي القاضي،- قلتُ له،- ليس في مُكْنَتي، صدِّقني، أن أُعيدها على مَسمعكَ. انظرْ هنا! انظرْ هنا!

وأريتُه الدِّثار الصُّوفيَّ الأخضر، وأنا أمرِّرُ يدِي عليه برقَّة.

- مهمَّة حضرتكَ تتمثَّلُ في جمع وإعدادِ تلك التَّفاصيل التي ستستخدمها المحكمة غداً لإصدار حكمها، أليس كذلك؟ وقد جئتَ لتسألني عن آرائي في الحياة، تلك الآراء التي كانت في نظر المتَّهَمة سبباً كافياً للإقدام على قَتْلي؟ ولكنَّني أخشى جدَّاً، يا سيِّدي القاضي، إنْ أنا

أعدتُها على مسمعكَ الآن، أنَّكَ بدلاً من الإقدام على قَتْلي، ستُقدِمُ على قَتْلِ نفسِكَ، ندماً على هدر كلِّ تلك السِّنين في مزاولةِ مثل هذه المهمَّة. لا، لا: لن أحدِّثكَ بها، يا سيِّدي القاضي! يحسنُ بكَ أن تسدَّ بالقطن أذنَيْكَ، لئلَّا تسمع الدَّويَّ الرَّهيبَ للأمواج المتكسِّرة عندَ كِعابِ السُّدود، في ما وراءَ تلك العلامات المائيَّة التي، بوصفِكَ قاضياً نزيهاً، كنتَ قد رسمتَ حدودَها وأقرَرْتَها لكي تُشكِّلَ وتُوجِّهَ ضميركَ المهووسَ بتحرِّي الدِّقَّة. فهي قد تنهار، كما تعلم، في لحظةٍ ما عندما تثور الزَّوبعة، مثلما حصلَ مع الآنسة آنَّا روزا. أيُّ أمواج؟ آه، أمواج السَّيل الجارف، يا سيِّدي القاضي! لقد أجدتَ تسييرَها في قنواتٍ، عبرَ عواطفكَ، عبرَ الواجبات التي ألزمتَ نفسكَ بها، وعبرَ الطِّباع التي رسمتَها لنفسِكَ؛ ولكنَّ لحظة الفيضان تأتي بعدئذٍ، يا سيِّدي القاضي، والسَّيلُ يجاوزُ السَّدَّ، يجاوزُه ويقلبُ كلَّ شيء. أنا مَنْ يعلم ذلك. كلُّ شيءٍ مغمورٌ بالنِّسبة إليَّ، يا سيِّدي القاضي! لقد ألقيتُ بنفسي في تلك المياه، وها أنا أسبحُ فيها الآن، أسبحُ وأسبح. وليتكَ تعلمُ كم بتُّ بعيداً! حتَّى إنَّني بالكاد أراكَ. في أمان الله، يا سيِّدي القاضي، في أمان الله!

لبث في مكانه، خَدِراً، ينظرُ إليَّ كما يُنظَرُ إلى مريضٍ لا أمل في علاجه. آملاً إخراجَه من ذلك الموقف الأليم، ابتسمتُ له؛ وبكلتا يَدَيَّ رفعتُ ذلك الدِّثار عن ركبَتَيَّ، وعرضْتُه عليه مرَّةً أخرى بعدُ، سائلاً إيَّاه ببشاشة:

- ولكنْ، أستميحُك عذراً، ألا يبدو لكَ جميلاً، بخضرته الفاقعة، هذا الدِّثارُ الصُّوفيُّ؟

-III-
نُكرانُ الذَّات

واسَيتُ نفسي بالتَّفكير في أنَّ كلَّ هذا من شأنه أن يُيسِّرَ لأنَّا روزا براءتَها. ولكنْ، من ناحيةٍ أخرى، كان هناك إسكليبيس الذي هرعَ إليَّ عدَّةَ مرَّاتٍ، مرتعداً بكاملِ هيكلِه الغضروفيِّ، ليُبلغني أنَّني قد صعَّبتُ ولا أني أصعِّبُ عليه أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى مهمَّةَ إنقاذي.

أيُعقَلُ أنَّني لم أكن على علمٍ بالفضيحةِ الهائلة التي أثارتْها تلك الواقعة التي ألَمَّتْ بي، وذلك في لحظةٍ كان ينبغي لي فيها أن أقدِّمَ دليلاً على أنَّني أكثر منهم احتفاظاً برأسي في محلِّها؟ ما الذي فعلتُه، عوضاً عن ذلك، سوى أنَّني أثبتُّ أنَّ زوجتي كانت مُحِقَّةً في مضيِّها إلى بيت أبيها بعدَ تصرُّفي الشَّائن معها؟ لقد خنتُها؛ ولا لشيءٍ إلَّا لكي أجمِّلَ نفسي في عَينَي تلك الفتاة الهوجاء، أعربتُ عن رغبتي في ألَّا أُدعَى بعد الآن مُرابياً في تلك البلدة! ولكَم أعمتْني تلك العاطفة الآثمة، فبتُّ عازماً بعنادٍ على تدمير نفسي والآخرين، على الرَّغم من أنَّ هذه العاطفة الآثمة نفسها كادتْ تكلِّفني حياتي!

آنذاك لم يبقَ لإسكليبيس، أمامَ انتفاضة الجميع في وجهه، إلَّا أن يُقرَّ بأخطائي المؤسفة، ولكي يُنقذني لم يرَ منجىً آخرَ لي غيرَ تقديم اعترافٍ صريحٍ مِن قِبَلي بهذه الأخطاء. ولكنْ، كان من الضَّروري، لئلَّا يكون اعترافي هذا محفوفاً بالمخاطر، أن أُظهِرَ في الوقتِ نفسِه أنَّ روحي كانت في حاجةٍ

مُستَعِرةٍ ومُلِحَّةٍ إلى تقديم كفَّارةٍ بطوليَّة، كيما أمنحه العزمَ والقوَّة ليطلب من الآخرين التَّضحيةَ بمصالحهم الخاصَّة.

لم أفعلْ سوى أنْ أومأتُ برأسي موافقاً على ما قاله لي، من دون أن أجشِّمَ نفسي عناءَ استقصاءِ متى وابتداءً من أين أخذَتْ تلك المناظرَة الجدليَّة تتحوَّل شيئاً فشيئاً في أعماقه، فيما هو يزداد تحمُّساً لها، إلى قناعةٍ قلبيَّةٍ خالصة. ما أعلمُه يقيناً هو أنَّه منذ ذلك الحين فصاعداً كان يبدو أكثر فأكثر ارتياحاً؛ حتَّى وإن بقيَتْ في داخله، ربمَّا، بعضُ الحيرةِ حولَ إذا ما كان هذا الارتياح عائداً إلى شعورٍ حقيقيٍّ بالرَّأفة أم إلى الزَّهوِ بحصافةِ عقلِه.

كان القرارُ الذي تمَّ التَّوصُّلُ إليه يقتضي أن أقدِّمَ مثالاً، ومثالاً في غاية المهابة، على النَّدمِ ونكران الذَّات، عبرَ التَّبرُّع بكلِّ شيءٍ، بما في ذلك بيتي وكلُّ ممتلكاتي الأخرى، لأجلِ أن أؤسِّسَ، بما يجب أن أحصل عليه من تصفية الشِّركة المصرفيَّة، مأوىً للمتسوِّلين يُلحَقُ به مطبخٌ شعبيٌّ يكون مفتوحاً على مدار العام، لا لمنفعةِ النُّزلاء فحسب، ولكنْ أيضاً أمامَ كلِّ الفقراء الذين قد يحتاجون إليه؛ وينبغي أن يُلحَقَ به كذلك مخزنٌ للملابس لكلا الجنسَيْن، ولجميع الأعمار، يخدمُ السَّوادَ الأعظمَ في أيِّ وقتٍ من السَّنة؛ وأنا نفسي يجب أن آخذَ غرفةً في ذلك المأوى، أنامُ فيها دونما امتيازاتٍ، كأيِّ متسوِّلٍ آخر، في سريرٍ من تلك الأسرَّةِ القابلةِ للطَّيِّ، وأتناولُ كالآخرين حسائي من قصعةٍ خشبيَّة، لابساً رداءَ الجماعةِ المصمَّمَ لشخصٍ من عمري وجنسي.

ما أهانني أكثر من أيِّ شيءٍ آخر هو أنَّ هذا النُّكرانَ الكليَّ للذَّات كان يُفَسَّرُ على أنَّه ندامةٌ حقيقيَّة؛ في حين أنَّني لم أكن لأبذلَ كلَّ شيءٍ،

من دون أن أعارضَ أمراً البتَّةَ، إلَّا لأنَّني كنتُ في وقتها بعيداً للغايةِ عن أيِّ شيءٍ قد يكون له معنىً أو قيمةً في نظر الآخرين؛ فأنا لم أكن مغايراً تماماً لنفسي ولكلِّ ما يمتُّ إليَّ بصِلَةٍ فحسب، بل كنتُ أيضاً في منتهى الخوفِ من أن أبقى بأيِّ شكلٍ من الأشكال شخصاً *ما*، في حورته شيءٌ ما.

وإذْ لم أعد طامعاً بأيِّ شيءٍ، فقد بتُّ أشعرُ بأنَّني لم أعد قادراً على الكلام. وهكذا بقيتُ صامتاً، وأنا أنظرُ بإعجابٍ إلى ذلك الأُسْقُف العجوز الشَّاحب الذي يملك قوَّةَ إرادةٍ عظيمةً ويعرف كيف يصرِّفُ تلك الإرادة بدهاءٍ خفيٍّ، لا من أجل منفعته الخاصَّة، ولا سعياً ربَّما إلى عملٍ فيه خيرٌ للآخرين، بل من أجل تلك المزايا التي سينالها بيتُ الله الذي كان خادماً فائقَ الإخلاص والتَّعصُّب له.

هوَ ذا، إذاً: في نظرِ نفسِه، هو لا أحد.

أكانت تلك هي، ربَّما، الطَّريق التي قادتْني إلى أن أصيرَ واحداً في نظر الجميع؟

ولكنْ، كان في نفسِ هذا الكاهن زهوٌ مفرطٌ بما لديه من قدرةٍ وحكمة. فبالرَّغم من أنَّه كان يحيا لأجل الآخرين، كان ما يزال يتطلَّع إلى أن يكون واحداً في نظر نفسِه، ليتميَّز جيِّداً عن الآخرين بتلك الحكمة وذاك النُّفوذ، ناهيك عن إيمانه المُثبَت بالبيِّنةِ والدَّليل وغيرته التي لا تفوقها غيرة.

إنَّه السَّببُ الذي جعلني أواصلُ النَّظرَ إليه بإعجابٍ، ولكنْ في الوقتِ نفسِه مع شعورٍ بالألم.

-IV-
لا خاتمة

كانتْ آنَّا روزا قد بُرِّئت طبعاً؛ ولكنْ، لا يمكن إلَّا أن أشعرَ بأنَّ تبرئتها كانت تعودُ بلا ريبٍ في جزءٍ منها إلى ذلك المرح الصَّاخب الذي عمَّ قاعةَ المحكمة عندما، إذْ دُعِيْتُ لأداء شهادتي، مثلتُ أمامَ الحضور واضعاً قَلَنْسُوَةً على رأسي، ومُحتذياً قبقاباً، ومرتدياً برَّةَ المأوى الفيروزيَّة اللون.

ما عدتُ، منذ ذلك اليوم، أنظرُ في مرآة؛ والرَّغبةُ في معرفةِ الحال التي أصبحَ عليها وجهي ومظهري بأسره لم تعدْ تخطرُ على الإطلاق ببالي. لا بدَّ وأنَّ مظهري كان قد تغيَّر كثيراً في نظر الآخرين، وعلى نحوٍ هزليٍّ بما فيه الكفاية، إذا ما أردنا أن نحكمَ من ملامح الدَّهشة ومن القهقهات التي استقبلوني بها. ومع ذلك، بقيَ الجميع مُصرَّاً على مناداتي بموسكاردا، على الرَّغم من أنَّ اسمَ موسكاردا بات يملك بالنِّسبة إلى كلِّ واحدٍ منهم دلالةً أخرى مغايرةً تماماً لذي قبل، ويبدو لي أنَّه كان من الممكن أن يُوفِّروا على ذلك النَّكِرَة البائس المتلاشي هناك، الملتحي والمبتسم، بقبقابه وبرَّته الفيروزيَّة، ألمَ الاضطرار مرَّةً أخرى إلى الالتفات عندَ سماعِ ذلك الاسم، كما لو أنَّه كان ينتمي إليه حقَّاً.

لا اسم. لا ذكرى اليومَ لاسمِ الأمس؛ ولا ذكرى لاسمِ اليوم غداً. إذا كان الاسمُ هو الشَّيء؛ إذا كان الاسمُ في داخلنا هو مدلول كلِّ ما يقعُ خارجنا؛ إذا لم يكن ثمَّة مدلولٌ من دون اسم؛ وإذا كان على الشَّيء أن يبقى كما

لو كان ملفوفاً بالدَّياجير في داخلنا، ضبابيَّاً وغيرَ قابلٍ للتَّحديد؛ إذا كان ذلك كذلك، فلْيأخذْ كلُّ واحدٍ من النَّاس ذلك الاسمَ الذي حملتُه يوماً بينهم، وَلْيحفرْهُ كنقشٍ جنائزيٍّ على جبين تلك الصُّورة التي كانوا يروننني عليها، وَلْيتركوه في سلامٍ هناك، وَلْيصمتوا عن التَّكلُّم في شأنه إلى الأبد. ذلك أنَّ الاسمَ، أيَّ اسمٍ، ليس أكثر من نقشٍ جنائزيٍّ. شيءٌ يليق بالموتى. بمَنْ وصلَ إلى خاتمة. أمَّا أنا فحيٌّ، ولم أبلغْ أيَّ خاتمةٍ بعد. الحياةُ لا تعرف خاتمةً. ولا تعرف عن الأسماء شيئاً. هذه الشَّجرة، هذا التَّنفُّسُ الرَّاعشُ لوريقاتٍ طازجة. أنا هي هذه الشَّجرة. شجرةٌ، غيمةٌ؛ وغداً كتابٌ أو نسيمٌ: الكتابُ الذي أقرأ، النَّسيمُ الذي أعُبُّ. أن أقيمَ كُلِّيًّا خارجَ نفسي، متشرِّداً.

يقعُ المأوى في أحضان الرِّيف المفتوح، في مكانٍ يخلبُ الألباب. أخرجُ فجرَ كلِّ يومٍ، ولا غاية لي الآن إلَّا أن أُبقي على روحي مترَعةً بكلِّ طراواتِ الفجر، في غمرة الأشياء نصفِ المرئيَّة، تلك التي ما تزالُ تشي بفجاجةِ الليل، قبلَ أن تخرجَ الشَّمسُ لتجفِّفَ أنفاسَها المندَّاة وتعشي أبصارَها. هاتيك الغماماتُ الحبالىَ بمائها، تستريحُ كرُكامٍ رصاصيٍّ على الجبالِ الكابيةِ الألوان، فتجعل ذلك القرحَ الأخضرَ في جسدِ السَّماء يبدو أكثر انفساحاً وإشراقاً وسط ما بقيَ عالقاً من ظلالِ الليل. وهذه النِّصالُ العشبيَّةُ هنا، التي تتقطَّرُ نداوةً ورقَّةً، تتنشَّقُ هي الأخرى عذوبةَ الضِّفاف. وذلك الحمارُ اللابثُ هناك بسكونٍ طوالَ الليل، والذي يُحدِّق الآن بعينَيْن غائمتَيْن، ويرسلُ نخيراً رطباً في قلب هذا الصَّمت القريب أشدَّ القرب منه، ها هو، كما يُخيَّلُ إليَّ، يشهدُ، دونما استغرابٍ، أفولَ الصَّمتِ شيئاً فشيئاً عمَّا حولَه، مع الضِّياء الذي بدأ يتفشَّى في الحقول المهجورةِ والمغلَّفة بالدَّهشة. وهذه المسالكُ هنا، مسالكُ العربات، بين أسيجةِ شجيراتٍ داكنةٍ من جهةٍ وبقايا أسوارٍ حجريَّةٍ واطئةٍ من الجهةِ

الأخرى، تبدو مقيمةً ما تزال على جراحِ أخاديدها، وتأبى الزَّوال. والهواءُ في أوَّلِ طراوتِه. وكلُّ شيءٍ، لحظةً تِلْوَ لحظة، هو كما هو، يحيا ليتَّخذ له مظهراً. أحوِّلُ عينيَّ على الفور لكيلا أرى بعدَ الآن أيَّ شيءٍ وهو يجمدُ في مظهره ويموت. هكذا فحسب أستطيعُ أن أعيش، من الآن فصاعداً. بأن أولَدَ مرَّةً بعد مرَّةٍ، ولحظةً تِلْوَ لحظة. بأن ألجمَ الفِكْرَ فيَّ عن العملِ مرَّةً أخرى، وأعيدَ في داخلي تشكيلَ الخواء المواطئ لهباءِ كلِّ ابتناء.

المدينةُ بعيدة. يبلغُني منها، أحياناً، في هدأةِ الغروب، صوتُ الأجراس. ولكنَّني لم أعد أسمعُ تلك الأجراس في داخلي الآن، وإنَّما من خارجٍ فحسب،- أسمعها ترنُّ حُبَّاً بذاتها، وربَّما كانت ترتعشُ محبورةً داخلَ تجاويفها المُرِنَّة، في سماءٍ زرقاءَ آسِرَةٍ ملأى بشمسٍ ساخنة وسطَ الصَّيحاتِ الحادَّةِ للسُّنونوات أو في قلب الرِّيح الغماميَّة، ثقيلةً جدَّاً، عاليةً جدَّاً، في أبراجها الأثيريَّة. أحدٌ ما يفكِّرُ في الموتِ؟ أحدٌ ما يصلِّي؟ لعلَّ هنالك مَنْ ما يزال في حاجةٍ إلى هذا، ولعلَّها تصنعُ لأجل ذلك إرناناتِها. أنا لم أعد في حاجةٍ إلى هذا، لأنَّني في كلِّ هُنيهةٍ أموت، وأولَدُ من جديدٍ ومن دون ذكريات: حيَّاً ومكتملاً، لا داخلَ كينونتي بعد الآن، ولكنْ، في كلِّ شيءٍ خارجَها.

فهرس المحتويات

الكتاب الأوَّل ٥

الكتاب الثَّاني ٣٩

الكتاب الثَّالث ٨٣

الكتاب الرَّابع ١٢١

الكتاب الخامس ١٦٩

الكتاب السَّادس ٢١١

الكتاب السَّابع ٢٣١

الكتاب الثَّامن ٢٧١

من الكتاب:

المدينةُ بعيدة. يبلغُني منها، أحياناً، في هدأةِ الغروب، صوتُ الأجراس. ولكنَّني لم أعد أسمعُ تلك الأجراس في داخلي الآن، وإنَّما من خارجٍ فحسب،- أسمعها ترنُّ حُبَّاً بذاتها، وربَّما كانت ترتعشُ محبورةً داخلَ تجاويفها المُرنَّة، في سماءٍ زرقاءَ آسِرَةٍ ملأى بشمسٍ ساخنة وسطَ الصَّيحاتِ الحادَّةِ للسُّنونوات أو في قلب الرِّيح الغَماميَّة، ثقيلةً جدَّاً، عاليةً جدَّاً، في أبراجها الأثيريَّة. أحدٌ ما يفكِّرُ في الموتِ؟ أحدٌ ما يصلِّي؟ لعلَّ هنالك مَنْ ما يزال في حاجةٍ إلى هذا، ولعلَّها تصنعُ لأجل ذلك إرناناتِها. أنا لم أعد في حاجةٍ إلى هذا، لأنَّني في كلِّ هُنيهةٍ أموت، وأولَدُ من جديدٍ ومن دون ذكريات: حيَّاً ومكتملاً، لا داخلَ كينونتي بعد الآن، ولكنْ، في كلِّ شيءٍ خارجَها.

المتوسط

لويجي بيراندِلُّلو (١٨٦٧-١٩٣٦): شاعرٌ وروائيٌّ وكاتبُ قصَّةٍ قصيرةٍ ومؤلِّفٌ مسرحيٌّ إيطالي حاصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٣٤. نال بيراندِلُّلو درجة الإجازة في الأدب من جامعة بون بألمانيا عن رسالته التي كتبها حول اللهجة العامية في صقلية، ثم علَّم اللغة الإيطاليَّة مدَّة سنةٍ في الجامعة نفسها وترجم ديوان المراثي الروميَّة للشَّاعر الألماني غوته، ونشره في روما عام ١٨٩١ قبل عامٍ واحدٍ من عودته إليها حيث استقرَّ متفرِّغاً للكتابة. نشر أوَّل ديوانٍ له في أثناء دراسته في روما والثَّاني عام ١٨٥٩. دخلَ عالم الكتابة من بوَّابة الشِّعر، غير أنَّ شهرته ذاعت، على نحوٍ واسعٍ، في مجال المسرح، إذ برزَ كواحدٍ من أهمِّ الكتَّاب المسرحيِّين، وكان لأسلوبه تأثيرٌ على كتَّاب المسرح في العالَم، وخصوصاً على زملائه في القارَّة الأوروبِّيَّة، كالإيرلندي صموئيل بيكيت، والفرنسي جان بول سارتر، والسُّويسري فردريك دورينمات.

حادثتان في حياته حفَّرتاه على التَّجريب ضمن عدَّة أشكالٍ أدبيَّة وعلى التَّعبير بأكثر من طريقةٍ وأسلوب؛ الأولى: ولادته في صقلية البائسة في الجنوب الإيطاليِّ، حيث آلمه التَّباين الشَّاسع بين ثراء الشَّمال وفقر الجنوب، والثَّانية: صحوة فلَّاحي صقلية في نهاية القرن التَّاسع عشر، والتي دفعته إلى أن يكون صوت من لا صوت لهم، صوت البسطاء والحالمين.

منشورات المتوسط

«النَّصُّ الأكثر مرارةً من أيِّ نصٍّ آخر، السَّاخرُ أعمقَ ما تكون السُّخرية من تحلُّلِ الحياةِ نفسِها»؛ هكذا يصف بيراندِلُّلو، في رسالةٍ من رسائل سيرته الذَّاتيَّة، عملَه الرِّوائيَّ الأخير (هذا) الذي سينظر إليه كثيرٌ من الدَّارسين والمفكِّرين لاحقاً على أنَّه تكثيفٌ لكلِّ الأفكار واختصارٌ لكلِّ العوالم التي أراد بيراندِلُّلو التَّعبيرَ عنها في الرِّوايةِ والقصَّةِ والمسرح.

ولا غروَ في ذلك إذا ما علمنا أنَّ بيراندِلُّلو عملَ خمسة عشر عاماً على إنجاز هذه الرِّواية، وقد قال هو نفسُه إنَّه أبداً لم يضعها جانباً بين عملٍ وآخر، بل واصل العملَ عليها والتَّعديلَ فيها، معتبراً إيَّاها بعد كلِّ شيءٍ أشبهَ بوصيَّته الفكريَّة والأدبيَّة. ومع ذلك، ليس من الإنصاف القولُ إنَّ هذه الرِّواية روايةٌ فكريَّةٌ فحسب، فهي وإن كانت تنطلق من فكرةٍ فلسفيَّةٍ ووجوديَّة إلَّا أنَّها لا تُغفِلُ الحدثَ الرِّوائيَّ وبناءَ الشَّخصيَّةِ الرِّوائيَّة، وهذا ما يجعلها في رأي كثيرين من طينةِ «المسخ» لكافكا، أو «يوليسيس» لجيمس جويس، أو حتَّى «البحث عن الزَّمن الضَّائع» لبروست.

ISBN 978-88-85771-05-5
9 788885 771055
المتوسط